حراس البوابة

منذر المدفعي

2016

ويل للآشوريين, قضيب غضبي, الحاملين في أيديهم عصا سخطي.
أرسلهم ضد أمة منافقة, وأوصيهم على شعبي الذي غضبت عليه, ليغنموا غنائمهم ويستولوا على أسلابهم, ويطأوهم كما يطأون الوحل.
لكن ملك آشور لا يعلم أنني أنا الذي أرسلته.....
لكن حالما ينتهي الرب من عمله بجبل صهيون, فإنه سيعاقب ملك آشور على غرور قلبه وتشامخ عينيه....
ولا تبقى من أشجار الغابة إلا قلة يحصيها صبي.
التوراة.. سفر إشعياء

1

في ملحمة جلجامش هنالك نص مفقود في الوسط. نص محاه الزمن, أو ربما محاه أحدهم بيده. غزوات عديدة تعرضت لها أور وبابل، فقدتا خلال تلك الأيام الكثير من كنوزهما, واندثرت ثقافة تلك المدن وغابت تحت الرمال الصفراء. نينوى لم تسلم هي الأخرى من حوافر الخيول السوداء.
تلك كانت ملحمة.
أما ملحمتي فأغلب حلقاتها مفقودة، لا أكاد أربطها حتى ينفرط العقد من جديد وكأن اللا تناسق أصبح صفة من صفاتها الأزلية. ومهما شرعت في جمع شتات أيامي وأفكاري تعود اللاطمأنينة من جديد لتهيمن على هذه الحكاية التي لا أقوى حتى على اعتبار ذاتي كبطل من أبطالها وإنما مجرد فرد رماه قدره المحتوم على تلك الأرض ليؤدي دورًا لا خيار له فيه.
دور قد لا ينفع بشيء، لكنه دور على أية حال وعليَ أن أؤديه بانتظار أن يأتي أحد من بعدي ليكمل ما بدأت..
بدأت حياتي متأخرا, تأخرت لأكثر من قرن من الزمان.
ليست غلطتي... ولدت متأخرًا عن الأحداث التي مررت بها خلال هذه الحكاية.

أسير نحو الأمام...
أتقدم صوب ضياء بعيد, لكنني أكتشف دائمًا بأن خطواتي لم تكن سوى مراوحة فوق بقعة محدودة, وأن التقدم إلى الأمام ليس إلا أملًا بسيطًا مستحيل التحقق. وأن ما توهمته ضياء لم يكن غير وهج التمع فجأة وغاب.. خطف بصري وبقيت أتوهمه يتلألأ أمامي.

لمحته من بعيد وهو يتقدم نحوي بسرعة، لشدة سرعته لم أتمكن من تمييز شكله الذي بدى لي ككائن لا بشري، لم أجرؤ على تسميته حيوانًا لأنني غير متأكد من ذلك فهالة التراب التي اكتسى بها منعتني من رؤية وجهه.
لكن ما لمحته عيناي قبل أن يرفسني على وجهي هو ساقًا صلبة بحوافر صخرية، أو ربما هكذا تخيلتها لشدة الألم الذي أصابني وأنا أتلقى تلك الرفسة الفولاذية دون أن أقوى على صدها.
لم أكن مكبلا ولكنني شعرت بأني مشلول!!
حتى لو كنت قادرًا على الركض لا أعتقد بأنني سأفلح في الهرب من ذلك الكائن الغريب الذي فاق سرعة الضوء. فالركض خلال الحلم ليس إلا مراوحة في نفس النقطة.. أحاول الإسراع لكن ساقيَ لا تطيعان!
أتحرك، لكني لا أغادر البقعة التي أقف عليها، هكذا يتمكن الخوف مني دائمًا فأصحو فزعًا.
امتدت يد سمراء من خلال الغبار السميك الذي اكتسى به ذلك الكائن المريع، سحبتني إلى الأعلى.. خشيت أن أفلت من قبضتها وأسقط أرضًا لأغدو فريسة الحوافر الفولاذية من جديد.
صرخت...
صرخت بأعلى صوتي.
فتحت عيني فوجدت والدي بجانبي, يهزني بيده السمراء. نظرت إلى يده.
إنها هي، تلك اليد التي سحبتني إلى الأعلى بعيدًا عن ذلك الكائن.
ليست المرة الأولى التي أتعرض بها لهذا الكابوس المريع!
في كل مرة يأتيني الكائن الغريب خلال النوم ويرفسني بقوة دون أن يترك لي مجالا لأراه. ويغادر كالبرق حتى من دون أن يقول لي لماذا يفعل بي ما فعل!!
يتركني ممددًا أرضًا ولا أرى غير الغبار المتناثر خلفه وطعمًا مرًا في فمي.

ـ إنهض يا سالم، مابك ملأت المنزل صراخًا؟!
ـ آه، لا شيء.. مجرد كابوس.
ـ أهو الكابوس ذاته؟!
ـ نعم، مع بعض الإضافات.

ـ أوصيتك أن تقرأ القرآن قبل النوم لكنك لا تسمع كلامي!
ـ سأفعل. سأفعل في المرة القادمة.
ـ اغسل وجهك وانزل. هناك زوار يرغبون برؤية المنزل.

كلمني والدي عن هذا الأمر منذ يومين لكني توقعته سيغير رأيه.
لا أستوعب فكرة بيع المنزل هكذا على جناح السرعة بعد كل تلك الأعوام التي قضاها فيه. لن يكون سهلًا عليه أن يبيع ذكريات سبعة وعشرين عامًا.
شرب الزائران الشاي وعيناهما تطوفان بين الجدران والأرضية ثم تتسلقان نحو السقف وزواياه. بدءًا بتفحص المنزل حتى قبل أن يستأذنا والدي بذلك.
لم أرغب أن أراهما يدخلان إلى غرفتي التي لم يعد أحد يعتني بها غيري منذ رحيل والدتي عن عالمنا.
أمسكت بمقبض الباب بيدي وفتحته بعجالة دون أن أفسح لهما المجال للدخول:
ـ هذه غرفتي، مساحتها... لا بأس بها.
لم أفكر يومًا بقياس مساحة غرفتي! كانت تلك المساحة تكبر وتصغر تبعا لوضعي النفسي.
حينما رحلت والدتي عنا أمسيت أرى الغرفة أصغر من علبة الكبريت.
وحينما أبيت سعيدًا أراها أوسع من شارع الرشيد بكل ما فيه من محلات ومكتبات ومقاهي. خصوصًا عندما نلت شهادة الماجستير في علم الآثار أو عندما أدركت بأن وسن تشاركني نفس الأحاسيس وخطفت منها القبلة الأولى في غرفتي.
لم تكن مجرد قبلة.
القبلة كانت بداية طريقنا نحو سريري. شعرت حينها بأن السرير هو الذي زحف نحونا أو أن أقدامنا قادتنا نحوه دون أن تلامس الأرض.

طلب والدي بضعة أيام ليفكر بالمبلغ الذي اقترحاه عليه. انتهى اللقاء بسرعة وغاص والدي بحزن عميق.. لم يكن قادرًا على إخفاء ذلك الحزن الذي ترقرق في عينيه:

ـ لست مجبرًا على بيع البيت يا أبي. لماذا لا تؤجره مثلا؟
ـ في كلتا الحالتين أنا مجبر على مغادرته.. هذا ما يؤلمني.

أدرت جهاز التلفاز واخترت قناة فضائية لا تعرض غير الأفلام القديمة التي يهواها والدي. وضعت جهاز التحكم في متناول يده وتركته متوجهًا إلى غرفتي التي غدت مرة أخرى بمساحة علبة الكبريت.
فتحت الشباك كي تتسع مساحة غرفتي قليلًا. لم أر غير الرايات السوداء والحمراء منتشرة على أسطح البيوت المتلاصقة. ها قد دخلنا في شهر محرم منذ يومين وستبدأ مجالس العزاء والمئاتم بذكرى استشهاد الحسين.
أكتشفت الطائفة التي من المفترض أننا ننتمي إليها منذ أعوام قليلة، ولم أشعر بخطر الإنتماء إلى طائفة من الطوائف إلا حينما قتل البعض باسم المذهب أو الدين.
برغم ذلك اعتقدت أن هذا لن يجلب لنا المشاكل لأنني لا أرى أي من تلك المذاهب يمكن لها أن تمثلني, خصوصًا وأن آخر مذهب ظهر يفصلني عنه عدة قرون. إلا أن زيارة عمي لنا قبل أشهر واقتراحه بأن ننتقل إلى الحي الذي يسكن فيه بحجة أنه أكثر أمانًا لنا نبهتني لخطر يحيق بنا وأكدت لي بأن التهديد أمسى حقيقيا.

أرسلت رسالة نصية من هاتفي الجوال إلى عمي:
سيتفق والدي على بيع المنزل. يبدو حزينًا جدًا. أرجو أن تتصل به وتخفف عنه.

لم تمر إلا دقائق حتى سمعت هاتف والدي يرن في الطابق الأرضي.
هاتفي هو الآخر بدأ يرن، عرفت المتصل قبل أن أرى الإسم على شاشة الهاتف. خصصت لها أغنية "قولي أحبك كي تزيد وسامتي"، إنها حبيبتي وسن.. ما إن سمعت صوتها حتى أصبحت غرفتي بمساحة قصر منيف يعبق بأزكى العطور.

* * *

شتاء عام ١٨٤٦..

شعر هنري أوستن لايارد بالتعب مبكرًا هذا النهار. لم يتوقف المطر عن الهطول من سماء لندن الرمادية طوال يومين. غادر عمه منذ الصباح لمرافعة مهمة لكنه تأخر، فاستنتج لايارد بأنه لن يعود إلى المكتب هذا النهار.. ارتدى معطفه الأسود ووضع قبعته الرمادية على رأسه وخرج من المكتب بخطوات واسعة كما تعود أن يسير منذ صغره، ففي لندن لا يمكن السير بخطوات بطيئة بسبب كثرة هطول الأمطار، السير في الشارع أشبه بالركض حتى عندما يكون الجو مشمسًا..

عاد بعد ثوان وأخذ مظلته السوداء وخرج يسير تحت المطر باحثًا عن عربة تقله إلى منزله..

أخرج ساعته من جيبه، إنها الثالثة بعد الظهر. تذكر بأنه لم يتناول غداءه بعد فقرر أن يأكل وجبة بسيطة في أحد المطاعم.

جلس في مطعم يطل على ساحة ترافالغار وبدأ يتناول وجبته وعينيه لا تغادران العمود العملاق الذي بني منذ أربعة أعوام وسط تلك الساحة..

كان اللندنيون ينظرون إلى هذا العمود بفخر لأن تمثال اللورد نلسون يربض فوق قمة العمود الحجري، أما قاعدة العمود فهي محاطة بأربعة أسود معدنية صنعت من الحديد الذي غنمه اللورد نلسون من سفن العدو اللدود الإمبراطور نابليون.

بقي لايارد جالسًا لأكثر من ساعة في المطعم وهو يشرب الشاي تارة ويتطلع إلى ذلك الصرح تارة أخرى. يراقب المارة وهم يسيرون بخطى سريعة أقرب للهرولة تحت المطر:

ـ لماذا لا أفعل أنا أيضا شيئًا مهمًا يجعل بريطانيا تصنع لي تمثالًا يخلد ذكراي, هل كان اللورد نلسون يحارب من أجل بريطانيا أم من أجله هو؟

بالطبع عندما واجه الأسطول الفرنسي لم يكن يعرف ما ستؤول إليه نتيجة الحرب لكنه لا يرمي بنفسه في مواجهة إن لم يكن واثقًا من النجاح..

هو كذلك منذ بدايته في الجيش..

حتى عمي بنيامين يفعل الشيء ذاته في مكتبه.. هو لا يوافق على المرافعة عن قضية إن لم يكن واثقًا من نجاحه.. وإن لم يكن واثقًا تمامًا ينتظر ويؤجل ويكسب الوقت لحين حصوله على براهين وأدلة كافية تدعم

قضيته. هذا هو أسلوب النجاح كما أعتقد. فعندما أنتهي من العمل لن يسألني أحد كم من الوقت استغرقت وإنما سينظرون إلى ما أنتجت يداي.

خرج لايارد من المطعم مسرعًا نحو المنزل الذي غادره والده منذ أشهر قاصدًا الهند للعمل هناك كمستشار في وزارة المستعمرات.
جلس في غرفته، ينصت بملل لصوت المطر الذي ينقر بلا خجل على زجاج النوافذ. سحب الستارة الخفيفة ووقف خلف النافذة يراقب سماء رمادية قريبة من أسطح البنايات المبللة، وأشجارًا فقدت معظم أوراقها فبدت كأفاع تحاول القفز نحو المنزل:
"أشعر بالضجر.. أشعر بالملل.. أكاد أختنق من هذا الجو الرمادي. يجب أن أفعل شيئًا أغير به حياتي. لكن ما هو؟".

توجه لايارد نحو صندوق البريد أمام باب المنزل الخارجي باحثًا عن رسالة ينتظرها منذ عدة أشهر.. لكنها لم تصل بعد.
بدأ يفقد الأمل بوصولها. يعول كثيرًا على تلك الرسالة لتغيير حياته الرتيبة. قدم طلبًا للعمل في جزيرة سيلان بمكتب وزارة المستعمرات لكنه لم يحصل على رد بعد.
كان يعتقد بأن تخرجه من كلية الحقوق سيمنحه فرصة العمل خارج البلاد في إحدى المستعمرات لكنه اكتشف بأنه بحاجة لممارسة المهنة قبل توجيه الطلب، لذا قرر الالتحاق بمكتب عمه لكسب خبرة تؤهله للوظيفة التي يبحث عنها.
بدأ يشعر بخيبة الأمل لأنه لا يقوم بشيء مهم في المكتب ما عدا تحرير بعض اللوائح القانونية أو قراءة مسودات المرافعات التي يستعد عمه لتنفيذها فيطلب منه قراءتها ليستمع لرأيه قبل موعد المرافعة، وهو يعلم بأن عمه يفعل ذلك ليشعره بأنه يشاركه في العمل.
خبرته العريضة في مجال القانون تجعله في غنى عن رأي مبتدىء مثل لايارد.
يشعر بالضجر وهو يطري عمه بعدما يسمع منه عباراته البليغة التي يتهيأ لإلقائها أمام القضاة والمحامين والمتهمين. وحتى لو أبدى ملاحظاته أمام

عمه فإنه سرعان ما سيكتشف بأن تلك الملاحظات لم تكن غير محاولات خجولة للمشاركة بالحديث، وهي لا تغني من شيء.
لم يمر على عمله مع عمه بنيامين غير أشهر قليلة لكنه بدأ يشعر بأنه سجين في ذلك المكتب الصغير في حي شلتهام وسط لندن.
لم يعثر على شيء في صندوق البريد. سأل والدته إن كان ساعي البريد قد سلمها رسالة هذا الصباح:
ـ وصلت رسالة من والدك. هو بخير ويبعث لك سلامه وقبلاته.
أطرق برأسه للأسفل وهو ويغادر الصالة, ليس هذا ما ينتظره.
عاد إلى غرفته دون أن يطلب من والدته أن تناوله الرسالة ليقرأها.
أستغربت والدته هذا اللااكتراث غير المألوف:
"في السابق كان يقرأ رسائل والده بلهفة. ماذا به، مالذي يشغله هكذا؟! قد يكون مريضا؟ ".

جلس في غرفته من جديد، نظر إلى رفوف كتبه. امتدت يده بصورة آلية نحو كتاب العهد القديم وبدأ يقرأ متأملًا بأخبار الأمم السالفة. بقي ذلك الكتاب رفيقه منذ صغره, لكن التوراة لم تحرمه من قراءة كتب أخرى.
اكتشف كتاب ألف ليلة وليلة الذي تمت ترجمته منذ أعوام قليلة فانبهر بحكاياته الساحرة، شعر بأنها لا تقل روعة عن الحكايات التي في التوراة. فكلاهما يرويان أحداثًا غريبة تتجاوز حدود المعقول, كلاهما يجمعان بين الأساطير الساحرة وأخبار الأمم السالفة، حكايات شخصيات جبارة تفعل الأعاجيب.. يشدانه من الحكاية الأولى حتى الأخيرة دون أن يعثر على اسم المؤلف في الصفحات الأولى فيبقى يتخيل الكتاب كمعجزة تحبس الأنفاس.

2

حاول عمي عدة مرات اقناع والدي بأن يستبدل المنزل مع عائلة من حي آخر اضطرت هي الأخرى للنزوح ومغادرة منزلها بسبب التوتر الطائفي. فنكون حينها قد حافظنا على منزلنا وأسكنا عائلة تعاني من نفس المصيبة لكن من مذهب ثان.
على حين غفلة تحولنا أنا وأبي إلى تابعين لمذهب دون أن نعي التفاصيل، دون أن يكون لنا حق أختيار ما الصق بنا. بدأت أتخيل المذهب كتهمة ألصقت بي دون أن أرتكب ما يثير شبهات بشأنه. ألححت على والدي لكن جوابه لم يتغير قط:
ـ لن أسكن في بيت تركه أهله بالغصب، حتى لو اتفقت معهم فهذا لا يبرر شيئًا، هل كان لديهم الخيار ليسكنونني فيه، بكل الأحوال سأعتبر نفسي مغتصبًا للمنزل.

إذن لا مفر، المنزل يباع لا محالة. ما يزعجني هو أنني سأبيت بعيدًا عن وسن، ربما لن أعد قادرًا على رؤيتها. فلو غادرت الحي بهذا الشكل سيكون من المخجل العودة إليه كزائر فيما بعد.
لن يكون أمر السكن معقدًا بالنسبة لي لأنني سأباشر عملي بعد يومين.
هذه الظروف سلبت مني فرحة الوظيفة التي انتظرتها منذ أربع سنوات. مشوار الحصول على الوظيفة كان مليئًا بالعقبات والتعقيدات خصوصًا حين الدخول في دوامة البيروقراطية المبعثرة والتواقيع التي تتم على أيدي موظفين أجهلهم ويجهلوني إلا أن مصيري ومستقبلي بين أيديهم!

قضيت أعوامًا بطرق أبواب المتنفذين في الأحزاب ودفعت ثمانمئة دولارًا لصاحب التوقيع الحاسم كي أفلح في الحصول على العنوان الوظيفي.
لم أعرف اسمه إلا حينما قرأته في ذيل التوقيع السحري. جرة القلم التي تبنى عليها حياتي لعشرات الأعوام من بعد!
لم تكن الوظيفة هي مطمحي الأساسي، فقد سعيت قبل ذلك للحصول على بعثة لدراسة علم الآثار في بريطانيا بعدما حصلت على تقدير جيد جيدًا من جامعة بغداد، لكن البعثة تم منحها لثلاثة أشخاص ينتمون لأحزاب متنفذة.

* * *

أنهى مدير هيئة الآثار مكالمته بعجالة حين لاحظ وقوفي بباب مكتبه. لم يمنحني ولا حتى ابتسامة ترحيب خفيفة. ربما هو ينوي تأجيل ذلك لحفلة تعارف قد يقيمها على شرفي!
كان يتكلم بهاتفه الجوال مع أحد معارفه بشأن شحنة أسمنت تأخرت عن موعدها، وهو يؤكد على التعجيل بذلك لأكمال بناء بيته الجديد.
سرت جنبًا إلى جنب مع الأستاذ صهيب دون أن نتبادل ولا حتى كلمة واحدة. حاولت أن أبحث عن شيء أكسر به ذلك الصمت لكن هيئة اللا مبالاة التي منحني إياها قتلت رغبتي بالكلام. شعرت بأن المسافة التي تفصلني عن المكتب تتسع بدلًا من أن تتقلص برغم تقدم خطواتنا!
انتشرت بقع الرطوبة على جدران البناية وسقفها، تساقطت الرمال من الجانبين كاشفة عن طابوق أصفر متآكل.
ـ هذا هو مكتبك يا...
ـ سالم.
ـ هذا هو المكتب يا أستاذ سالم، سيشرح لك زميلاك رياض ومحمد تفاصيل العمل.

شعرت بفرحة كبيرة عندما اكتشفت بأن رياض زميلي في الجامعة موجود هنا. عملي معه في نفس المكتب سيقلل من الاحراج الذي سأتعرض له خلال المرحلة التأهيلية لأداء مهامي الوظيفية.

حينما أنهينا سوية مرحلة البكالوريوس لم يفكر بالتوجه نحو الماجستير وانما فضل أن يختصر الطريق ويتجه مباشرة إلى العمل. حاول اقناعي بأن أفعل مثله لكنني أصررت حينها على الاستمرار بالمشوار العلمي مؤطرًا حياتي بالاحلام التي اكتشفت مؤخرًا بأنها لم تكن غير أحلام طويلة الأمد.

* * *

اشترى لايارد جريدة من أحد الأطفال في الشارع وصعد إلى مكتب المحاماة في الطابق الثاني ليجد عمه بنيامين يقرأ الجريدة عينها.. رمى بنيامين بالجريدة جانبًا وبدأ بقراءة قضية جديدة لرجل أتهم بتورطه بقتل غانية في شقتها في حي وايت تشابل الفقير.. كان المتهم يؤكد وجوده في مسرح الليسيوم.
نظر لايارد إلى بعض الاوراق في الملف ثم قال لعمه بثقة:
ـ لا أعتقد أن هذا الرجل متورط فعلًا بهذه الجريمة.
ـ كيف ذلك؟
ـ مسرح الليسيوم يقع في وسط لندن أما حي وايت تشابل فهو يقع في شرق العاصمة. لا يمكن أن ينتقل بهذه السرعة لارتكاب الجريمة ويعود إلى العرض قبل انتهائه.. هذا غير ممكن.
ـ أنا أيضا سأعتمد على هذه الفرضية كدليل تبرئة لكن يجب أن أجري تحرياتي لأتأكد إن لم يكن له شريك في هذه الجريمة, ارتكبها بينما كان المتهم يتابع المسرحية.
عاد لايارد إلى منزله وفكره مشتت بين تلك الجريمة والرسالة التي ينتظرها. فتح صندوق البريد فوجده خاليًا. ضربه براحة يده فاهتز الصندوق المعدني وسقطت منه القليل من قطرات المطر التي لم تجف بعد.
ما إن دخل المنزل حتى نادته أمه التي كانت تشرب الشاي مع صديقتها:
ـ هنري.. هنري تعال وخذ هذه الرسالة.. هنالك رسالة لك وصلت اليوم.

دخل هنري لايارد إلى غرفة الاستقبال راكضًا وانتشل الظرف من الطاولة وخرج دون أن ينظر إلى صديقة والدته أو أن يسلم عليها.

((السيد هنري أوستن لايارد، تسلمنا طلبكم بشأن العمل في مكتب الشؤون القانونية لمزارع الشاي في جزيرة سيلان. وقد تمت الموافقة على طلبكم. بامكانكم الالتحاق بالعمل ما إن تصل إلينا في مقر ملحقية الوزارة في الجزيرة.
التوقيع
سير ستانفورد ويلسون))

قفز في غرفته من شدة الفرح وفتح الشباك ليستنشق الهواء دون أن يخشى البرد. أخيرًا سيتمكن من السفر خارج بريطانيا نحو عمل جديد... نحو مغامرة يغير بها حياته الرتيبة.
تمدد على سريره فطافت مخيلته لتعيد إليه الصور الساحرة التي رسمها عن الشرق عندما قرأ التوراة وكتاب ألف ليلة وليلة ...
منذ قراءته لذلك الكتاب وهو يبحث عن مغامرة مثيرة وقد تيقن من خلال حكايات المارد والجان بأن الإثارة ستأتي من هناك، من الشرق. فالكتابان تدور أحداثهما في الشرق. كل المعجزات التي حبس أنفاسه حينما رويت له لأول مرة حدثت هناك...
وها قد حانت الفرصة ليبدأ حياة جديدة، نحو الشرق.

3

الأصوات الغاضبة تحاصرنا من كل مكان، أحاطت مجموعة من الرجال بالمنزل وهم لا يكفون عن الصياح:
ـ لا مكان للنواصب بيننا.
تناثر زجاج الشباك على أرضية الغرفة، اخترق حجر شباك الغرفة ليسقط قرب سريري المعدني.
اقتربت من الشباك لأكلم تلك المجموعة الغاضبة لكن الحجر الذي اخترق شباك غرفتي بسرعة السهم النافذ جعلني أتراجع. فانزويت في الغرفة متحاشيا الاقتراب من الشباك.
لم يعد هناك من سبيل للشرح أو للتبرير. شعرت بالضيق من الخوف الذي انتابني.
كم هو مخجل هذا الاحساس بالعجز أمام الآخرين.
نزلت السلم راكضًا لأجد والدي في صحن الدار وهو بكامل هدوئه وسكينته. يدفع الزجاج المتناثر أرضًا بالمكنسة ليشق طريقًا نحو غرفته دون أن يجرح قدميه. حتى لم يفكر بخفض صوت جهاز التسجيل الذي كان يردد أغنية لناظم الغزالي. بل رفع الصوت كي لا يسمع أحدًا منهم!
نظرت إليه نظرة لوم لكنه لم يعر نظرتي أهمية.
حتى اللوم لم يعد له نفع في هذه اللحظة بعدما باتت عبارة "لا مكان للنواصب بيننا" ترن في أرجاء المنزل فتختلط مع أغنية "سمراء من قوم عيسى من أباح لها قتل أمرئ مسلم قاسى بها ولها".

هم ينوون إخراجنا من المنزل ليعاقبوا والدي، ما الذي سيحل بنا لو نالتنا ألسنة اللهب المنبعثة من صدورهم؟
عبارة النواصب تبرر في حينا الشعبي كل ما يأتي بعدها من قصاص. هم يقصدون بالنواصب أولئك الذين يناصبون العداء لأهل بيت النبي. لكن والدي لم يناصبهم العداء.. ربما تسرع قليلا، أو أن المفاجأة كانت أقوى منه وحدث الذي حدث دون التفكير بالعواقب.
لم يطلعني على شيء وإنما وسن هي التي اتصلت بي لتخبرني بأن ما فعله والدي في ظهر هذا اليوم اللعين بات حديث الساعة في حينا.
يتناقل سكان الحي الأخبار بسرعة الضوء.
الصراخ مستمر، المكنسة تدفع قطع الزجاج نحو الزاوية والهاتف يرن وناظم الغزالي يغني بشجن والمروحة تعزف لحنًا جنائزيًا. اختلطت كل تلك الأصوات في رأسي، جاء صوت وسن متوترًا ليزيد من ارتباكي:
ـ كان عليك أن تقنعه بألا يرتكب تلك الفعلة الشنيعة.

لم أكن أعتبر ذلك شنيعًا لكني لا أفكر بفعل الشيء ذاته.

ـ كيف أقنعه وأنا لم أكن أعلم بتاتًا بما ينوي فعله؟!
ـ لقد حدث ما حدث ولن يجد والدك سبيلًا لتصحيح فعلته.
ـ أعلم ذلك يا وسن، ربما أنت محقة وما من سبيل لتصحيح الموقف. أظنه فعل ذلك ردًا على التهديد الذي وصلنا قبل ثلاثة أيام لترك المنزل. وها هم يحيطون بالبيت ليبروا بالوعيد.
ـ أخي هادي غاضب جدًا، لا أتصوره سيضع يده بيد والدك في يوم ما، هل تفهم ما أعني؟
ـ فهمت، لكن في هذه الساعة لا يشغلني غير الإفلات من أولئك الذين يحاصروننا.

أنهيت المكالمة مع وسن لأن الصراخ في الخارج أربكني قليلًا ولم أرغب بأن تلاحظ علامات الخوف على صوتي.

لمحت وجهي بنظرة خاطفة في المرآة، كأن شلالًا من اللون الأصفر صب علي. لم أكن راغبا بالكلام مع والدي. لا أريد الخوض في هذا الأمر معه فالنقاش لن ينفع، خصوصًا في هذه الساعة.
نظر إليَ دون أن يقول كلمة، أطال النظر كأنه يبحث في عيني عن رأيي بما فعل وهل أؤيده أم لا.
لم أعد أراه بطلًا كما كنت أنظر إليه في صغري. كنت أتأمله ببدلته العسكرية راجعًا من ساحة المعركة.. أخلع عنه حذائه العسكري الثقيل وأتمعن في التراب العالق به قبل أن أنظفه. أطيل النظر بذلك التراب...
أبحث في التراب عن دوي المدافع وزلزلة المعارك التي يخوضها أبي ليلًا ونهارًا. ذلك التراب الذي يتطاير بعصف القنابل ليحط على حذائه بهدوء خشية أن يثير غضبه.
أتابع أفلام سوبرمان خلال أيام العيد وأتسائل إن كان هذا الشاب الناعم حليق الشارب أقوى من أبي؟! لم تكن هيئته توحي لي بأنه أقوى, لكنه... يطير!
أبي لا يطير. فأصل إلى نتيجة بأن والدي أقوى منه لكنه غير قادر على الطيران.
أسأله ببراءة:
ـ هل قتلت العدو يا بابا؟ هل أرعبت الإيرانيين؟
يبتسم دون أن يقول كلمة فأعتبر أنه فعل ذلك. أذهب راكضًا إلى كشك السجائر لأشتري له علبة سكائر سومر. أجلس غير بعيد عنه بانتظار أن أسمع اسمي على لسانه فأركض لتنفيذ مهمة جديد.

هاتفي المحمول يرن من جديد، لم أرغب بالرد، ليس أمام وسن غير اللوم وأنا غير مستعد لسماع ذلك. خصوصًا عندما يكون اللوم على فعل لم ارتكبه. رن الهاتف من جديد رنة قصيرة.
إنها رسالة.
رفعت هاتفي لقراءة الرسالة والصياح لا يزال يحيطني من كل جانب:
ـ خرج هادي من المنزل وبيده رشاشة. ينوي أن يكسر الباب بالرصاص.

التفت يمينًا ويسارًا.. لا أدري عما كنت أبحث...

والدي.. لا شيء يهمني غيره في هذا المنزل. سحبته من يده وركضت نحو الطابق العلوي.
ـ ماذا بك؟! لماذا تركض؟
ـ سيكسرون الباب بالرصاص. يجب أن نخرج بسرعة.
ـ ومن أين سنخرج؟!
ـ من السطح، سنعبر من السطح.

البيوت المتلاصقة تسمح بولادة قصص الحب، هكذا كنت أنظر لشارعنا، وهكذا ولدت قصة حبي مع وسن. لم أتوقع أن تمنحني البيوت المتلاصقة فرصة حياة جديدة.
عبرنا نحو سطح بيت صغير خلف منزلنا، ساعدت والدي على عبور الجدار الذي يفصل بين السطحين.. فأبي لا يطير، ولم يعد بطلًا, فنحن نلوذ بالفرار.
طرقت باب السطح الحديدي بكل ما أوتيت من قوة، لم أتوقف عن الطرق حتى فتحت الباب لي. لم يستوعب جارنا أن يأتيه زوار من السطح.
ربما هو لم يسمع بتاتًا صوت الطرق على هذا الباب من قبل، من طرق باب سطحهم قبلنا؟
نزلنا بسرعة نحو صحن داره. ركض أطفاله نحونا ليتطلعوا للزائر القادم من السطح. لا يأتي من السطح غير بابا نويل لكنه لم يكن معنا. أيدينا خالية من الهدايا، إذن لسنا من طرفه.
ـ ماذا هنالك يا أبا سالم؟!!
أجبت بسرعة بدلًا عن والدي:
ـ سأشرح لك فيما بعد. ليس هنالك وقت للكلام. هل لديك سيارة؟
ـ نعم، لماذا؟!
ـ أخرجنا من الحي بسرعة، أرجوك.

لم يكن لدي الكثير من الخيارات، أول شيء خطر ببالي هو أن نلجأ إلى منزل عمي. على الأقل هو يعرف تفاصيل القضية ولن نكون مجبرين حين الوصول على سرد الحكاية من جديد.

قبل أن نركب السيارة كان هادي قد بدأ بإطلاق العيارات النارية على بيتنا المهجور.

* * *

لم يرغب لايارد بركوب البحر للوصول إلى سيلان. فضل الطريق البري.. يعلم بأن هذا الطريق سيستهلك الكثير من طاقته وماله، لكن البحث عن مغامرة هو ضالته وليس مجرد الوصول إلى سيلان..
هنري أوستن لايارد ذو الثلاثة والعشرون ربيعًا لا يرغب بسلك طريق مختصر، يفضل المرور بكل البلدان التي تفصله عن تلك الجزيرة... فهو يخشى أن يكون وصوله إلى هناك هو بداية لحياة روتينية جديدة، الحياة البيروقراطية التي لا تستهويه.
سيقضي أعوامًا قبل أن يعود إلى منزله، سيسلك طرقًا كثيرة بحثًا عن حياة مثيرة.. يعلم أن جزيرة سيلان لا تقدم له غير الجلوس وراء مكتب ليدير شؤون الشحنات التجارية ومرتبات العمال وأسعار الشاي في السوق المحلي والعالمي..
هذه الحياة لا تستهويه... موظف في مكتب تابع لوزارة المستعمرات... منصب لا يغريه...
ما كان يغريه أكثر هو الطريق الذي سيسلكه كي يصل إلى هناك. يرغب بأن يطيل الطريق لأطول مدة ممكنة, لأنه عند وصوله إلى الجزيرة لن يعد هنالك من شيء جديد يمر به، ستتحول الأيام إلى سلسلة أحداث متشابهة فتتداخل فيما بينها لشدة الشبه حتى يمسي غير قادر على التمييز بين ما مر به منذ يوم واحد أو منذ عشرة أيام.
زار صديقه القس مارتن الذي استقبله بابتسامة باردة:
ـ يبدو أنك لست على ما يرام!
ناول القس صحيفة يومية للايارد:
ـ أنظر، في كل يوم تصدر هذه الصحف مواضيع تشيد بالثورة الصناعية وتستهزئ في نفس الوقت بالكنيسة ورجالها...
هذا المقال في الصفحة الأولى يقول بأن التوراة لا يضم بين دفتيه غير الأساطير والخرافات. وكما أسموها هنا الأساطير التوراتية!!

ـ لا بأس، تبقى الجريدة ملفًا لا يقرأ إلا لأربع وعشرين ساعة أما التوراة فهي هنا منذ آلاف السنين. ترحل الصحف نحو سلة المهملات والتوراة باقية هنا.
أشار لايارد إلى صدره ليطمئن صديقه القس قبل أن يودعه.
غادر لندن متوجها نحو جزيرة سيلان, لكن قلبه لا يتوق لتلك الجزيرة؛ لذا سلك طريقًا بريًا عله يعثر في طريقه على مارد هارب من قصص ألف ليلة وليلة ليحقق له أحلامه..
هو نفسه لا يدري ما هي أحلامه فكيف سيحقق له ذلك المارد طلبًا حتى صاحبه لا يعرفه؟! لو خرج المارد وسأله عن أمنياته الثلاث لكان جوابه في كل مرة:
ـ لا أدري.

المحطة الأخيرة في القارة الأوروبية للايارد قبل العبور إلى الشرق الأوسط، بقعة أحلامه ومصدر إلهامه هو الجزء الأوروبي لعاصمة الأمبراطورية العثمانية "القسطنطينية"؛ يحن إليها لأنها كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي امتدت في يوم ما لتضم معظم الدول التي عبرها منذ انطلاقه من لندن.
لم يوافق صديق العائلة القنصل البريطاني سير سترانفورد كنك على نزول لايارد في فندق بمفرده في مدينة لم يزرها من قبل. بقي لايارد عدة أيام في ضيافة القنصل كنك.
تذوق الطعام المتبل بالبهار، والقهوة التركية المطحونة بالحجر والخبز المعد في تنور الطين والمدهون بزيت السمسم.. يتذوق طعم السمسم بالخبز فيقول في سره: افتح يا سمسم.
اكتشف للمرة الأولى طعم التمر الطري واللبن الرائب.
جذبته الأقمشة الملونة بدلًا من تلك الرمادية والسوداء التي تعود عليها خلال شتاء لندن الطويل.
يتأمل يوميًا المضيق المحمي بقلعة روملي التي بناها السلطان محمد الفاتح ليتحدى بها السفن الأوروبية ويحكم سيطرته على القسطنطينية.

يشرب لايارد الشاي الأسود حين الغروب وهو يراقب من بعيد قرص الشمس المحمرة خجلًا, تتوارى خلف الجامع الأزرق تاركة ألوانًا راقصة على البسفور قبل أن تفسح المجال للقمر والنجوم.
يدخن التبغ الذي ينبت في جبال كردستان, فتطوف خيالاته مع الدخان الذي يلف رأسه المتخم بالأحلام.
أكل السمك المقلي بالزيت والمتبل بالفلفل الأسود والسماق.
تجول في الأسواق وهو يتأمل السجاد المنسوج بخيوط الحرير والذي تزين بنقوش للطواويس الملونة ونباتات تغطت أغصانها بأزهار تبرز من السجادة كحبات العنب.
أمتع نظره باللوحات الفنية التي تناولت تفاصيل الحياة اليومية في تلك البيوت شاهقة الجدران, دون أن يفلح في اختراق أحدها ليرى ما يحدث خلف الأسوار المثيرة للفضول.
يبطىء خطواته حينما يمر بمحاذاة إحدى الأبواب وينصت عله يسمع شيئًا مما يدور خلفها.. كان يحلم بأن يمر بمثل ما تعرض له بطل إحدى الحكايات في كتاب ألف ليلة وليلة، بأن تصادفه امرأة جميلة وتطلب منه أن يتبعها حتى منزلها، ويبقى هناك متنعمًا بجمالها وبفتنة جواريها حتى تشبع رغباته ويرتوي من كل أنواع الملذات التي حرم منها دهرًا؛ ويحيا كخليفة بغداد في عصرها الذهبي.
اشترى مخطوطات لكتب قديمة, لم يميز إن كانت باللغة العربية أم العثمانية. لم يكن يفهم العربية حينذاك لكن رسوم الحروف والكلمات جذبت انتباهه, فقد تعودت عيناه على أشكال الحروف اللاتينية ذات الزوايا الحادة. تداعب أصابعه الرسومات الملونة على تلك المخطوطات ويستنشق عبق الأوراق السمراء القديمة وما تبقى من رائحة الحبر الملون.
يسير في الأزقة الضيقة بحثًا عن شيء يجذب انتباهه، وكل ما يحيط به يجذب انتباهه.
صوت المؤذن وهو يعلن وقت الصلاة يؤثر به كجرعة مخدرة تتركه مبتسمًا، ينظر إلى السماء كأنه يبحث عن الصوت في الخيمة الزرقاء التي تكسو العالم كثوب فضفاض يغطي عروسًا خجلى في فراش ليلتها الأولى.
تتقاطع أصوات الجوامع وهي ترفع الآذان في كل أنحاء القسطنطينية فيتخيل بأن تلك الأصوات تأتي من السماء.

4

شعرت بالخجل بسبب الخوف الذي بدا على وجهي حين هروبنا من المنزل, بينما لم تكن ملامح والدي تعكس أي تأثر يذكر.
ألح عليَ عمي بالبقاء معهم, أعلم بأنه لا يسعه أن يمنحنا إلا غرفة واحدة لنبيت فيها أنا وأبي, لذا فكرت بمغادرة المكان في أقرب فرصة لأنني لم أتعود على النوم قرب والدي...

الحاجز الصلب الذي بناه أبي من حوله منذ صغري منعني من الإرتماء بأحضانه حينما كنت طفلًا، فكيف سأنام بقربه اليوم وقد تعودت ألا ألجأ إليه؟!
أخرجت صورة أمي من محفظتي وتطلعت إليها خلسة كي لا يلاحظ والدي ذلك، أتوسل الصورة أن تساعدني على النوم.
فارقتنا منذ ما يقارب عشرة أعوام لكن ملامح هذه الصورة لم تتغير، بقيت تعكس ملامح شبابها الأول. لم تتأثر بأعوام المرض الأليمة.
ألح بالتوسل إلى الصورة كي تساعدني على النوم لكن ما من فائدة.
منذ أسبوعين وأنا مصاب بالأرق. كل شيء تغير من حولي من دون مقدمات. اشتقت لوسادتي ولسريري.
يا ترى ما هي مساحة غرفتي عندما لا أكون فيها؟

منذ أسبوعين وأنا لا أنام إلا بمساعدة الحبوب المنومة، وهكذا أبقى أشعر بالدوار طيلة النهار.
أما الكوابيس المتكررة التي تقض مضجعي في كل ليلة فقد تسببت بقلق جماعي، أبي، عمي وزوجته. لحسن الحظ تزوجت ابنة عمي قبل أشهر وتركت هذا المنزل وإلا لكنت قد مت من الخجل وأنا أصرخ من الخوف في كل ليلة فأوقظ من تثاقلت جفونه.
بدأت أتضايق حتى من الشعور بالخجل، لذا لم أجد أمامي حلًا غير إيجار غرفة قريبة من محل عملي.

عدت إلى عملي بعد انقطاع لعدة أيام. لم يبد المدير غضبه لغيابي بعدما علم بأنني تغيبت بسبب تعرضي للتهجير القسري. كأن ذلك بات ظاهرة مألوفة.
حاول رياض أن يقدم لي مساعدة مالية، لكنني رفضت ذلك العرض بتوتر مكشوف:
ـ طيب إن كنت مصرًا على الرفض اسمح لي أن أقترح عليك شيئًا آخر.
ـ تفضل.
ـ ما رأيك لو أعطيت دروسًا بمادة التاريخ لمجموعة من الطلاب؟ سيضمن لك ذلك دخلًا اضافيًا تسد به أجور الفندق.
ـ إنها فكرة رائعة. أنا موافق.. موافق وبكل سرور.
ـ حسنًا، أترك أمر تكوين مجموعة الطلاب علي.

لم أكن أعلم أن التدريس ممتع لهذا الحد. المجموعة التي بدأت بثلاثة طلاب تحولت خلال شهر ونصف إلى أكثر من عشرة.
نقضي ساعتين أو أكثر في حديقة أحد الطلاب وبعدها أغادرهم إلى الفندق.
اتصل بوالدي للإطمئنان عليه قبل أن أنام، وإن كنت متعبًا اكتفي برسالة قصيرة من هاتفي الجوال. وغالبًا ما أكون متعبًا فأمست الرسالة النصية عادة والكلمات تكرارًا.

* * *

لا يتأخر القنصل البريطاني في اسطنبول السير سترانفورد كنك في الوصول إلى مكتبه لأنه يسكن في نفس بناية القنصلية. كانت البناية في السابق تعود لتاجر ثري, لم يقاوم ذلك التاجر المبلغ الكبير الذي دفعته بريطانيا مقابل منزله.. باعه دون تردد ليشتري آخر في الجانب الآسيوي من اسطنبول.

قرر سترانفورد كنك أن يقسم البناية إلى جناحين منفصلين, خصص أحد الجوانب لمكاتب الموظفين والإداريين أما الجانب الآخر ذو الحديقة الواسعة المحفوفة بأشجار البلوط والمطلة على مضيق البسفور فقد خصصها لسكناه.
يقضي أمسياته في تلك الحديقة برفقة أصدقائه المقربين وهم يتبادلون الآراء بشأن الثورة الصناعية وآخر المبتكرات العلمية. كان كنك من أشد المدافعين عن تلك الموجة العلمية ومن المعجبين بالمحرك البخاري والآلات التي زودت به لتزيد من سرعتها لعدة أضعاف. منذ اللحظة التي شاهد بها ذلك الإختراع تنبأ أمام رفاقه بأن الحياة ستتغير وبطفرات واسعة, عالم اليوم لن يعد كما كان بالأمس.

يعلم سكرتيره بأن موعد إدخال الأوراق الرسمية والرسائل البريدية هو عند الساعة العاشرة صباحًا. يكون حينها كنك قد إنتهى من ارتشاف الشاي ومن تدخين غليونه المعبأ بتبغ جبال كردستان. لكن هذه المرة رأى السكرتير بأن الأمر قد لا يحتمل الانتظار أو ربما سيؤنبه سيده إن علم بأنه تأخر عن إدخال الرسالة المستعجلة التي وصلت للتو من لندن.
ناوله الورقة وانتظر الإذن بالخروج.. قرأ القنصل كلمة مستعجل في أعلى الورقة فنسي أن يأمر مساعده بالإنصراف.

مستعجل

القنصل الفرنسي في الموصل مسيو بول أميل بوتا عثر على أربع قطع أثرية ضخمة في مدينة نينوى التاريخية. التقارير تشير إلى انتماء تلك اللقيات إلى الحضارة الآشورية المفقودة.
لا تترك فرصة استخراج كل كنوز هذه الحضارة لصالح فرنسا.

ملحقية المتحف البريطاني التابعة لوزارة الخارجية.

5

لم أعتد على غرفتي الجديدة في الفندق إلا بعدما وافقت وسن على زيارتها. في كل مرة أختلي بها أشعر وكأنها المرة الأولى!
تدب الحرارة في جسدي كلهب مستعر، أكفكف هذا اللهب بابتسامة أجتهد بتنفيذها لأخفي وراءها خجلي المفضوح. لا أدري كيف أفلح غالبًا بجمع الخجل والاندفاع في آن واحد!
جربت هذا الأحساس المتناقض مع وسن وأدركت بأنني قادر على جمع المتناقضات. قد أكون متناقضًا دون أن أعي ذلك.
كعادتها لا تتأخر في تلبية مواعيدي, لكنني ككل مرة ألومها عند وصولها بأنها تأخرت علي, تضحك وتكتفي برفع حاجبيها. تلك الحركة العفوية تثيرني وتترك لهبًا يستعر بداخلي فأنقض عليها ملثمًا فمها بقبلة مهما طالت أحسبها قصيرة.
بقيت أنتظرها خلف باب غرفتي انصت للخطوات في آخر الممر. هي تعرف مسبقًا رقم غرفتي لذا لن تكن بحاجة للتوقف عند موظف الاستقبال.
سمعت خطوات مسرعة ترتقي السلم وتقترب بلا تردد من غرفتي.
وضعت يدي على مقبض الباب متهيئًا لفتحها ما إن تطرقها.

أصبحت الخطوات قريبة جدًا من بابي. فتحت الباب ناشرًا يدي بلهفة لاستقبل وسن بأحضاني.
تراجع موظف الاستقبلا خطوتين عندما رآني فجأة أمامه دون أن يطرق الباب:
ـ آه, هذا أنت يا أبو مهدي!
ـ نعم إنه أنا. لقد أفزعتني يا سالم.
حاولت ألا أطيل معه الكلام كي لا يرى وسن حين وصولها إلي, يحاول أن يسهب في الكلام وأنا أتوجه بوضوح نحو الاختصار.
ـ طيب إن كنت متعبًا ولا يمكنك مشاركتنا في موكب خدام الحسين بإمكانك مثلًا أن تساهم في العمل مع الطباخين. طبعًا إن كنت ترغب بذلك.
ـ أنا أرغب بذلك لكنني مرتبط بوظيفة في هيئة الآثار ولا أستطيع أن أتغيب لهذا السبب.
ـ أي وظيفة يا رجل! لقد أعلنوا بالأمس أن هذا الأسبوع وكذلك الأسبوع الذي يليه سيكونان عطلة رسمية لتسهيل إحياء مراسيم عاشوراء.
ـ حقًا؟ عطلة رسمية؟! طيب دعني أفكر، سأرد عليك في الغد.

دفعته دفعًا لأفسح المجال لوصول وسن.. هذه المرة ولحسن الحظ تأخرت قليلًا. ركضت عندما سمعتها تطرق الباب بأطراف أصابعها. عانقتها بقوة قبل أن أرد التحية:
ـ ألن تريني عشك الجديد؟
ـ أنتِ هي عشي الجميل.

استنشقت بعمق رائحة جسدها التي اختلطت بين عطر الصباح وعرق الظهيرة. عبق جسدها الساخن تحت حر الشمس أشعل لهبًا في رأسي وبين فخذي.
فتحت بلهفة أزرار قميصها الأبيض بحثًا عن ما تخبئه لي من أنوثة حرمت منها لأعوام طويلة, انفرج أمامي ذلك الباب لألج منه نحو لذة كلما شربت منها غرفة ازداد ظمئي, فأشرب من جديد دون أن أرتوي.
أنقضضت على تلك الحمرة الساخنة التي تجتاح أعلى صدرها، لعقتها بلساني كظمئآن يعثر على واحة بعد طول انتظار. أغمضت عيني وأنا

مأخوذ بنوبة التقبيل المتواصل فغاب عني خجلي كما لو أنه سقط مع تلك القطرات الرطبة التي تركها فمي على صدرها الدافىء.
حتى تجربتي الأولى معها بدأتها هكذا، لكنها كانت مجرد خيالات مشتركة، لأن التجربة الأولى كانت عبر الهاتف. نعم مارست معها الجنس لمرات عديدة عبر الهاتف حتى بتنا نعرف ما نحب وما هي الأوضاع التي نفضلها قبل أن نلامس بعضنا البعض.
وحينما قررنا أن نحول الكلام إلى أفعال كانت البداية معروفة سلفًا؛ نفسها في كل مرة... ما إن أرى أعلى صدرها حتى أنقض عليه دون أن أعي كيف ومتى تساقطت عنا ثيابنا. أحببت ذلك بشدة لأنه يشعرني في كل مرة أضمها بين يدي بلهفة التجربة الأولى. وكأن تلك اللهفة لا ترغب بمفارقة جسدينا.
رغبتنا العارمة تحول الحب جنسًا. ولهفة أحدنا للآخر تحول الجنس حبًا. وعندما يرتوي أحدنا من رحيق الآخر نستلقي جنبًا إلى جنب. نلتقط أنفاسنا أو نتبادل الأنفاس دون أن ندري إن كنا نمارس الجنس أو الحب أو كلاهما معا.

لم أرغب في تلك اللحظة بالذات أن تفتح معي وسن موضوع والدي من جديد، لكنها فعلت. دون وعي منها قضت على أجمل لحظة كنت أعيشها وهي سيجارة ما بعد الحب والجنس:
ـ هل سيقدم والدك اعتذارًا كي يسمحوا له بالعودة؟
ـ لا أظن. ولمن يقدم الإعتذار؟ لولي الأمر كما يسمونه؟
ـ كنت أرغب أن يفعل ذلك فقط لتتمكن من طلب يدي بلا عقبات.
ـ ولماذا لا نحسم الأمر بيننا. أنا وأنت فقط دون الرجوع لأبي أو لأخيكِ؟
ـ لا يا سالم. لا تقل ذلك مجددًا، تعلم بأنه لم يبق لي غيره بعد وفاة والدي. لا أرغب باغضاب أخي هادي.. لا أريد أن أخسره.
ـ طيب لن تخسريه لكن لماذا أشعر بأنكِ تحبيه أكثر مني.
وضعت سبابتها على شفاهي:
ـ لا أظنك ستغار من أخي.

لم أحاول إقناعها بأن ما أريده ليس بالبشاعة التي تخيلتها، أعلم بأن ذكرى والدها الذي مات في أحد الانفجارات قبل عامين تركت بداخلها فراغًا كبيرًا وألمًا لا يسكن. أتسائل دوما إن كنت سأفلح في أن أحل محل والدها.
حاولت أن أخوض في موضوع آخر بدلًا من مشكلة والدي كي لا يتحول اللقاء الذي انتظرته لمدة طويلة إلى مقابلة مملة. تمنيت أن يتملكني نفس الشعور الذي لديها وأن اقتنع بأن ما سأفعله يجعلني أخسر والدي لكن.. لم أعثر على هذا الإحساس بين ما يحمله قلبي من أحاسيس تجاهه.

* * *

شعر سير سترانفورد بالقلق بسبب تلك الرسالة غير المتوقعة. كان يعلم بأن الفريق الألماني يواصل تنقيباته في بابل منذ أعوام وأنه عثر مؤخرًا على بوابة عشتار الضخمة وقد غادرت موطنها نحو برلين.
حاول التواصل مع والي بغداد ليسمح له بإدخال فريق بريطاني إلى بابل، لكن الوالي العثماني رفض الطلب برسالة جافة مؤكدًا أن الصداقة العميقة التي تربط الباب العالي بألمانيا هي وراء التسهيلات التي يتمتع بها الألمان في ولايات العراق الثلاث، أما بريطانيا فغير مرحب بها.
شعر سير سترانفورد بالحنق تجاه الوالي العثماني لكنه لم يكن قادرًا على فعل شيء.
لم يفكر هذه المرة باللجوء إلى السبل الدبلوماسية لإدخال فريق تنقيب بريطاني, فهو يعلم بأن الطلب سيواجه بالرفض من جديد وستكون التسهيلات مرة أخرى من نصيب الألمان.
ما حيره هذه المرة هو القنصل الفرنسي:
"كيف تمكن أميل بوتا من إجراء تنقيبات في الموصل دون مضايقة الوالي العثماني؟! ربما سعت فرنسا إلى سبل دبلوماسية أكثر فاعلية منا وحصلت على ترخيص.. ربما دفعوا المال إلى الوالي كي يغض الطرف عنهم ويتركهم يعملون هناك بحرية ومن دون علم الباب العالي، هذا هو الاحتمال الوحيد الذي يمكن أن أتصوره.
الباب العالي يتعامل بجفاء معنا، ويفعل الشيء ذاته مع الفرنسيين؛ هو لا يثق بغير الألمان!

ربما مفتاح العملية هو المال...
المال وحده هو الذي سيفتح لنا أبواب الموصل، لكن من يمكنه أن يقوم بهذه المهمة؟
الذي سينفذ هذه العملية لا يجب أن يكون مبعوثًا دبلوماسيًا. هذه مهمة غير رسمية، إنها مهمة شبه سرية وعليَ أن أعثر على أحد أثق به ومن خارج نطاق القنصلية".

لم يكن سترانفورد كنك متحمسًا في الدفاع عن آراءه هذه الليلة, لم يذكر أو يمتدح أي ابتكار علمي, التلغراف الذي وصله بالأمس أرقه وشتت أفكاره. نظر إلى رفاقه دون أن يراهم, تجاذب معهم أطراف الحديث دون أن يقول شيئًا يذكر, أقر بآرائهم دون أن يسمع شيئًا مما قالوه. يتوجه نظره وسمعه وتركيزه هذه المرة إلى الماضي... إلى حضارة ألقي عليه مهمة الاستيلاء على بقاياها.
يعلم بأن هذه المهمة التي كلف بها هي مهمة سرية وغير رسمية, وبالتالي عليه أن يعثر على شخص جدير بالثقة ومن خارج نطاق القنصلية:

"ليس أمامي غير هنري لايارد, إنه الشخص الوحيد المناسب لهذه المهمة. لكن ماذا لو رفض المقترح وأصر على اكمال مشواره نحو جزيرة سيلان؟ هو ينتظر تلك الوظيفة منذ أعوام كما قال لي. سأقترح عليه الأمر وأمنحه بعض الوقت للتفكير".

حاول كنك ألا يفاتحه بالأمر إلا بعدما ينتهيا من شرب الشاي الإنجليزي مع قطع الكعك. يراقب لايارد صورة الانعكاس الراقص لشمس الصباح على مياه المضيق الزرقاء, رشفات الشاي الإنجليزي التي شربها لم تثر به الحنين إلى بلاده. عيناه تطوفان بين زوايا تلك الحديقة الغنية بأشجار البلوط والتين وأذنه تنصت لرفرفة أجنحة النوارس المتوجهة إلى مياه المضيق.
التقط لايارد ثمرة بلوط من الأرض وفركها بإصبعه ليزيل التراب عن قشرتها البنية الصلبة:
ـ الأرض هنا جميلة وشديدة الخصوبة.

ـ بالفعل يا لايارد, الأرض هنا قادرة على منحنا الكثير.
ـ هذه الخيرات تنبت هنا كأنها في بساتين الجنة.
ـ ليس دائمًا, ربما هناك خيرات لا تنبت وتبقى حبيسة الأرض بانتظار من يستخرجها.
ـ طبعًا, فكل زرع بحاجة إلى حراثة وعناية.
ـ أنا لا أتكلم عن المزروعات يا صديقي العزيز.
ـ ظننت أننا نتكلم عن نفس الشيء!
ـ نحن نتكلم عن نفس الشيء إلا أنني أفكر بأمر قد حيرني وأرغب بأن أستشيرك به.
ـ ما هو؟
ـ كما تعلم أنا أعمل هنا لصالح مملكتنا بريطانيا العظمى, وأينما نحل فنحن نخدم البلاد سواء في لندن أو هنا أو حتى في جزيرة سيلان مثلًا.
ـ بالفعل.
ـ لا أحب أن أطيل وأسهب كي لا نخرج عن موضوعنا الذي جئت بك من أجله. لقد وصلني مؤخرًا تلغراف مستعجلًا وعالي الأهمية. يبدو أن وزارة الخارجية قلقة بشأن مصير آثار مهمة تعود للحضارة الآشورية.
هنالك أخبار تؤكد أن القنصل الفرنسي في الموصل عثر على عدد من القطع الأثرية. ولهذا ترغب حكومتنا بأن ترسل موفدًا إلى هناك ليقوم بعمليات البحث والتنقيب عن آثار تلك الحضارة العريقة. وقد أوكل إلي مهمة اختيار الشخص المناسب لنرسله إلى الموصل.
فكرت بعدة أشخاص إلا أنني أرى أنك أفضل من يقوم بهذه المهمة... لم أرغب بمفاتحة شخص آخر قبل أن آخذ رأيك.
أعلم بأنك ترغب بالذهاب إلى جزيرة سيلان لكن فكر قليلًا قبل أن تتخذ القرار. عملك هناك في مزارع الشاي لن يمنحك الكثير... إن أفلحت بتنفيذ المهمة التي اقترحتها عليك فستفتح لك أبواب المجد.

لم يتردد لايارد بقبول مقترح صديقه القنصل سير سترانفورد كنك. تلك هي بالفعل المغامرة التي كان يبحث عنها. الحلم الذي راوده على وشك أن يتحقق.

سيعثر على خاتم سليمان المفقود، سيستحوذ على المارد الذي سيتحول إلى خادم مطيع ويلبي طلباته دون تردد.
لم يغمض له جفن في تلك الليلة. سيواصل مسيرته نحو الشرق لكن وجهته ستتغير. أهدافه ستتغير. مصيره أيضا سيتغير...
لن يعد بحاجة للذهاب إلى جزيرة سيلان؛ لن يجلس على مكتب منسي في تلك المستعمرة البعيدة ليدير شحنات الشاي. أمسى يرى تلك الجزيرة أبعد من القمر فقرر ألا يفكر بمواصلة طريقه نحوها.
أخرج من حقيبته الكتاب الرسمي بشأن وظيفته في مكتب شحنات الشاي. نظر إليه قليلا:
- "كم كنت ملهوفًا وأنا أنتظرك, والآن زهدت فيك ولم يعد لك أي قيمة لدي".

سيدخل إلى عالم الكنوز والآثار والمنحوتات العجيبة التي تخفي في مكامنها آلاف الأسرار. سيعثر على حضارة مفقودة ويفك طلاسمها ويستخرج أسرارها.
لن يشغله أمر الفتاة التي قتلت في حي وايت تشابل. لن يسأل عمه عن التفاصيل التي سيتمكن من خلالها اكتشاف القاتل الحقيقي. هذا الأمر أصبح تافهًا بالنسبة له لأن ما سيكتشفه سيكون أكثر عظمة من كل ما يدور في بريطانيا الفيكتورية. مشاغله ستكون أكبر من هذا بكثير.
أبواب التاريخ القديم والجديد تفتح أمامه.. الأبواب التي ستقاومه لن يتردد بتحطيمها بفأسه. سيدخل التاريخ... هذا ما أسره وأنساه كل ما هو دون ذلك.

توجه إلى البازار ليشتري ثيابًا تناسبه كرجل مستشرق. لم يتأخر في اختيار سروال بني عريض وقميص طويل حليبي اللون وعباءة بيضاء بحواش مذهبة. ابتعد في اختياره للثياب عن الألوان الغامقة والمعتمة كالتي تعود ارتدائها في لندن. كان متفائلًا في اختياراته, فرحًا بمقتنياته.
عاد بخطى سريعة نحو القنصلية ليجد السير سترانفورد أعد له حزمة من الأغراض التي قد يحتاجها لتنفيذ المهمة والكثير من المال. ولم ينس السير سترانفورد كنك أن يضع هدايا ثمينة لوالي الموصل.

لم يشغل بال لايارد غير النجاح في المغامرة المشوقة التي ينتظرها بفارغ الصبر، ولم يشغل سير سترانفورد غير كيفية التغلب على منافسه القنصل الفرنسي بول أميل بوتا في حلبة العراق المليئة بالكنوز الأثرية.

6

منذ أيام وأنا أشعر بخيبة الأمل بعد كل تلك الأحداث التي مررنا بها أنا ووالدي.
لم أتردد بقبول دعوة صديقي رياض لحضور حفل زفافه, اعتبرت هذه الحفلة كمتنفس لإخراجي مما أنا فيه.غالبًا ما أشعر بالخجل حين حضور الأعراس لأنني لا أجيد المشاركة في هذه المناسبات أو ربما لأنني لا أجيد الرقص, لكن هذه المرة شعرت بأن تلك الحفلة أتت في الوقت المناسب.
كان رياض متعجلًا قليلًا بانهاء تفاصيل العرس قبل أن يبدأ شهر محرم وتنتشر رايات الحزن على أسطح المنازل, وتغدو قصائد العزاء كترنيمة أبدية على كل لسان, وإيقاع اللطم على الصدور بذكرى استشهاد الحسين يرن بين جدران البيوت التي ستتشح بلباس الحزن وستحتضن مجالس العزاء لأربعين يومًا.
ويمسي السواد هو الزي الرسمي لمحبي أهل البيت أو من يدعي ذلك.

سمعت صدى الموسيقى والغناء تنتشر في أرجاء الحي حتى قبل أن أصل إلى الشارع الذي يقع فيه منزل رياض.
عانقني رياض وهو يرحب بوصولي, جلست قربه بعدما سلمت على والده وإخوته الأربعة.

شعرت بالوحدة رغم جلوسي بين أكثر من مائة شخص. ربما منظر رياض وهو محاط بإخوته هو الذي ذكرني بأن لا إخوة لي.
تقدم شاب نحوي وهو يحمل بيديه صينية فضية اللون مملوءة بأقداح العصير والكوكا كولا. المشروبات الغازية تسبب لي حرقة في المعدة لذا لم يكن أمامي خيار غير عصير البرتقال.
بدأت أصفق مع إيقاع الأغنية والإبتسامة لا تغادر وجهي. تتسلل الإبتسامة بعيدًا عني فاسحبها إلى وجهي عنوة لأنني كنت مصرًا أن أفرح وأشارك صديقي فرحته.
وصلت مجموعة من الشبان الملتحين وعانقوا رياض بالتتابع ثم جلسوا بعيدين عنا ما عدا واحد منهم بقي جالسًا بقربنا. فهمت من إخوة رياض بأن الشاب الملتحي هو ابن عمهم وهو قيادي في حزب الرايات الإسلامية.
الابتسامة خفيفة تغطي وجهه الأسمر وأصابعه تلعب بحبات المسبحة التي تتدلى حتى ركبته بأحجارها السوداء الصغيرة. عيناه تطوفان بين الحضور كأنه يبحث عن أحد ما أو كأنه يرغب بتذكر كل الوجوه المحيطة به.
انحنى مقربًا وجهه من والد رياض ليقول له شيئًا قبل أن يغادر.
الشبان يغنون ويرقصون أمامنا بلا توقف, بدأت أدبك بقدمي دون أن أغادر الكرسي.
تغيرت ملامح والد رياض، بدى كأنه غاضب أو متوتر وهو ينظر إلى ابن أخيه مغادرًا العرس مع رفاقه.
ابتسم رياض وقال لوالده بصوت مرتفع كي لا يضيع في صخب الموسيقى والغناء:
ـ دعك منه يا أبي, سيأتي موسم الحزن وسنمنحه حقه, فلماذا نستعجله. دعنا نفرح اليوم على الأقل.
تهلل وجه والد العريس وابتسم من جديد.
انحنى رياض مقربًا وجهه من أذني:
ـ جلب أخي عرقًا وبيرة, هل ترغب بأن تشرب معنا؟
ـ أرغب بذلك لكن...
ـ لا تقلق لن يعرف ذلك أحد... لقد عبأ المشاريب في علب الكوكا والسفن أب. لن يكتشف ذلك أحد غيرنا.

ـ وماذا لو شرب أحد أتباع حزب الرايات من هذه الكوكا؟
ـ قلت لك لا تقلق.. هم لا يشربون الكوكا ولا يشترونها أصلًا. يعتبرونها مشروبا ماسونيًا. البيرة في علب الكوكا والعرق في علب السفن أب, فماذا تريد أن تشرب؟
ـ سآخذ بيرة والقليل من العرق. لنشرب وننسى.
ـ لا يا عزيزي اشرب أنت لتنسى, أنا أريد أن أستمتع.

حاول أحد الراقصين أن ينتشل علبة كوكا من الصينية فقال له حامل الصينية:
ـ لا تشرب من هذا أنه مشروب دايت.
ـ وما هو الدايت هذا؟!
ـ إنه مشروب من دون سكر.. لن يعجبك طعمه.

ضحكنا ونحن نسمع حوارهما, فهو لم يكذب لأنه بالفعل من دون سكر وعلى الأغلب لن يعجبه طعمه.
أنا أيضًا لم أكن متعودًا على طعم العرق. لم أشربه إلا أربع مرات من قبل. شعرت هذه المرة بأن العرق أتى في الوقت المناسب.

الأخ الأصغر لرياض لم يتوقف عن إلقاء النكات على مسامعنا. نغرق في الضحك عند نهاية كل نكتة وقبل أن تزول ضحكتنا يلقي علينا نكتة جديدة لنبقى غارقين في الضحك.
بعض النكات لم أسمعها بسبب ارتفاع صوت المغني عبر مكبرات الصوت إلا أنني حالما أراه ينتهي من نكتته أغرق في الضحك من جديد.
كنت كمن يشرب الماء بعد ظمأ طويل. يشرب ويرتوي ويعود للشرب كي ينسى لحظات العطش السابقة.
ضحكت طويلًا ولم أتوقف عن الضحك.
شعرت بحرارة في وجهى وأذني. فتحت أزرار قميصي ونهضت من الكرسي بتثاقل. شعرت بدوار خفيف, أمسكت بمسند الكرسي لأحافظ على توازني.
ضحك رياض وهو يتابع حركاتي المترنحة:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟
ـ أريد أن أرقص.. أنا أحب هذه الأغنية.
ـ حسنًا, حاول ألا تقع أرضًا وتفضحنا.
ـ لا تقلق.. لكن.. أريد.. أن أبول أولًا.
تعالت ضحكات رياض وإخوته.. أنا أيضًا ضحكت بقوة, كدت سأتبول بمكاني من شدة الضحك. لحسن الحظ كانت هنالك مراحيض في زاوية الحديقة. العوائل ذات الإلتزام العشائري تبني غالبًا مراحيض إضافية في الحديقة. أما منزلنا فلم يكن به مراحيض في الحديقة ولم يكن لدينا حديقة أصلًا.
عدت مسرعًا من الحمام لأدبك مع عشرات الشبان الذين كانوا يغنون ويرقصون مع المغني وفرقته الموسيقية.

* * *

الطريق إلى الموصل محفوف بالمخاطر لكن الرغبة بتحقيق الحلم الكبير تغلبت على الخوف من المجهول. لم يكن أمام لايارد غير الطريق البري يسلكه.. رحلة صعبة في طرق جبلية وعرة قد تستمر لأسبوع أو أكثر بقليل.
في ليلته الأخيرة في اسطنبول حاول أن ينام باكرًا كي يبدأ رحلة الألف ميل بجسد قوي وذهن صاح, لكنه لم يغف إلا بعد أرق دام لعدة ساعات.
أخبره سير سترانفورد بأنه لن يتمكن من نقله إلى ساحة المسجد الأزرق بعربة تابعة للقنصلية البريطانية حفاظًا على سرية المهمة.
كان لايارد يرغب بشدة بركوب واحدة من تلك العربات السوداء الموشومة على جانبيها بشعار التاج الملكي, ليفتخر بأن تلك العربة جاءت خصيصًا له كما تتطلب البروتوكولات مع الشخصيات عالية الأهمية, لكن الحظ لم يحالفه هذه المرة. عزى نفسه بأنه قد يصبح في وضع يؤهله لهكذا مراسيم حين عودته بعد إنجازه لهذه المهمة السرية.
استأجر أحد موظفي القنصلية عربة صغيرة لإيصال لايارد إلى ساحة المسجد الأزرق حيث يصلي التجار صلاة الفجر قبل أن تنطلق القافلة التجارية.

سيرافق لايارد القافلة حتى يبلغ الموصل وحينها ينفصل عنها بينما تواصل رحلتها حتى تبلغ البصرة. من هناك يبيع التجار بضائعهم لتجار آخرين يركبون السفن نحو الهند وفي نفس الوقت يشترون بضائع قادمة من الهند والصين ويعودون إلى ديارهم.
آنسه حديث التجار خلال الطريق. فالحكايات التي قرأها كان أبطالها غالبًا من التجار. حتى السندباد الذي سحره بحكاياته ومغامراته العجيبة كان هو الآخر تاجرًا ينطلق من بغداد نحو البصرة عبر دجلة وبعدها يجوب البحار السبع دون خوف من ركوب الأمواج العاتية.
لم يتكلم لايارد كثيرًا خلال الطريق.. كان مستمعًا جيدًا.
دخلت القافلة إلى قرية صغيرة بين الجبال. شعر لايارد بالجوع عندما داعبت أنفه رائحة الخبز الساخن.. نزلوا عن بغالهم وتوجهوا نحو بئر يتوسط القرية ليشربوا الماء ويسقوا بغالهم. أخرجوا الطعام من رحلهم وبدأوا يتناولون بنهم شديد وهم يفترشون الأرض.
لم يكن لايارد متعودًا على ركوب البغال بين الممرات الجبلية والوديان. شعر بألم شديد في ردفيه. كاد أن يهوي أرضًا عدة مرات عن ظهر البغل خلال الرحلة لكنه تمسك بقوة بعنق دابته ليحافظ على توازنه.
لم يجازف بالجلوس أرضًا خشية أن يزداد ألمه. فضل تناول الطعام واقفًا.
تنفس الصعداء حينما سمع أحد التجار وهو يقترح أن يبيتوا ليلتهم في تلك القرية، كان لايارد أول من رحب بهذا المقترح وحاول أن يشجع من كان مترددا في البقاء.

7

لوهلة توقعت أن ما شاهدته على شاشة التلفاز كانت مشاهد لفيلم هوليودي.
لم أتوقع أن تكون تلك الجثث منزوعة الرؤوس والمعلقة على الجدران جثثًا حقيقية لرجال من سكان الموصل!
إذن ما وصلنا من أخبار هو حقيقة وأن الموصل سقطت فعلًا بيد جماعات مسلحة.
في البداية لم أصدق أن تكون الموصل قد سقطت بالفعل بيد جماعات إرهابية، لم يكن من السهل أن أسلم بهذا.
من هي تلك الجماعات التي يمكنها أن تجتاح مدينة بأسرها بظرف ساعات قليلة؟!
حاولت أن أقنع نفسي بأن تلك الجماعة الارهابية ستفر من الموصل ما إن يسلط الجيش نيرانه على رؤوسهم بعد أيام قليلة، إلا أن إعلانهم للخلافة الإسلامية واتخاذهم من الموصل عاصمة لتلك الدولة جعلني أدرك بأنهم قد يبقون هناك لمدة طويلة.

برغم المسافة البعيدة التي تفصلني عن مدينة الموصل إلا أنني نلت نصيبي من تلك الأحداث. كلمني المدير بنبرة من يثق بما سيسمع مني من إجابة:

ـ أرجو ألا يزعجك أن تتكفل بجزء من المهام التي كان يؤديها زميلك محمد لحين عودته من الموصل. كما تعرف فإن داعش أعلنت بأنها ستأخذ منزل كل شخص يغادر المدينة, أظنه سيضطر للبقاء هناك لحين عودة الأمور إلى نصابها... لا تقلق قد لا يطول الأمر.
ـ بالطبع.. لكن ما هي المهام التي...
ـ هو يتابع ملفات الآثار التي تخرج من الهيئة للمشاركة في المعارض الدورية في المتاحف العالمية.

بما أن غيابه لن يدوم أكثر من أسبوعين أو ثلاث كما كنت أتوقع فأنني وافقت بلا تردد.
شعرت بالقلق الشديد بشأن زميلي محمد، خشيت أن يقوم أولئك الرجال ذوو اللحى المجعدة بقتله كما فعلوا بمن علقوا جثثهم في الساحة العامة.
لم تكن علاقتي به خلال ساعات العمل تتعدى السلام المتبادل أو شرب الشاي عند استراحة الغداء وفي بعض الأحيان نذهب سوية إلى مطعم للأكلات الشعبية قرب هيئة الآثار. لكن منذ بقائه في الموصل واظبت على الاتصال به للإطمئنان عليه. كنت أيضًا ألح على رياض بفعل الشيء ذاته لكن انشغاله بعروسه أنساه ذلك.

أمست الرسائل النصية طقوس ما قبل النوم، واحدة لوالدي والثانية لمحمد، أما وسن فأحتفظ بها للخاتمة لأن رسائلي معها قد تستمر طوال الليل، وينتهي الحوار المكتوب غالبًا بأن ترسل لي صورة باقة ورد وأرسل لها صورة شفاه حمراء بشكل قبلة. وإن سمحت الضروف نعود من جديد لممارسة الحب عبر الهاتف. وأدخن بعد ذلك سيجارتين قبل النوم.

لم يأتني رد من محمد هذه الليلة! قررت أن أتصل به بدلًا من الاكتفاء بالرسائل:
ـ منذ أيام وأنا منزو في بيتي، أخشى أن ألتقي بهم في الشارع، قد يصدر مني كلمة لا تروق لهم فيكون ثمنها رأسي.
ـ لا تقل هذا يا رجل أنت تبالغ قليلا.

أعلم جيدًا بأنه لا يبالغ لكن ليس أمامي شيء غير محاولة تهدئته. صوته متقطع ونبرته مضطربة، حتى كلماته خرجت من فمه بصوت خافت كأنه يخشى أن يسمعه أحد:
ـ أنا لا أبالغ، هم يذرعون الشوارع كالملوك. لا يجرؤ أحد على اعتراض طريقهم. أخشى أن يكتشفوا بأنني ألفت كتابين عن الحضارة البابلية، وهو كفر عندهم. هل تتخيل ماذا يمكن أن يحل بي لو وشى بي أحدهم وعلموا بذلك.
ـ لا تقلق، لن يعرفوا ذلك، هي مجرد كتب بسيطة, لن يعيرها أحد أهمية..

لا استوعب ما يحدث لي، كرهت تلك المكالمة الهاتفية واحتقرت نفسي بسببها، كل ما قلته له لم أكن أؤمن به بتاتًا. كيف يمكنه أن يصدقني. وماذا ينفع أن أكذب على نفسي. وهل يفلح الكذب بانجاز ما تعجز عنه الحقائق؟
اتصلت به من جديد:
ـ اسمع يا محمد، أنت في خطر كبير... عليك بمغادرة الموصل.
ـ لكن..
ـ لا تقل لكن، لا تفكر كثيرًا لأنك قد تتأخر، اخرج من بيتك حتى لو استولوا عليه من بعدك. بكل الأحوال لم تعد مالكًا لا لبيتك ولا لروحك. بماذا سينفعك ذلك البيت إن علقوا جثتك عليه؟

ربما قسوت عليه بهذه الكلمات إلا أنني على الأقل قلت كلامًا لا يمكن تكذيبه. لأول مرة أقسو بالكلام على أحد دون أن أشعر بالذنب! على العكس شعرت بارتياح غريب!
كنت أرغب أن أطلب منه بعض الايضاحات بشأن طبيعة عمله، لكن قلقه على مصيره وحياته منعني من التطرق لأمر قد يعتبره تافهًا.

الملف الأول الذي وقع بيدي يتضمن رسائل متبادلة بين دائرتنا ومكتبة الكونغرس. أثارت تلك الرسائل فضولي، لم أكن أتوقع رسائل متبادلة بهذا المستوى؛ مكتبة الكونغرس الأمريكي!!

تحمست لقراءة كل تفاصيل الملف. لوهلة أعاد إلي هذا الملف الأمل من جديد. من يدري قد أفلح بارسال طلب إلى مكتبة الكونغرس مباشرة كي يساعدوني في الحصول على مقعد دراسي في الولايات المتحدة.
الحلم بالحصول على شهادة عليا من بلد أجنبي سبب لي أرقًا لليال طوال. خصوصًا بعدما رأيت أن من ذهب إلى هناك بحجة الدراسة لم يسع لغير طلب اللجوء دون التفكير بالعودة وبين أمتعته الدرجة العلمية التي أحلم بها منذ صغري.
الرسالة الأولى التي وقعت يدي عليها كانت بشأن لجنة أمريكية مكونة من خبراء بعلم الآثار قاموا بزيارة مدينة الحلة في عام ٢٠٠٤ بهدف الاطلاع على المخطوطات التي تضررت خلال اجتياحهم للمدينة، وقد حملوها معهم إلى المختبرات الأمريكية بهدف الترميم.

رسالة أخرى تشرح بأن اللجنة لن تلتزم بإعادة المخطوطات في الموعد المتفق عليه في حزيران ٢٠٠٥ بسبب ما يشهده البلد من فوضى وعنف طائفي.

كانت هنالك رسالة صادرة من دائرتي تطلب من اللجنة بعض التوضيحات بشأن عرض المخطوطات العبرية في متاحف القدس وتل أبيب دون حصولهم على ترخيص منا أو من الحكومة.
لم أعثر على رد أمريكي بشأن تلك الرسالة!

كاد الملف أن يسقط من بين يدي عندما قرأت الرسالة الأخيرة:

"اللجنة العلمية في مكتبة الكونغرس تبلغكم فائق التحية، وتعلمكم بأنها مضطرة للاحتفاظ بنصف المخطوطات التي في عهدتها. وذلك مقابل التكلفة الباهضة التي تكبدتها خلال مراحل الترميم التي خضعت لها تلك المخطوطات لإعادتها إلى ما كانت عليه. وستقوم لجنة مختصة باختيار المخطوطات التي ترغب بالاحتفاظ بها."

ذهبت راكضًا إلى مكتب المدير دون أن يفارق ذلك الملف يدي، لم ألاحظ سقوط بعض الأوراق مني إلا في طريق العودة. طرقت باب مكتبه بشدة دون أن أحصل على رد، شاهدت بعض الموظفين وهم يخرجون من مكاتبهم ليروا مصدر ذلك الطرق الشديد. لم يكن المدير صهيب في مكتبه هذا اليوم، ربما غادر مبكرًا كعادته أو أنه لم يأت أصلًا.

حالة الكآبة التي انتابتني جعلتني أنقطع عن رسائل المساء.
لأيام خلت لم أرد على رسائل وسن المسائية. تركت هاتفي بدون رنين كي لا أسمع الاتصالات المتكررة التي أتتني من والدي ووسن, وكذلك نسيت أمر محمد العالق في الموصل. حتى الطلاب الذين كنت أعطيهم الدروس انقطعت عنهم دون أن يخطروا لي على بال. أخبرني رياض فيما بعد بأنهم زاروه بحثًا عن عنواني لكنه رفض اعطاءهم إياه:
ـ فكرت بأنهم قد يتسببون لك بالاحراج إن زارتك مجموعة من الشبان في الفندق.
ـ حسنًا فعلت، لا أرغب بلقاء أحد.
ـ يبدو أنك تبالغ قليلا، ماحدث لآثار البلد منذ الاجتياح الأمريكي حتى وصول داعش يجعل من قضية المخطوطات هذه مجرد دعابة بين بلدين.
ـ دعابة؟!!!
ـ اخفض صوتك قليلا، سيظنون بأننا نتشاجر.
ـ لا لن أخفض صوتي. ربما أنت ومديرك متواطئان بهذه القضية.
ـ هووو.. على مهلك، لا تتفوه بكل كلمة تأتي إلى رأسك هكذا دون تفكير. ومن أنا حتى أتعامل مع الكونغرس؟ ثم أن هذا الملف كان في عهدة محمد. وهو الآن كما تعلم أسير هو وعشيرته عند داعش.
فإن كنت بالفعل تشعر بالمسؤولية, اذهب إلى الموصل واسأله.

* * *

لم يكن بول أميل بوتا متفائلًا بوصول منافس له في مدينة الموصل. قضى وقتًا طويلًا في الموصل، وأفلح بإقامة علاقات متينة مع شيوخ العشائر ولم ينس أن يتقرب من مسيحيي المنطقة.
لم يتردد بوتا بحضور القداس في كنيسة مار توما في حي النبي جرجيس كي يرفع من شعبيته بين سكان المدينة وتعم سمعته الطيبة حتى تبلغ كل القرى المسيحية التي تحف بالموصل. تصور حينها أن تقربه من الأهالي سيمكنه من تنفيذ حفرياته في تل التوبة الذي يحتضن ضريح النبي يونس.
يعتقد شبه متيقن بأن ذلك التل يضم تحت ترابه كنوزًا تعود لعهد ذلك النبي ذي الحكاية العجيبة في بطن الحوت.
لكنه اصطدم بالغضب والشتائم التي تعرض لها حين ضرب المعول الأول في ذلك التل. قاوم رغبته حينها وقرر عدم الاقتراب من ذلك التل؛ تراجع عن قراره كي لا يطردونه من المدينة، وحينها قرر ألا يحفر إلا خارج أسوار مدينة الموصل.
جل ما كان يخشاه هو أن يفقد تلك الشعبية التي وطدها بين الأهالي فيصبح شخصية مكروهة لا يتعاون معها أحد.
لاحظ بأن لايارد كان مجرد شاب مندفع يبحث عن المغامرة وليس لديه خبرة في مجال الآثار.. اكتشف منذ اللقاء الأول بأنه لا يمت لعالم الآثار بصلة, لكنه ارتاب من الاندفاع المحموم الذي يتمتع به.
ذلك الاندفاع وتلك الجرأة قد تكون عقبة حقيقية أمام طموح بول أميل بوتا.
لذا فكر منذ البداية بوضع حدود وعقبات أمام هذا الشاب كي لا يغلبه في ذلك السباق المفتوح والخالي من القوانين:
ـ التنقيب هنا يجب أن يتم وفق ضوابط وقوانين لا يمكن اهمالها يا لايارد.
ـ عن أي قوانين تتكلم؟ ومن الذي وضع تلك القوانين؟!
ـ التجارب التي مررنا بها مع سكان هذه المدينة هي التي سنت تلك القوانين.
ـ وما هي تلك القوانين؟
ـ لا تحاول التعرض لمشاعر السكان الدينية. هم يقدسون دور عبادتهم ولديهم مراقد مقدسة إياك والتقرب منها.
ـ أي مراقد تقصد؟ أنا أنوي التنقيب خارج حدود المدينة.

نهض أميل بوتا من كرسية وتوجه لإيقاد غليونه باحثًا عن كلمات يمكن أن تساعده على ثني لايارد عن التنقيب في الموصل. هو يحذره من الاقتراب من تل التوبة بانتظار فرصة سانحة ليحاول مرة أخرى بالاتفاق مع بعض الشيوخ هناك، لكنه لم يتوقع بأن محاولة ثنيه عن لمس ذلك التل ستجعله يتوجه نحو الموقع الذي استحوذ هو عليه.
كان القنصل الفرنسي في تلك الأثناء ماض بالتنقيب في تلال خورسباد شمال الموصل وقد عثر فيها على قصر سرجون الثاني. استحوذ على أطلال القصر وعلى محتوياته من رقم طينية وتماثيل ضخمة وألواح حجرية نقشت عليها تاريخ الملاحم والمعارك في عهد سرجون الثاني.
لم يكن لايارد يرغب باطالة لقاء لا يتوق له لذا غادر مكتب أميل بوتا ليتوجه نحو مساعده هرمز رسام.
سحب أميل بوتا نفسًا عميقًا من غليونه. تعود على تدخين التبغ الذي تنتجه مزارع الأكراد, لكنه للمرة الأولى يسحب النفس تلو الآخر وينفث الدخان دون أن يشعر للتبغ من طعم يذكر. اقترب من الشباك وبقي يراقب لايارد وهو يبتعد حتى غاب بين الأزقة الضيقة:
"كيف سأتخلص منه؟ من أين أتى هذا اللعين؟! كيف أدركت بريطانيا بهذه السرعة بخبر عثوري على أطلال القصر الآشوري؟!!
زرعوا جواسيسهم في كل مكان! كنت أتوقع أن يكون تجسسهم مقتصرًا على الحكومة العثمانية فقط.
حتى الوالي العثماني تاهيار باشا لم يسمع بعد بخبر اكتشافي للقصر وهو لا يبعد عني غير مئات الأمتار، فكيف أدركت بريطانيا هذا؟!
يجب أن أبرق للحكومة لأعلمهم بأن بريطانيا باتت تتجسس علينا هنا."

8

أشعر بصداع خفيف، كان عليَ أن أشرب قهوتي في أوانها لكنني نسيت. قررت ترك هذه الملفات جانبًا لساعات لأن رأسي لم يعد يحتمل ذلك الألم. كل سطر من سطور هذا السجل يكاد أن يسبب لي سرطانًا في الدماغ. ربما أخطأت لأنني قبلت أن أتكفل بعمل محمد لحين عودته. ومتى يعود محمد من الموصل؟ ربما لن يعود أبدًا.

ما كان عليَ أن أصطحب هذا السجل معي إلى الفندق. متابعة هذه القضية في العمل تكفي لمنحي ارتفاعًا في الضغط. فلماذا أطمع بأكثر من ذلك لآتي بهذه الوثائق إلى هنا؟

اتصلت بمحمد من جديد لأنه لم يرد على هاتفه منذ يومين:

ـ محمد, قلقت عليك يا رجل لماذا لم ترد؟

ـ بقينا من دون كهرباء خلال هذين اليومين. لم أتمكن من شحن الهاتف كي أتصل بك.

ـ المهم أنك بخير.
ـ بخير؟! أنا مستمر بتنفس الهواء؛ يمكنك أن تعتبرني على قيد الحياة، هذا كل شيء.
ـ ستنقضي هذه المحنة عن قريب، المهم أن تتماسك وتحافظ على حياتك.
ـ لكن ما الذي ستأخذه معها تلك المحنة قبل أن تنقضي؟ هنالك شائعات منذ الأمس تقول بأنهم سيدمرون قبر النبي يونس عن قريب, ربما قبل أن يصلوا صلاة الجمعة.
ـ لا أظن ذلك، هم يدعون بأنهم دولة إسلامية، كما تعرف الإسلام يحترم كل الأنبياء.
ـ بالفعل، أنا أيضًا أعتقد ذلك.

طمأنته بما أسعفني لساني من كلمات؛ بقيت مستلقيًا لبرهة قبل أن يغلبني النعاس، كانت الشمس توشك على المغيب. غلبني النوم بسرعة، سبحت في نوم عميق منذ الدقائق الأولى دون أن تكون لدي رغبة بالنوم!
وكأن النوم هو الذي طلبني دون أن أتوسله كما تعودت أن أفعل كل مساء بحثًا عن غفوة أداعب بها جفوني.
رأيت فيما يرى النائم غبارًا بعيدًا يقترب بسرعة. كتلة صخرية عملاقة تتقدم نحوي وتتخذ من الغبار ستارًا كي لا أفلح في رؤيته. ترائى لي شيئًا ضخمًا.. كائن خرافي لم يتسن لي تمييز شكله ومعالمه سوى لون رمادي لمحته للحظة خاطفة من بين الغبار قبل أن يلتف من حولي ويوجه لي رفسة حجرية على ظهري.
شعرت بأن ظهري قد انقسم إلى نصفين. نهضت من سريري بجسد مرتجف كسعفة متيبسة تلعب بها الريح. تذكرت ما قاله لي والدي فقرأت آيات من القرآن وتعوذت من الشيطان:
"ما هذا الكابوس الغريب؟! لماذا يتكرر معي هذا الحلم منذ سنين؟! من هذا الذي يهاجمني بهذه الوحشية في منامي؟ ماذا أفعل لأتخلص من هذه اللعنة الغريبة".
تواترت الأسئلة على قلبي ولساني، شربت قليلًا من الماء وتحسست ظهري بيدي. لا أزال أشعر بألم في أسفل ظهري من تلك الرفسة.

"أنا متأكد من أنها ضربة حقيقية وليست مجرد كابوس أو أضغاث أحلام! لكن... كيف أتعرض لرفسة كهذه وما من أحد غيري في الغرفة".

خلعت ثوبي أمام المرآة واستدرت محاولًا رؤية ظهري، كانت هنالك بقعة حمراء تغطي ظهري، لا أدري أن كانت من أثر الضربة أو لأنني نمت طويلا على ظهري في هذا الجو الحار.
شعرت بالإرهاق إلا أنني خشيت أن أتمدد مرة أخرى على السرير، مسرح تلك الهجمة الغامضة. ابتعدت عن ذلك الفراش متحاشيًا أن يغلبني النعاس من جديد فأتعرض لرفسة ثانية قد تقسم ظهري النحيل. اقتربت من الشباك لأستنشق القليل من الهواء النقي.
نظرت إلى الشارع الذي كان يحتضن بعض الباعة الجائلين والكثير من المارة الذين يجوبون الشارع وينظرون إلى تلك البضائع البسيطة المعروضة على الأرصفة.
شعرت بأن الشارع يناديني بهمس خفيف. كأن هنالك ترانيم خفية تنبعث من بين مسامات اسفلت الشارع والحصى المبعثر على الدرب. تابعت قرص الشمس الأحمر وهو يغيب بين سعف النخيل الممتد على جانبي الشارع فيترك على شباكي أشكالًا حمراء متراقصة مع سعف النخيل.
نزلت السلم وأنا أتحسس ظهري بيميني. قبل أن أخرج من باب الفندق تذكرت بأني تركت هاتفي في الغرفة.
عدت راكضًا إليه، ما إن انتشلته حتى اتصلت بوسن:
ـ سالم.. سالم! أين كنت يا مجرم؟!
ـ اشتقت إليك فعلمني ألا أشتاق.
ـ لا تكذب مستعينًا بكلام غيرك.
ـ لا والله، إنما هو كلامي لكن غيري سبقني بقوله. ماذنبي إن كان الشعراء ولدوا قبلي.
ـ أين كنت؟
ـ هنا.. بين الفندق والعمل. مررت بلحظات صعبة ففضلت ألا أزعجك بها.
ـ خير، هل حدث لكما مكروه أنت ووالدك؟
ـ كلا وإنما هي مصيبة تمس الكثير منا.
ـ اقلقتني يا سالم. ماذا هناك؟!

ـ تعرض المتحف لسرقة كبيرة, سرقوا منا مخطوطات أثرية لا تقدر بثمن.
ـ أهذا كل شيء؟! لقد أقلقتني والله. ظننت أن هنالك مصيبة تعرضت لها أنت.
ـ وهل هنالك مصيبة أكبر من هذه؟!
ـ سالم.. ماذا بك؟! ألا ترى كم من المدن فقدنا ولا نستطيع استرجاعها! عن أي مخطوطات وأي تحف تتكلم؟!

أنهيت المكالمة كي لا نتشاجر وأنا بأمس الحاجة إليها، قد تكون محقة لكنني أنا أيضًا على صواب. كل منا ينظر إلى الأمر من منظاره. هكذا فسرت الأمر قبل أن أغلق الهاتف.
لا يهم أن نتجادل، فأنا أحبها وهذا يكفي. وهي كذلك. لا أحبها لأسباب وتعليلات محددة وإلا فلن يكون ذلك حبًا, وإنما أحبها لأنني وببساطة، أحبها.

حديثي مع وسن آلم قلبي لكنه أنساني آلام ظهري. اقتادتني ساقاي نحو إحدى المقاهي على ضفاف دجلة في جانب الكرخ. جلست على كرسي من الخوص مصنوع باليد، لم يكن مريحًا. ربما ألم ظهري جعلني أتضايق منه.
طلبت من النادل أن يأتيني بشاي وأرجيلة بطعم التفاح. جالت أنظاري في ذلك المكان الرحب وحاولت جهدي أن أتحاشى النظر إلى الأزبال المتناثرة على حافتي النهر كي لا تتشوه لحظة الاسترخاء التي كنت أبحث عنها.
آثار الانفجار تبدو واضحة على المقهى المجاور لنا، يبدو أنه تعرض لاعتداء قبل بضعة أيام. لم ينتهوا بعد من ترميمه. نسيان السيارات المفخخة والعبوات الناسفة نعمة لا تتوفر لأي شخص، وإحساس لا يدوم طويلًا، لذا حاولت أن أستغل ذلك الهدوء لأطول فترة ممكنة وأتشبث باللحظات الهاربة قبل تشتتها.

راقبت العمال البنغاليين الذين يتنقلون بين الطاولات لتلبية طلبات الزبائن بلغة تجمع بين انجليزية غير مفهومة وعربية غير مألوفة. لا يمرون على طاولة دون أن يحاول الزبون ترديد كلماتهم كي يضحك جلسائه.
تأملت قليلًا النخيل المرصوف خلف المقهى وأشجار اليوكالبتوس التي تحف بجانبي المقهى المترامي الأطراف. جالت أنظاري بين الرواد فوقعت عيناي على بعض طلابي.
لم أكن أتوقع أن أرى فتيان بأعمارهم يدخنون الارجيلة في مقهى عام! كنت أظن ذلك مبكرًا جدًا عليهم. ربما ليس هنالك من عمر محدد لتدخين السيجارة الأولى, فهي كالقبلة الأولى لا يمكن التكهن بموعدها..
اقترب مني ثلاثة من الفتية تعلوهم ابتسامة عريضة:
ـ كيف حالك يا أستاذ سالم؟
ـ أهلًا، أهلًا.
ـ نحن سعداء فعلا بهذه المصادفة. هل تأتي إلى هنا يوميًا؟
ـ يوميًا؟! طبعا لا. إنها كما قلتم هي مجرد مصادفة.
ـ إنها مصادفة جميلة وكما يقال رب صدفة خير من ألف ميعاد. كنا قبل قليل نتكلم عنك وإذا بنا نراك هنا!
ـ تتكلمون عني؟
ـ نعم فنحن فعلًا بحاجة إليك، لماذا توقفت عن تدريسنا؟! هل أساء إليك أحدنا؟
بقيت صامتًا لثوان وأنا أنظر إلى أرجيلتي التي يترقرق فيها الماء مخلوطًا بدخان التبغ المعطر. لماذا توقفت عن تدريس هؤلاء الفتية؟ لا أظنهم سيتأثرون بقضية المخطوطات إن شرحتها لهم. حتى منظر هذا المقهى الذي تفجر قبل أيام لا يعنيهم ولا يقلقون بشأنه. ربما أمر المخطوطات لا يهم أحدًا غيري. فمنذ تسلمت الملفات وأنا المسؤول الرسمي والوحيد عن ذلك، فلماذا أشركهم به؟
ـ طيب سأعود في الأسبوع المقبل بامكانكم إخبار بقية رفاقكم.

* * *

انتظر لايارد حلول انتصاف الليل بفارغ الصبر. في الموصل اكتشف بأنه لا يطيق الانتظار. أدرك بأن كرهه للحياة اللندنية الهادئة والخالية من الإثارة هو الذي حدا به للخروج من هناك بحثًا عن مغامرة في أراضي الشرق.
وصل مساعده هرمز حاملًا معه كيسًا من القماش، انتشله من يده بسرعة ودخل إلى غرفته. خرج من الغرفة بعد دقائق مرتديًا زيًا قرويًا بهدف التمويه. انطلقت ضحكة قوية من هرمز ما إن وقعت عيناه عليه.
ـ ماذا يضحكك؟!
ـ لقد وضعت العباءة بالمقلوب.
ساعد هرمز رفيقه على ارتداء الزي بصورة لا تثير الشبهات. أحكم العقال فوق رأسه والعباءة على كتفيه ورص الحزام الجلدي على بطنه فوق الجلابية وانطلقا سوية يحثان الخطى نحو تل التوبة.
سار لايارد مسرعًا بين الأزقة الملتوية والمعتمة وهو يفكر بغريمه بوتا:
"أنا متأكد من أن محاولته لإبعادي عن تل التوبة لا علاقة لها باحترام المشاعر الدينية. هو يخفي عني سرًا ما ولا يريدني أن اكتشفه. ربما هنالك كنوزًا أثرية في قلب ذلك التل ويرغب بالاستحواذ عليها بمفرده".

جلس حارس الضريح عند أول السلم المؤدي إلى باحة قبر النبي يونس منتظرًا وصول هرمز ورفيقه. اتفق هرمز مع الحارس أن يسمح لهما بالحفر في إحدى جوانب التل مقابل مبلغ من المال.
لم يتردد الحارس بالموافقة, فمكوثه المطول أمام القبر أفقده الاحساس بقدسية المكان.. يرى الزوار يتوافدون يوميًا للتبرك بالنبي يونس ويعودون بعد ذلك لتوزيع الحلويات على المصلين. يمنحونه نصيبه من الطعام فيأخذه لزوجته وأبنائه.
ينظف باحة الضريح قبل أن يغلق الأبواب ويغادر موليًا ظهره للقبر دون أن يؤدي نفس الانحناءة التي يقوم بها الزوار عند مغادرتهم للضريح.
منذ مدة وهو يشعر بأن قدسية ذلك القبر تتناقص في قلبه لأنه جرب أن يفعل كبقية الزوار عندما أصيب ابنه بالربو. جاء به إلى القبر ودعى ربه هناك لكن ابنه بقي مريضًا...

كرر المحاولة لمدة اسبوع مصطحبًا ابنه معه لكن في اليوم الثامن تمسكت زوجته بالطفل ومنعته من أخذه معه:
ـ دعه ينام في المنزل بدلًا من أن تتعبه بذلك المشوار. لماذا تأخذه منذ الفجر وتعيده إلي متعبًا وجائعًا؟ دعه بقربي اعتني به هنا.

لم يعترض، غادر المنزل تاركًا ابنه بأحضان أمه. جلس بعيدًا عن القبر هذه المرة، لم يعد بحاجة للاقتراب منه. بقي يتأمل البناء والنقوش دون أن تثر به ذلك الانفعال الذي يراه على وجوه بقية الزوار. فمن يصل إلى الكعبة للمرة الأولى يجهش بالبكاء متأثرًا بالمكان، لكن من يسكن قربها ويصلي فيها كل يوم، لا يبكي عند الدخول لأنه تعود ريحها.

غرز هرمز معوله في التل ورمى بالتراب جانبًا، نظر يمينًا ويسارًا ثم غرز معوله من جديد، بينما واصل لايارد الحفر دون أن يلتفت.
توسعت الحفرة خلال أكثر من ساعة. ارتطم المعول بشيء صلب. كشط لايارد التراب بشفرة المعول لينكشف أمامه جزء من لوح طيني يحتوي على نقوش غريبة.
هكذا اعتبرها لايارد لأنه لم يكن يعرف الكتابة المسمارية حينذاك.
وضع ذلك اللوح الفخاري جانبًا وواصل الحفر فانفرج تجويف في قلب التل يشبه باب مغارة عميقة.
حبس لايارد أنفاسه...

تخيل لبرهة بأنه أمام باب مغارة ستقوده لاكتشاف عالم لم يره أحد من قبل. ها قد عثر على مخبأ الكنوز التي لا تقدر بثمن.
صحا من وقع المفاجأة حينما أدرك بأنها فتحة صغيرة تؤدي إلى ممر يضم مئات الرقم الطينية.
لم يهتم لايارد كثيرًا بهذه اللقية لأنه كان يبحث عن كنز يبهر المتحف البريطاني أو بريطانيا بأسرها... هذه الألواح الصغيرة من الطين المغسول والمصفى بعناية لن تبهر أحدًا. هي لا تختلف كثيرًا عن القطع الصغيرة التي رآها في المتحف البريطاني قبل سفره. فما الجديد في ذلك؟

وجود رجلين على التل وهما يحفران بالمعاول أثار انتباه أحد سكان الموصل الذي يسكن في بيت صغير مقابل التل. لم يتوقف ابنه الرضيع عن البكاء طوال الليل فقرر أن ينام على سطح المنزل هربًا من بكائه المستمر؛ إلا أن سرب البعوض الذي لم يتوقف عن قرصه من قدميه منعه من النوم.
لمح ضوءًا خافتًا ينبعث من الفانوس الذي كان يحمله هرمز معه, فأدرك أن هنالك من يعبث بالتل المقدس. ارتعدت فرائصه وهو يرى أن هنالك من تجرأ على انتهاك حرمة النبي يونس في عمق الليل.
شعر بأن الله سيحاسبه إن بقي صامتًا لأنه رأى بأم عينيه تدنيسًا لقبر النبي.
فخرج مسرعًا من منزله متوجهًا نحو مقر الشرطة العثمانية. كان الباب مقفلا والحراس يغطون في نوم عميق.
طرق الباب بقوة واستمر بالصياح بأعلى صوته:
ـ افتحوا الباب.. افتحوا الباب هنالك مصيبة.. مصيبة؛ إنهم يعبثون بقبر النبي يونس. سينبشون القبر وأنتم نيام!!

صحا سكان البيوت المجاورة لمقر الشرطة كما صحى رجال الشرطة.
طلبوا منه بعيون ناعسة أن يشرح لهم ما رأى فقال لهم صارخًا:
ـ ليس لدي وقت للشرح، إنهم ينبشون قبر النبي يونس.. الغوث قبل أن تحل الكارثة بالموصل بأسرها.
خرجت الشرطة بخيالها يتبعهم مفتي الموصل والبعض من رجاله وقليل من السكان الذين أيقظهم الصراخ قرب منازلهم.
تنتشر الأصوات في عمق هدوء الليل وتسمع من بعيد، هذا ما أنقذ لايارد وهرمز رسام. سمعا صوت حوافر الخيول تعدو نحوهم وتراءت لهم من بعيد المشاعل التي استدل بها رجال الشرطة طريقهم.
لم يكن سكان الموصل بحاجة لتلك المشاعل فهم يعرفون أزقتهم كما يعرفون ما في جيوبهم، لكن الشرطة العثمانية تبقى غريبة عن الموصل حتى لو قضت فيها أعوامًا طويلة. هربا راكضين قبل وصول الشرطة ومن تبعهم إلى التل.
لم يعثر رجال الوالي إلا على حفرة بسعة مترين وفانوسين ركلاهما بأرجلهم حين هروبهما.

ستبقى تلك الحفرة فاغرة فمها... لن يردمها أحد. وستتسرب مياه الأمطار دون إذن إلى داخل التل. باتت الألواح عرضة للمياه بعدما كانت محفوظة في قلب الأرض لآلاف السنين. ستفككها دموع تنهمر من غيوم السماء وستمحي ما كتب عليها، لتضيع معها أسرار دونها رجال عاشوا هناك منذ فجر التاريخ.

9

حلقت ترانيم المآتم هذا اليوم في كل مكان, بدأ شهر محرم وانطلق إيقاع اللطم على الصدور من المواكب التي جابت الشوارع. الشيوخ والمقرئين يتقدمون تلك المواكب الطويلة ويتناوبون على إلقاء القصائد بلحن جنائزي, ليبكون من يسير من خلفهم أو من تستمع لتلك الكلمات من وراء الجدران, دون أن تحصل على إذن بعبور أسوار المنزل.

لم أرغب بالمشاركة في تلك المواكب كما طلب مني موظف الفندق. ما الجدوى من اللطم على من يسكن الجنة قرب جده.

بعض الرجال لم يكتفوا باللطم أو بضرب ظهورهم بالسلاسل فراحوا يشرطون رووسهم بسكاكين عريضة, لتسيل دمائهم على وجوههم وتغطي

الثياب البيضاء التي يرتدونها. فقط من يحمل سكينًا له الحق بارتداء اللون الأبيض ليستعرض نزيف دمه حتى أطراف ثوبه الطويل.
أحدهم يحمل طفلًا دون الخامسة لم يتوقف عن البكاء والصراخ. يتعمد الشيخ رفع صوته عند إلقاء رثائيته كي لا يضيع تركيزه وينسى أحد الأبيات بسبب بكاء الطفل المدمى. هو الأخر تخضب وجهه. يغمض عينيه الدامعتين بقوة خشية أن تنفذ إليها الدماء. دماء رأسه الصغير اختلطت على تلك الثياب بدماء والده ذي السكين المرعبة.
حتى الأيتام لا أظنهم سيحسدونه على أبيه.
لم أطق الوقوف مكتوف الأيدي أمام ذلك المشهد. اخترقت الموكب لأصل إلى ذلك الرجل وقد أصابتني واحدة من تلك السلاسل المتينة على كتفي, لم أكن أعلم أن في الموكب قياسات ومساحات محددة لكل فرد.
مددت له يدي:
ـ ناولني طفلك أرجوك, سأعيدك إياه حينما تنتهي من التجول مع الموكب.
نظرة الغضب المخلوطة بالدماء لم تكن لتترك بي أثرًا من خوف:
ـ ابتعد عن طريقنا, من أنت لأترك عندك إبني!
ـ لا تقلق, أنا أسكن في هذا الفندق.
ـ قلت لك ابتعد ودعني أمر لقد أصبحت في ذيل الموكب بسببك.
ـ سيموت من الخوف! ألا ترى ذلك؟
ـ لا يهم. أنا أربيه على حب الحسين.. دموعه ستطفىء نار جهنم.
ـ وتظنه بالفعل سيحب الحسين على هذا النحو؟!

خرجت من الموكب بعدما دفعني بقبضته الممسكة بسكينه المدماة. تركت يده بقعة دم على قميصي البني. كان على أن ارتدي قميصًا أسود كبقية سكان الحي, ربما ستكون تلك البقعة أقل وضوحًا.
شعرت بالدوار من منظر الدم, صعدت إلى غرفتي وارتميت على سريري. نمت ورائحة الدم عالقة بأنفي...

تعرضت من جديد لكابوسي المتكرر, اعتدت عليه وبت أشتاقه إن غاب عني طويلًا.. صحوت في الرابعة فجرًا ولم يغمض لي جفن حتى بزوغ النهار. كتفي يؤلمني بشدة بسبب تلك السلسلة المتينة.

بقيت أراقب دبيب الحياة ينبعث في الشارع بعدما كان قد أقفر من المارة ولم يبق هناك غير سيارات الشرطة تجوب الشوارع مصدرة صفارات إنذار بدون سبب.
راودتني أكثر من مرة رغبة حثيثة بإلقاء طفاية السكائر على تلك السيارات التي تذرع الشوارع ليلًا وتمنعنا من النوم لكنني ترددت ولم أفعل خشية أن تلصق بي تهمة الإرهاب بعد ما حدث خلال النهار.

توجهت نحو العمل بخطوات جسد لم يأخذ كفايته من النوم. جلست في المكتب قرب صديقي رياض. انتهت عطلته قبل أيام وعاد للعمل من جديد. أخبرني بأنه حاول تمديد إجازته لأيام أخر لكن المدير رفض طلبه:
ـ ما بك يا سالم؟ تبدو متعبًا!
ـ نعم، أنا متعب بالفعل.
ـ هل أستطيع أن أساعدك؟ قل لي ما بك.
ـ لا شيء، إنه مجرد كابوس... هنالك كابوس يغشاني باستمرار.. أرى شيئًا ما... كائن غريب ينطلق نحوي بسرعة, وعندما يصل إلي يضربني بقوة. هذه الحالة بدأت تزعجني وتثير قلقي. وهنالك أمر آخر...

لم يترك لي رياض فرصة إنهاء ما كنت بصدد قوله، نهض بسرعة من كرسيه ووضع يده على رأسي وبدأ يقرأ آيات قرآنية بصوت مسموع. شعرت بالارتباك من ردة فعل زميلي المنتصب أمامي ويمينه على رأسي بينما استقر كفه الأيسر على كتفي. دفعت يده عن كتفي المصاب.
لم أجد ما أقوله وأنا أرى رياض يهيمن عليَ دون إذن مني!
بقيت صامتًا أستمع لترتيله غير المنتظم, والذي تخللته لحظات صمت قام خلالها بنفث أنفاسه بوجهي, اختلطت معها رائحة سيكارة ربما دخنها عندما كان يفكر بعروسه قبل وصولي بدقائق.
جلس من جديد قربي وقال بملامح قلقة:
ـ عزيزي سالم، أرجو أن تأخذ كلامي على محمل الجد. يبدو أنك ممسوس.
بابتسامة باهتة:
ـ ماذا تعني بسبوس؟!

ـ لا تستهزىء, أنا أعني أنك ممسوس بالجن. يجب أن تعالج هذا الأمر بأقصى سرعة لأنه قد يجلب لك سوء الحظ.
ـ سوء الحظ! هه هه.. يبدو أنك تحيا في عالم ثان. ومن منا لا يعاني من سوء الحظ؟ ألا تنظر من حولك حين تسير في الشوارع! كلنا نعاني من سوء الحظ الذي تتكلم عنه، حتى أنت. وبخصوص الجن ففي الحقيقة أنا لا أؤمن بذلك.
ـ دعني من تشاؤمك ولا تفسد علي فرحتي، أنا مازلت عريسًا جديدًا.. ثم من الطبيعي جدًا ألا تؤمن بالجن، فكل إنسان ممسوس يدفعه الجن نحو عدم تصديق ذلك كي يبقى مسيطرًا عليه.
ـ أنا لا أؤمن فعلا بهذه الأمور ودون تأثير من أحد، لا من إنس ولا من جان.
ـ اسمعني أرجوك، لن تخسر شيئًا إذا جئت معي. أعرف رجلًا سوف يساعدك في التخلص من هذا الكابوس. وهو الذي سيقف على الأسباب الحقيقية وراء تكرار ما يصيبك عند النوم.
ـ دعني وشأني يا رياض.
ـ إنه رجل صالح ومؤمن، لن تندم لو تعرفت عليه. إنه سيد من أحفاد رسول الله. ما الذي يمنعك من مقابلته؟!
ـ أكرر لك, لأنني لا أؤمن بما تفوهت به..
ـ حتى لو لم تكن تؤمن بذلك, ألا ترغب بالتخلص من هذه الكوابيس لتنام قرير العين؟!

* * *

ما إن أشرقت الشمس حتى انتشر خبر محاولة نبش قبر النبي يونس في كافة أنحاء الموصل. لم يشك القنصل أميل بوتا بهوية الفاعل. أدرك منذ اللحظة الأولى بأن لايارد هو الذي حفر هناك. فما من أحد غيره يجرؤ على فعل ذلك.
ضاعف بوتا من عدد الحفارين الذين يعملون لصالحه. أدرك بأنه أصبح في سباق مع الزمن منذ وصول لايارد إلى الموصل.

في البداية كان لوحده سيد الحلبة، لم يشعر بأن هنالك من ينافسه أو يقلقه. لم يفكر بزيادة أجور الحفارين لأنه يعلم بأنه ما من أحد غيره سيمنحهم فرصة العمل مقابل المال بدلًا من أعمال السخرة المجانية التي يجبرهم عليها الوالي العثماني. مهما كان أجرهم بخسًا فهم يعتبرون بوتا كريمًا مقارنة بالعثمانيين. لكن هنالك من نزل إلى المعترك أمامه.
لايارد يحاول أن يسحب البساط من تحت قدميه. اندفاع لايارد يؤرقه وسيجعله يغير من أستراتيجيته في العمل.
نصب بوتا لنفسه خيمة في تلال خورسباد شمال الموصل حيث عثر على أطلال قصر سرجون الثاني؛ بدأ يحفر بنفسه مع بقية الحفارين للإسراع بإخراج كل شيء خلال بضعة أيام...
كانت المهمة مستحيلة لأن وزن التمثال الواحد يصل إلى عدة أطنان وبالتالي يحتاج الحفارون إلى أيام لحمله على العربة وسحبها حتى نهر دجلة.
أخرج ثلاثة تماثيل ضخمة وعشرات الألواح الحجرية التي تحتوي على نقوش وصور تروي تفاصيل حياة الآشوريين في عهد الملك سرجون الثاني.
أخرج الحفارون حبالًا متينة ليسحبوا التماثيل نحو العربات.. يعلم بوتا بأن هذه المهمة ستقضي على مقدرة رجاله وستتراخى أجسادهم قبل أن ينهوا مهمتهم، وسيفعلون كما حدث في المرة السابقة..
سيتأخرون عن المجيء إلى العمل في فجر الغد، سيتمارض البعض الآخر مفضلًا العمل في اليوم الذي يليه. فمن يحصل منهم على أجرة تكفي قوت عياله ليومين أو لثلاثة لن يعمل إلا عندما ينفذ ما في بيته من خبز.
أخرج بوتا من خيمته التي تحولت إلى مكتب لأدارة العمليات مناشير كبيرة لقطع الأحجار.
ناولهم إياها:
ـ اقطعوا التماثيل إلى ثلاثة أجزاء.. ستكون مهمة رفع التمثال ونقله بعد ذلك أسهل بكثير.
تهللت وجوه الحفارين بهذا النبأ.. لم يعترض أحد. تناولوا المناشير منه وهجموا على التماثيل لتقطيعها.

أحد التماثيل الثلاثة كان أكثر ضخامة من البقية. فكر بوتا بطريقة لنقل هذا التمثال دون تأخير، طريقة يستحوذ بها عليه دون تحمل أعباء الوزن الثقيل.
ـ اقطعوا هذا التمثال إلى نصفين متساويين ثم اكشطوا داخله بالفؤوس.. اجعلوه مجوفا من الداخل.. سيصبح من دون وزن يذكر.

استلهم فكرة تحويل التمثال إلى جسد مجوف من كتاب العهد القديم، تخيل تمثال العجل المجوف الذي صنعه السامري لبني إسرائيل مشابهًا لهذه التماثيل التي عثر عليها، كان هنالك شكوك تساوره بأن السامري قد يكون شاهد في يوم ما أحد هذه التماثيل على أبواب القصور ولشدة أعجابه بذلك الفن حاول أن يستدرج قومه ليحولهم إلى عابدين للفن بدلًا من عبيد مطيعين ليهوه ولموسى.
لم تمر لحظة واحدة خلال العمل دون أن يتسائل بوتا:
"أين هو الآن؟ ماذا ينوي أن يفعل هذه المرة.. هنالك تلال أخرى أريد أن أجري فيها تنقيباتي بعد الإنتهاء من هذا. لكن من يضمن لي بأن لايارد لن يستحوذ عليها قبل وصولي.
كان علي أن أتعامل مع هرمز رسام منذ البداية.. ذلك اللعين. سيسهل له الكثير من العقبات بفضل مكانة والده لدى أهالي الموصل. الكل يعلم بأن هرمز هو ابن أسقف كنيسة المشرق. لن يعترض طريقه أحد.. لماذا لم أضمه إلى فريقي؟! وكأنني تجاهلته متعمدًا كي يحظى به لايارد" .

10

جذبت انتباهي كثرة الرايات الملونة التي ترفرف على سطح منزل الرجل الذي قصدناه. بقي نظري مشدودًا صوب راية سوداء من بين تلك الرايات الملونة وقد تطرزت عليها بالخيوط الذهبية عبارة "يا حسين يا مظلوم"..
منزل واسع ومحاط بجدار بني اللون.
حين اقترابي منه لاحظت أن اللون البني لم يكن غير بقع واسعة من الحناء خضبت الجدار لأعوام طويلة حتى استحال لونه إلى بني معتم. آثار الأصابع فوق تلك البقع قد تكون اشارات إلى تدخلات ناجحة نفذها ذلك الولي الصالح لتأتي تلك الحناء كختم أو كتأييد شعبي لفاعلية البركة التي يبثها السيد صباح على مريديه، ذوي الحوائج المستعصية.
وكزني رياض بيده لينبهني بأننا قد وصلنا إلى منزل السيد صباح.

الكثير من الأحذية المغطاة بالتراب والأنعل التي تبدو كأنها سئمت المسير تحت أرجل أصحابها متناثرة أمام الباب المعدني الأخضر ذي الجوانب المذهبة وقد كتب عليه بالدهان البني: **"إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا".**

خلع رياض حذائه وطلب مني أن أفعل الشيء ذاته.

ـ لماذا أفعل ذلك هل نحن في مسجد؟

ـ كلا إنما هكذا جرت العادة.

ـ لا يا رياض لن أخلع حذائي.. إنه مجرد منزل وليس الوادي المقدس..

ـ ستسبب لنا مشكلة إن لم تفعل ذلك.. لا تجادل كثيرًا.

خلعت حذائي فقط لأجنب صديقي المشاكل كما يظن.. لم أفكر يومًا بزيارة سيد أو ولي من الأولياء، لكنني وجدت نفسي ومن دون موعد مسبق أقوم بهذه الزيارة أمام باب أحد الكشافين كما يسمونه في تلك الناحية, ولولا فضولي لرؤية ما يدور بالداخل لما وافقت على زيارة ذلك الرجل..

لا تؤمن الناس في هذه القرية بنشرة الأنواء الجوية وإنما يعتقدون أن المطر ينهمر بكثرة الدعاء والتوسل إلى الله **"وفي السماء رزقكم وما توعدون"**؛ كما لا يفكر بعضهم بزيارة الطبيب لأن الشافي هو الله. أما الأولياء فهم الوسيلة إليه؛ وببركاتهم يطلبون الشفاء من الأسقام.

جلست في باحة واسعة مغطاة بتراب ناعم ومدت على الجوانب الأربعة أفرشة ووسادات مهلهلة تعاقبت عليها أعداد لا تحصى من الزوار والمريدين. جاؤوا من قرى بعيدة طلبًا لقضاء الحاجة تارة، ولتقديم الهدايا ولنحر القرابين تارة أخرى.

لوحات كبيرة للإمام علي وأبناءه تزين الجدران الأربعة. قرأت عدة مرات أبيات قصيدة كانت معلقة أمامي:

يا سمي الكليم جئتك أسعى والهوى مركبي وحبك زادي
مسني الضر وإنتهى بي فقري نحو مغناك قاصدا من بلادي.

بقيت جالسًا في الظل أراقب خط الشمس وهو يقترب مني رويدًا رويدًا. كنت أخشى أن تصل الشمس إليَ قبل أن يحين موعد دخولي إلى السيد صباح.
حينما جلست كان ضوء الشمس يبعد عني أكثر من مترين، والآن أصبح بيني وبين حافة الظل شبرين فقط ومازلت أنتظر الإذن بالدخول.
جلت بنظري بين عشرات الحضور الصامتين بهدوء إيماني وكأنهم في صلاة الجماعة بانتظار أن ينهي الإمام الصلاة ليتمكنوا من الكلام فيما بينهم.
راقبت رجلًا في الستين من عمره يجلس أمامي وكاد أن يغفو من طول الانتظار، ملامح التعب والسهر واضحة على وجهه وتحت عينيه. خمنت أنه أتى من محافظة بعيدة. تسائلت إن لم يكن هنالك سيد ذو كرامات في الناحية التي يسكن فيها!
يبدو أن أمله بقدرة السيد صباح على تحقيق أمنيته ورجائه جعله ينتظر ويصبر دون أن يجرؤ على المغادرة. وكيف له أن يغادر وقد يعتبره الحضور ارتد عن معتقدهم. ربما جرب من قبل الولي الساكن بقريته لكنه لم يحقق مراده. كان لا يتوقف عن دعك أسفل ظهره بيده اليمنى، أظنه سيطلب من السيد أن يقرأ له على ظهره ليسكن آلامه، قد يكون أتى لشيء آخر لكنه بكل الأحوال لن يفوت هذه الفرصة كي يطلب منه أن يحل بركته عليه ويمسح بيده على ظهره العليل.
أما المرأة التي جلست في الزاوية البعيدة فلم تكن تتحرك ولم تحاول رفع رأسها. تتحاشى الكلام مع بقية النسوة، كأنها لا ترغب بأن تلتقي عينيها بنا خشية أن يتعرف عليها أحد. تحفظها وانزوائها حجب عني إمكانية تخمين سبب مجيئها إلى هنا.
وحده السيد سيعرف سبب مجيئها إلى هنا. سيتكفل بحل مشاكلها هي الأخرى. هل ستكون متحفظة أمامه كما هي الآن أم أن لسانها سينطلق بفصيح القول عارضة معضلتها دون خجل؟
ماذا لو كان الأمر مخجلًا؟ هل ستفصح عنه رغم ذلك؟! هل ستتخلى عن حيائها لبعض الوقت؟

أنصت لصفير الرياح وهي تتلاعب بالرايات المرفرفة على سطح المنزل، شعرت بالملل من الانتظار الطويل ومن مراقبة أولئك الناس ذوي الوجوه المتعبة.
لم يصدر منهم غير صوت أحجار مسبحاتهم وهم يحركونها بأصابعهم؛ وشفاههم ترتل بصمت بعض الأدعية.

سقطت أنظاري على سرب من النمل يمر من أمامي، كان ذلك السرب يشكل خطًا أسود على أرض ترابية. يسعى من تحت البساط البني ويتجه إلى مدخل الغرفة التي اتخذها السيد صومعة يلتقي فيها بمريديه.
توجهت سبابتي نحو النمل بصورة لا إرادية كما تعودت منذ الصغر ودعست نملة تتوسط السرب، فتفرق الخط الأسود وأصبح عشوائيًا لا شكل له، ومن ثمة دعست نملة ثانية تتجه نحو قدمي وثالثة تحاول الهرب وأخرى تحاول الاختباء تحت البساط الخشن..
صرخ الرجل الجالس بقربي وهو يدفعني بعنف من كتفي:
ـ شدتسوي؟... ولك أنتة مخبل؟!
شعرت بالارتباك من ردة فعل الرجل المفاجئة. لم أفهم سبب غضبه. حاول رياض أن يهدئ الموقف بسرعة لكنني طلبت منه عدم التدخل.
ـ ماذا بك يا رجل؟ ما الذي يغضبك؟!
ـ قتلت نمل السيد. ما دا تشوفة وين رايح؟! هذا النمل دخل في حما السيد وأنتة تريد تموتة! شلون هيك تسوي؟!
لم أكن أتوقع أبدًا هذا الكلام، فرددت بصوت أكثر حدة:
ـ هل أنت مجنون؟! ماهذا الهراء! ألا تخجل مما تقول؟
جلت بنظري بين الناس ظنًا بأنهم يناصرونني ويشرحون له بأن هذا الكلام غير معقول لكنني شاهدت على وجوههم نظرات لوم ونبذ سددوها لي وحدي دونه!
حاول رياض أن يطيب خاطر الرجل ببعض الكلمات بينما عدت للجلوس من جديد ولا سبيل لي للهرب من نظرات الاستهجان التي أمطروني بها. فبعدما كنت أراقبهم وأحلل أسباب مجيئهم إلى هنا أصبحت أنا في مرمى نيران تلك النظرات العابسة.

بعد نفاذ صبر حان موعد دخولي إلى الشيخ. كانت الغرفة كما توقعتها، معتمة قليلًا وتغرق برائحة البخور الهندي الذي تغلغل في الجدران والستائر البنية وحتى بين ثنايا لحية السيد الكثة.
قبل أن ألقي التحية عاجلني رياض بالانحناء نحو السيد وتقبيل يده. توقعت منه ذلك. مددت يدي مصافحًا ذلك السيد الشاب.
رسمت له صورة شيخ في الخمسين من العمر أو أكثر بقليل إلا أن السيد صباح لم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير.
تظاهر حينما حييته بالانشغال بقراءة كتاب صغير, حينما دققت النظر أدركت بأنه لم يكن غير دفتر خال من الكلمات!
رفع الرجل عينيه تاركًا دفتره الصغير ليحدق بعيني. بقيت صامتًا لبرهة بانتظار كلمة من ذلك الرجل. عاد من جديد لينشغل بذلك الدفتر الصغير بدلًا من الانشغال بي بعد كل ذلك الإنتظار! شعرت بالاهانة وكدت أصرخ بوجهه لولا أنه سبقني وناولني ذلك الدفتر.
حارت عيناي بين رياض وهذا السيد:
ـ ماذا تريدني أن أفعل؟
ـ اقرأ ماهو مكتوب عنك في هذا الكتاب.
ـ هنا؟ لكنه دفتر فارغ! ماذا تريدني أن أقرأ؟
ـ اقرأ ما فيه.
ـ وماذا أقرأ؟!!
ـ إنه فارغ بالنسبة لكم أنتم، أنا أرى ما لا ترون.
لم أفلح بحبس ابتسامتي أمام هذه الهلوسة:
ـ نحن؟ ومن نحن؟
ـ أنتم العامة تظنون أنكم بقرتم العلم بمدارسكم، لكن مدارسنا لها علم متوارث. أنا أقول هذا لك لأنني أعلم بأنك لا تؤمن بي. لا يهم.. لن يغير ذلك شيئًا.
نظر السيد إلى الدفتر ورفع عينيه نحو السقف الرمادي أو هكذا كان يبدو بسبب عتمة الغرفة ثم ركز نظره بعيني:
ـ أعلم بأنك لست مقتنعًا بالمجيء إلى هنا يا سالم يا ابن سمية.
ـ كيف عرفت اسم أمي؟! هل هو مكتوب في دفترك هذا؟!!
واصل السيد دون أن يمنحني ردًا على سؤالي:

ـ أنت تعاني من مشكلة كبيرة.. أنت ممسوس بجن قديم... قديم جدًا. جن يبلغ من العمر آلاف السنين وهو أقوى مما تتخيل.
لم أصدق أية كلمة مما سمعت ما عدا اسم أمي:
ـ وهل هنالك جن قوي وآخر ضعيف؟
ـ بالطبع... الجن طبقات ودرجات ولكل واحد منهم قدرات خاصة تميزه عن البقية.
باستهزاء:
ـ لم أكن أتوقع بأن للجن أيضا طبقات اجتماعية مثلنا.
رد السيد بهدوء:
ـ ألم تقرأ من قبل قصة النبي سليمان مع الجن؟.. أحدهم اقترح عليه أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يغادر مكانه والآخر فعلها قبل أن يرتد إليه طرفه. تماما كالنمل الذي قتلته قبل قليل فمنهم من وقف بوجه النبي سليمان وجيشه ومنهم من لم يجرؤ على الوقوف بوجهك.
ـ لكن عرش ملكة سبأ كان في اليمن والنبي سليمان بعيد عنه في القدس!. أو ربما هو الآخر كان يسكن في اليمن وليس في القدس كما نظن, وإلا كيف له أن يزور بلقيس يوميًا!
وكزني رياض على ظهري وتكلم بسرعة ليغير الموضوع خشية أن يثير غضب السيد:
ـ صديقي يحب المزاح ولا يتقن اختيار اللحظات المناسبة لذلك.. هل من طريقة يمكننا من خلالها كف شر ذلك الجني عن سالم؟ إنه يتعرض لكوابيس و...
ـ أعرف أنه يتعرض لكوابيس مؤلمة وبشكل شبه مستمر... ربما الجن هو الذي يجعله يهرطق هكذا. فهذا الجن يهاجمه متقمصًا شكل حيوان خرافي... يرفسه بعنف ويغادره... ويبقى صديقك لا يقوى على الحراك. مع كل رفسة يتمكن منه أكثر فأكثر. سوف أعد لك ماءًا من بئر مبارك وسأعزم عليه هذه الليلة.. ما عليك إلا أن تخلطه مع الماء الذي ستستحم به، يجب أن تقسمه لسبعة أقسام وعند كل ليلة سبت تستحم به عند غروب الشمس وأنت مول ظهرك للقبلة. عودا في الغد وستجدان هذا الماء عند خادمي.

خرجت من منزل ذلك السيد وليس في نيتي العودة إليه أبدًا، لا للبحث عن الماء ولا لشيء آخر.
سرنا لدقائق دون أن أتكلم، عندما أدرك رياض بأنني لا أنوي الكلام بشأن ذلك الرجل حاول هو أن يكون من يبدأ بذلك:
ـ ما رأيك يا سالم بالسيد؟ ألم أقل لك بأنه سيجد حلًا لمشكلتك.
ـ عن أي حل تتكلم؟! ما هذا الماء الذي سيعزم عليه؟ السيد هو المجنون والممسوس ولست أنا. ثم ما هذا الهراء! أغتسل وأنا مول مؤخرتي للقبلة! هل هذا يعقل؟
ـ لا تستهزء، السيد لم يتكلم عن مؤخرتك. ألم تر بأنه كشف أسرارك وهو ينظر إلى دفتر فارغ. لقد قال بأنه يرى ما لا ترى.
ـ وهذا أيضًا كلام لا يطاق... يرى ما لا نرى! من يظن نفسه، الله؟!
بنبرة غاضبة:
ـ يبدو أن ما تعرضت له أنت ووالدك جعلك تكرهنا جميعًا.

جرحتني تلك الكلمة. لم أكن أتوقع أن يقول لي هذا.. لست مقتنعًا بما يقوله السيد صباح وأرثي لحال من يسعى إليه لكن أن يتم ترجمة هذا إلى كره.. فهذا ما لم أحسب له حساب. أقع دائمًا ضحية سوء الفهم. حتى صديقي المقرب بات يرجمني بتلك الاتهامات.
بقيت في المقهى حتى المساء وأنا أفكر بذلك السيد، وبالموقف الذي تعرضت له مع صديقي رياض بسبب زيارة تلك الشخصية الأثرية. لم أر فيه غير كاهن من كهان المعابد القديمة، ومن يحج إليه ليسوا إلا أناس يتمسكون بأكاذيب أفيونية هربًا من واقع أليم. ومن يدري ربما رياض هو الآخر كان يلومني في سره على دعسي للنمل. لم ينقصني غير هذا, أتهم بقاتل النمل المقدس أيضًا.

أدخن أرجيلتي وأنفث دخانًا من أنفي، لم أميز إن كان دخان حسرة على ما يجري من حولي أم مجرد دخان التبغ.
عدت سيرًا تحت جنح ليل مدلهم السواد. انقطاع التيار الكهربائي في الأحياء التي مررت بها زاد من عتمة الليل ووحشته.

سرت بمحاذاة الحواجز الكونكريتية المكللة بالأسلاك الشائكة. تنتصب الحواجز بارتفاع ثلاثة أمتار وتمتد لعدة كيلومترات لتقسم الأحياء على امتدادها إلى قسمين. تغطت جدران العزل بصور المرشحين للانتخابات البرلمانية. لكن أحدًا منهم لم يقدم برنامجًا يذكر .
لا تعتمد الانتخابات إلا على الأسماء والألقاب والمذاهب. بعض الصور مزقتها الأيادي والبعض الآخر بقيت في مكانها فرسم المارة على الوجوه عابثين بها تحت غطاء الديمقراطية الوليدة، أحدهم أضيف له غطاء فوق إحدى عينيه كقراصنة البحر، والبعض الآخر حصل على شامات في أسفل الحنك كما هو لدى الراقصات الريفيات.. ومن كان أصلعا تم زرع الشعر الكثيف فوق رأسه ليختصرون عليه عناء الذهاب إلى تركيا لزرع الشعر كما يفعل البعض. ومنهم من حصل على لحى طويلة وعمائم سوداء علامة على توجهاتهم الساسية، في بعض الأحيان يتم استبدال العمامة برسم إطار سيارة فوق الرأس.
المروجين للأحزاب القومية حصلوا على شارب صغير كالذي يزين وجه هتلر في أيام مجده.
لم ينج من تلك الرتوش إلا ملصق واحد لامرأة أنيقة بسترة زرقاء ووجه مغطى بمساحيق التجميل من كل الألوان وشعر أسود منسدل على كتفيها. لأكثر من شهر بقي ذلك الملصق محترمًا بين تلك الملصقات التي أتخمت بالاضافات والتحوير! لم يعثر أحد على فكرة مناسبة للاستهزاء بذلك الملصق الإعلاني. ما عدا حجاب أسود تم رسمه فوق رأسها ليغطي الشعر وأعلى صدرها.
لم يعتد أحد على المزاح مع النساء. ففضلوا نزعه من الجدار وإلقائه بعيدًا عن المعترك السياسي.
أتطلع غالبا لتلك الملصقات لأنها تضحكني، فلكل مرشح نصيب من تلك اللمسات الفنية، ذلك الفن العفوي الذي ينتجه سكان الحي وهم يمرون بمحاذاة الجدار الكونكريتي.

رن هاتفي الجوال رنة قصيرة, كنت أفكر بارسال رسالة نصية إلى وسن فاذا بها تسبقني بذلك:

"أخي هادي سافر صباح اليوم إلى النجف.. أظنه سيبقى هناك لعدة أيام. تعال إلى المنزل غدًا مساء يا حبيبي".
أعلم بأن ذهابي إلى حينا أصبح شبه مستحيل. لكنه مستحيل فقط في وضح النهار, الذهاب إلى هناك في المساء قد لا يشكل خطورة. زيارة حبيبتي وقضاء الليل معها أمر يستحق المجازفة.. ويفوز باللذات كل مغامر.
سرت بضعة خطوات قبل أن أسمع هدير محركات قريبة. التفت بسرعة فإذا بها عجلات عسكرية تقترب مني، تشق الشارع المقفر متوجهة نحو أحد المعسكرات.
نظرت مرعوبًا إلى الجنود وهم يصوبون فوهات بنادقهم نحوي وأصابعهم على الزناد لا يفصل بيني وبين الموت سوى حركة بسيطة تكاد لا ترى.
تملكني الخوف وشعرت بان ساقي لم تعدان تقويان على حملي.
لوهلة توقعت بأنهم سيطلقون النار عليَ ويغادرونني بلا اكتراث، لكنهم اكتفوا بتمثيل المشهد دون تنفيذه. لم يتركوا لي الوقت لأحلم بوسن وبلقاء الغد.
دخلت إلى غرفتي المظلمة وأنا أتحسس الطاولة بيدي بحثًا عن علبة الثقاب والفانوس. التيار الكهربائي مقطوع منذ ساعات. أوقدت القنديل النفطي فانتشر الضوء الأصفر الخافت في الغرفة الصغيرة كاسيًا الأثاث البسيط برداء ذهبي اللون.

* * *

لم يترجل الضابط العثماني عن جواده، اقترب من لايارد وخاطبه بلهجة آمرة:
ـ لقد أمر حضرة الوالي تاهيار باشا بإيقاف عمليات الحفر في هذا المكان، عليكم بإلقاء المعاول في الحال والعودة من حيث أتيتم.
وجه الضابط نظرة حادة إلى لايارد وهو يتلفظ عبارته الأخيرة. لم يرغب لايارد بالانصياع لتلك الأوامر واقترب منه دون تردد:
ـ لماذا أصدر الوالي هذه الأوامر؟!
دون أن يرد على سؤال لايارد توجه بالكلام لفريق الحفارين:

ـ اسمعوا جميعكم، بامكانكم العودة إلى منازلكم، لن يعود هنالك من تنقيب في هذا المكان ولا في مكان غيره.

غادر الضابط تاركًا وراءه عشرة جنود أحاطوا بالتلال للتأكد من أمتثال لايارد ورفاقه لأوامر الوالي.
لم يتمكن لايارد من النوم طيلة الليل. كان ينتظر بزوغ الفجر بنفاذ صبر كي يتوجه إلى السراي ليطلب توضيحات من الوالي بشأن ذلك القرار الذي إن استمر لشهر أو أكثر فهذا يعني بأنه سيقضي على كل أحلامه. سينفذ المال الذي بحوزته ولن توافق اللجنة الأكاديمية في المتحف البريطاني على تمويل رجل يبيت في الموصل دون أن يفعل شيئًا.
هو يعلم بأن الوالي لم يكن واضحًا معه منذ البداية، فقد وعده حين وصوله بأنه سيقدم له التسهيلات التي يحتاجها حين تنقله بين العشائر لكنه اكتشف بأن ذلك لم يكن غير كلام في الهواء لأن الوالي لا يحكم غير جنوده وسكان المدينة فقط وما من عشيرة تمتثل لأوامره. كما أنه لا يتورع عن البطش بأهالي الموصل والقرى المحيطة بها كلما سنحت الفرصة بذلك، وإن لم تكن هنالك مناسبة للبطش فإنه يبتكرها بأساليبه الماكرة.
فقبل عام من وصول لايارد أمر الوالي أتباعه ببث إشاعة في المدينة بشأن مرض شديد أصابه وتركه طريح الفراش لا يقوى حتى على تحريك لسانه.
بث الوالي حينها عيونه في المقاهي والأسواق ليتجسسوا على ما يدور بين الأهالي من أحاديث بشأن مرض الوالي.
وحينما لم يلاحظ أي من تلك العيون الخفية علامات الحزن والتأثر لما آل إليه حال الوالي بسبب مرضه المزعوم، أمر أتباعه ببث خبر وفاته. وحينها وقعت الطامة الكبرى على رؤوس سكان الموصل. لم يصل الوالي غير أخبار البشرى والتهليل وتبادل التهاني. حتى راح البعض يوزع الحلوى وقطع السكر على الأطفال ابتهاجًا بذلك الخبر السار.

لم ينتظر الوالي كثيرًا قبل أن يفاجيء الموصليين بخروجه إليهم محاطًا بحاشيته يتقدمه الكردوس الذي يحمل راية السلطان الشاب عبد المجيد الأول. توجه من السراي حتى ساحة الجامع الكبير ذو المأذنة الحدباء ثم

عاد إلى السراي وأمر الجنود بالمثول أمامه. لم يخنه صوته المجلجل الذي رن في أرجاء باحة قصره فوق رؤوس جنود لم يجرؤا إلا على الانصات:
ـ الموصل في هذا اليوم مستباحة لكم.
انطلق الجنود بخيولهم يتسابقون نحو المدينة. فقد كان الوالي واضحًا بكلامه: مستباحة اليوم، وليس كل يوم. فعليهم إذن أن ينهبوا حتى انتصاف الليل.
لم يتركوا بابًا إلا وكسروه ليأخذوا ما وراءه. لم يفكر الأهالي حينها إلا بالحفاظ على أطفالهم ونسائهم، أما المال والغلال فقد قرروا منذ اللحظة الأولى بالتضحية به حفاظًا على أرواحهم.

انتظر لايارد أكثر من ساعة قبل أن يسمح له الحاجب بالدخول إلى الوالي.
ابتسم الوالي مرحبًا بلايارد وسمح له بالجلوس قربه. لاحظ لايارد أن الجدري الذي أصيب به الوالي منذ أعوام طويلة ترك آثارًا عميقة على وجهه، جسده البدين جعل من تلك الآثار تبدو أكثر بشاعة فوق ذلك الوجه المنتفخ ذو البشرة المشوهة.
ـ لم أرغب بإزعاجك يا حضرة الوالي, إلا أن حراسك منعوني بالأمس من المضي في أعمال التنقيب. وقالوا بأنك أصدرت أوامرك بمنعنا من العمل هناك.
ـ بالفعل، هذا ما أمرتهم به.
ـ لكنك سمحت لي حين وصولي قبل أسابيع بالعمل هناك, وقد وعدتني بتقديم العون إن احتجت له!
ـ نعم، أنا لا أنكر ذلك لكن الظروف تغيرت الآن.
ـ الظروف؟ عن أي ظروف تتكلم؟!
ـ بالأمس زارني المفتي وثلة من رجاله وأكدوا لي بأنك تنبش مقابر المسلمين وتدنس حرماتها. لذا قررت وقف العمل لمدة ريثما تهدأ العامة. لا تقلق قد أسمح لك بمباشرة عملك في وقت لاحق.
ـ لكن هذا كذب وافتراء! أنا لم أتعرض لمقابر المسلمين. وما الذي يمكن أن أعثر عليه في تلك المقابر؟
ـ وما الذي ستعثر عليه في التلال إذن؟!

ـ هي.. هي كما قلت لكم في السابق؛ أطلال مدن قديمة سننظم منها معرضًا في لندن ثم نعيدها إلى هنا بعد ذلك... هذا كل شيء.
ـ طيب... إن كان هذا الأمر يستحق العناء، ما عليك إلا الإنتظار.

خرج لايارد يحث خطاه نحو منزله الصغير قرب تلال التمرود. لم تكن كلمة الإنتظار غير طعنة نجلاء صوبها الوالي إلى صدره فنفذت نحو أعماق جسده. كيف له أن ينتظر وهو يعد الأيام لينهي العمل ويرسل أولى لقياته إلى لندن؟
كيف سيرضي اللجنة ويحصل على المال اللازم وهو جالس في بيته ينتظر. كيف سيفلح في الحصول على الآثار قبل منافسه أميل بوتا, إن كان هو محكوم بالإنتظار وبوتا ماض في تنقيباته من دون مضايقات.

11

مررت بمحاذاة بيتنا وأنا في طريقي إلى وسن, كان مظلمًا كأنه منزل أشباح.. منذ مغادرتي للمنزل وأنا محتفظ بالمفتاح في جيبي وأحمله أينما حللت. يمنحني ذلك المفتاح شعورا بالطمأنينة.

للحظات تسائلت إن كنت سأورث هذا المفتاح لإبني من بعد. وإن كان سيلجأ هو الآخر لبعض الأشياء ليمنح نفسه شعورًا مفقودًا. دخلت المنزل وأنا أسير على أطراف أصابعي كأنني أدخل دار أغراب لأسرق أموالهم.
صرير الزجاج تحت قدمي أعاد إلي ذكرى هروبنا من المنزل. يبدو أن قطع الزجاج لا تزال متناثرة في كل مكان. فضلت عدم إشعال النور كي لا يكتشف أحد أنني في الداخل.
في بيتي لا أحتاج للإنارة فأنا أحفظه عن ظهر قلب. هو المكان الوحيد الذي لا أخشى أن أصاب فيه بالعمى. صعدت إلى غرفتي وتمددت على سريري الناعم. رن هاتفي فأجبت بسرعة كي لا يسمعه الجيران:
ـ أين أنت يا سالم.. تأخرت!
ـ لم أتأخر.. أحزري أين أنا الآن.
ـ يبدو أنك في بيتكم.
ـ كيف عرفت؟!
ـ لا يحتاج ذلك إلى الكثير من الذكاء.
ـ ما رأيك أن تأتي أنتِ إلى هنا.
ـ أنت مجنون يا سالم.. تعال بسرعة ولا تضيع الوقت. أخرج قبل أن يلاحظ أحد وجودك.
أخذت معي ألبوم صوري قبل أن أغادر المنزل. فكرت بالاتصال بوالدي لأسأله إن كان بحاجة لشيء ما من المنزل لكنني آثرت عدم فعل ذلك كي لا أقلقه.

جلابيتها السوداء الضيقة أثارتني وحركت كل الأحاسيس النائمة. كانت تنتظرني لنتعشى سوية. دخلنا سوية إلى المطبخ لنسخن الطعام استغليت بطء نار طباخها لأسخن جسدها بقبل توزعت بين شفاهها ورقبتها العاجية. لوهلة تمنيت لو لم يبق في هذا العالم غيري أنا وهي فقط. كنت شهيتي مفتوحة لكل شيء. للطعام والشراب والحب والسرير.. كنت متعطشًا لكل لذة يمكن أن أعبر بها إلى ضفة ثانية لا أرى فيها غير وسن وهي تغفو بأحضاني دون خوف من الغير.

لم أفكر بسؤالها عن هادي كي لا أعكر صفو سعادتي القصيرة. تركت شعرها الأسود ينسدل ليغطي بوفرته كتفيها الناعمين. أنهيت طعامي بسرعة طمعًا بضمها إلى صدري حتى الصباح.
ـ دعني أعد لك الشاي.
ـ وأي مجنون يفكر الآن بالشاي.
سحبتها نحوي بقوة ولثمتها بقبلة تمنيت ألا تنتهي. تذوقت طعم فمها دون أن أرتوي.. بقيت أرتشف رحيقًا شديد الدفء والعذوبة. داعبت ظهرها النحيل ونزلت يدي إلى ردفيها. لم تكن ترتدي ملابس داخلية تحت ثوبها. شعرت بها تفقد توازنها. عانقتها بقوة كي لا تفلت من بين يدي. سحبتها نحوي بقوة لأضغط ثدييها الريانين على صدري, شعرت برعشة كهربائية تنطلق من نهديها لتنتشر في جسدي المهتاج.
لم نكن بحاجة للسرير. الأريكة التي تناولنا عليها العشاء اتسعت لنا ليأكل أحدنا الآخر.

شربنا الشاي في الفجر كي ندفع بالنعاس بعيدًا عنا.
ـ ما هذا الأثر الأزرق على كتفك؟ هل تشاجرت؟!
ـ كلا.. أنه أثر ضربة من سلسلة خلال أحد المواكب الحسينية.
ـ ماذا؟! أنت تضرب زنجيل!! منذ متى؟
ـ ربما هو تكفير عن الذنوب.. هذا الضربة ستحطم جبل صعودًا في جهنم.

شاركت وسن سريرها لأشبع جسدي من عطرها الذي أود أن يعلق بي طوال العمر. أخذتنا غفوة قصيرة عند طلوع النهار.

سمعت أصوات المنشدين الذين يقرؤون القصائد الحسينية بنغمة جنائزية. لوهلة تصورت بأن تلك القصائد تنبعث من خارج المنزل.. فتحت عيني لأرى وسن وهي تغير ثيابها وتعدل هيئتها أمام المرآة الكبيرة التي تتوسط الغرفة, تلصصت علينا هذه المرآة بالأمس ونحن في أجمل أوضاعنا تلاحما.
ـ هل هذه اللطميات تنبعث من منزل الجيران؟
ـ أشش. لقد عاد هادي قبل قليل.

ـ ماذا؟!! ألم تقولي بأنه....
ـ أششش. خفض صوتك.
ـ لا تقلق هو لا يدخل غرفتي إلا نادرًا.

ارتديت ملابسي دون أن أخرج من تحت غطائها الناعم. حاولت جاهدًا ألا أظهر لها بأنني خائف مما قد يصيبني إن اكتشف هادي وجودي. لن يكون أمامه غير إفراغ مسدسه برأسي. ربما سيبتر قضيبي قبل قتلي. لن يغير ذلك الكثير فأنا ميت لا محالة إن سمع صوتي.

أخبرتني وسن مسبقًا بأنه يترك تلك الأناشيد تدوي في المنزل ما إن يدخل وحتى قبل أن يخلع حذاءه. كأنه لا يطيق المنزل دون أن يبخره بتلك الأناشيد.
لكن القصائد الحسينية تحولت هذه المرة إلى أناشيد حربية:

الخايف خل يتكتر جيش المهدي اتحضر
احنة سباع ونقدر واليوصلنة انقص رجليه

ليهبط داعش وينة والله لأكسر عينة
هاي الرجال الزينة مرقط لابس والبيرية

خرجت وسن لتجلس مع هادي كي لا يشك بشيء. لم يطل انتظارها لتعرف السبب وراء هذا التغيير:
ـ سأغادر غدًا عند الفجر مع مجموعة من رفاقي. ربما سأغيب لأسبوعين أو ثلاثة.
ـ أين تنوي أن تذهب؟!
ـ إلى تكريت. صدرت بالأمس فتوى من قبل المرجع الأعلى بوجوب جهاد داعش..
ـ لكنك لست عسكريًا!
ـ لا يهم، الفتوى لا تستثني أحدًا. أصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم.

عادت إلى غرفتها دون أن تناقشه. جلست على سريرها قربي. لم تفلح بإخفاء حزنها, أمسكت بيدها لأشعرها بالطمأنينة. كنا نسمعه يتحرك في أرجاء البيت وهو يجمع أغراضًا شخصية قد يحتاج إليها هناك.
أحاسيسها مكشوفة أمامي. نظراتها وأفكارها مشتتة بيني أنا وأخيها.
وددت لو تسمح لي الظروف لأقنعه بأن يتطوع بصفوف الجيش إن كان يرغب بقتال داعش بدلًا من تكوين قوة مسلحة تابعة لرجال الدين. لكن كيف سأبرر له أولًا وجودي هنا في غرفة أخته قبل أن أناقشه بهذا الأمر.
أما وسن فهي ترثي لحال أخيها هادي الذي سيتوجه في الغد إلى ساحة الموت انصياعًا لكلمتين صدرتا من مرجع لا يقوى على عصيانه، أو فصل مصيره عنه.
غالبا ما حاولت وسن إقناعه بأن يغير أصدقاءه، ولطالما ذكرته بأنه حاصل على بكالوريوس في الفلسفة ولا يحق له أن يتصرف بهذه الطريقة، إلا أن نداءاتها ترتد إليها بعدما تصطدم بالجدار الصلب الذي تدرع به.
انتشلت كتابًا عن جغرافية العراق من رفوف مكتبتها الصغيرة، لونت المحافظات الخاضعة لسيطرة داعش بالقلم الرصاص. استحالت تلك البقعة المترامية الأطراف إلى غيمة سوداء غطت الخارطة ... شعرت ببرد يشل أقدامها حينما اكتشفت بأن ذلك السواد يتجاوز بمساحته ثلث البلاد.
صور الإرهابيين على التلفاز وهم يحملون رايات سوداء وآخر كتبوا عليها "قادمون يا بغداد" سببت لها أحلامًا قلقة وغفوات متقطعة.

شعرت برعب يشل أوصالها وهي تستمع لأخبار المعارك التي لا تعرف هدنة. خوف جليدي يغلف قلبها حينما تعرض عليها صور الحرب في نشرة الأخبار. تنزوي في غرفتها هربًا من شبح الموت لكن الصوت يلاحقها حتى لو اندست تحت سريرها. يترك هادي صوت التلفاز عاليًا فيصبح المنزل غرفة بث أخبار نهاية العالم.

خرجت من غرفتها من جديد بخطى سريعة متوجه صوب هادي:
ـ ألا تسمع ما يقال في التلفاز، أم تراك تسمع دون أن تفقه شيئًا؟
ـ ماذا بكِ؟ لماذا ترفعين صوتك هكذا؟!

ـ ألا ترى؟ ها هي الحكومة تعلن عن الاستعداد لبدء عملية تحرير الأنبار وتكريت. دع الجيش يتولى ذلك.
ـ الجيش يرغب بتحرير الأرض فقط. أما نحن فسنقضي على دولة داعش اللا إسلامية.
ـ ألن يفعل الجيش ما تسعى إليه أنت ورفاقك؟!
ـ قد يتوقف الجيش عند الحدود لكننا لن نتوقف هناك سنطاردهم أينما حلوا، حتى لو عبرنا حدود العراق.
ـ قد تموت قبل أن تحقق ذلك.
ـ لن يموت من يكتب على جبينه لبيك يا حسين.

* * *

وضع هرمز يده على كتف لايارد مواسيًا:
ـ لا عليك، لن نتوقف سوى ليوم أو ليومين فقط. يلتقط خلالها الحفارون أنفاسهم، وبعدها ننطلق في العمل أسرع مما تتخيل.
التفت هرمز نحو بقية رفاقه ليؤيدوه في الكلام وحينها التقت عيناه بعيني عبد طاووس تذكر ما اقترحه عليه ذلك الحفار اليزيدي قبل أيام.
ـ يبدو أننا لن نخسر الوقت، هنالك مقترح من رفيقنا عبد طاووس قد ينفعك.
ـ ما هو؟
ـ لقد أخبرني بأنه احتمى بمغارة في أحد الجبال حين هروبه من سيوف بدر خان الكردي ورجاله عندما أغاروا على قريته, بقي مختبأً في تلك المغارة ليوم كامل واكتشف حينها بأنها ممر لكهف كبير يضم بداخله تماثيل ضخمة وألواحًا كبيرة مليئة بالنقوش والكتابات الغريبة.
ـ هل هذا صحيح يا طاووس، هل رأيت ذلك؟
ـ نعم, وقد لمستها أيضا بيدي هاتين يا سيد لايارد.
استبشر وجه لايارد بهذا الخبر وطلب من هرمز وطاووس أن يصطحباه في الحال. إلا أن عبد طاووس آثر أن يتوجها عند الفجر لأن الطريق سيستمر لأكثر من أربع ساعات.

رفض هرمز أن يقدم القهوة للايارد خشية أن تحرمه من النوم فقد أصيب لايارد بأرق منذ أيام:
ـ عليك أن تنام هذه الليلة، حاول ألا تفكر بشيء.
ـ هذا غير ممكن، كيف لي ألا أفكر بشيء؟
ـ طيب، خذ هذا الكتاب. إنه العهد القديم, أعلم بأنك تحبه. اقرأ بعض صفحاته. قد يساعدك على النوم.

قبل أن تشرق الشمس كان لايارد قد لبس ثياب سكان القرى الموصلية واستعد للانطلاق نحو ذلك الكهف الذي حرمه من النوم طيلة الليل. قرأ سفر التكوين، وحينما انتهى من قراءة سفر الخروج نهض من سريره ليخرج.
ـ هل نمت جيدا؟
ـ ربما أكون قد نمت قليلًا يا هرمز.
ـ ألا تدري إن كنت قد غفوت أم لا؟!

انطلقوا نحو ذلك الكهف الذي يقع خلف جبل سنجار، لم تكن تلك المنطقة آمنة في ذلك الحين لأن زعيم الأكراد بدرخان استولى عليها وأباد اليزيديين وأعلن انفصاله عن سلطة الباب العالي ليشكل إمارة مستقلة عن راية السلطان عبد المجيد الأول.
حينما انتشر ضياء الشمس انعكست ألوان الخضرة المتلألئة التي كست الأرض بثوب من حرير زمردي تحت سماء فيروزية.
كان لايارد مسحورًا بذلك الهدوء وهو يراقب قطيع الغزلان البرية التي تعدو بين الوديان وتلك الطيور التي تحلق فوق رؤوسهم لتطرز بزقزقتها وشاح الغيوم الناعمة التي حمت رؤوسهم من أسهم الشمس الحارقة.
توقف لبرهة وسحب نفسًا عميقًا وهو مغمض العينين، كان مأخوذًا بسيمفونية الجداول التي لحنت بخريرها أغنية عجزت سماء لندن الممطرة عن الإتيان بمثلها.
بعد مسيرة ساعتين اقتربوا من قرية صغيرة تربض على إحدى جوانب جبل سنجار الذي يفصل بين الموصل وأرض الأكراد.

لم يكن لايارد يرغب بالدخول إلى تلك القرية خشية إضاعة الوقت، إلا أن عبد طاووس أصر على المرور بتلك القرية عله يعثر على أحد من أفراد عائلته نجح هو الآخر بالفرار من سيوف بدرخان ورفاقه.
لم يكسبوا من تلك الزيارة غير القليل من أرغفة الخبز التي أصرت إحدى النساء على منحها إياهم, متعاطفة مع عبد طاووس عندما علمت بأنه فقد عائلته وأقربائه. أخبرته بأنها آوت بعض النساء اليزيديات وأطفالهن لعدة ليال لكنهن آثرن بعد ذلك الرحيل لأن سيوف بدر خان لم تكن بالبعيدة عن هذه القرية.

لم تبد المغارة من بعيد غير فوهة صغيرة بين صخور جبلية قاسية. فوهة بهيئة غير مطمئنة. لا يفكر بدخول تلك المغارة الضيقة غير رجل يسعى للهروب من الموت.
قادتهم تلك المغارة الضيقة إلى كهف واسع يحتوي على تماثيل ضخمة لملوك أشوريين وألواح كبيرة ملاصقة للتماثيل نحتت عليها كتابات مسمارية, فاستنتج لايارد بأنها ترتيب نسب كل ملك من الملوك مع شجرة العائلة ومنجزاته خلال فترة حكمه. أدرك لايارد بأنه أمام كنز لا يقدر بثمن قد يقلب لندن ويحرك البريطانيين من أقاصي حدود الامبراطورية للمجيء لزيارة اكتشاف كهذا إن تم عرضه في المتحف البريطاني.
شعر بسعادة عظيمة وعانق عبد طاووس بحرارة.
أحس عبد طاووس بحرارة ذلك العناق الذي أعتبره كمؤاساة له عن أهل لم يعد يعرف لهم أثر. فمنذ هروبه من قريته لم يعانقه أحد بصدق كما فعل لايارد. تمنى حينها أن يطيل لايارد العناق, لكن خجله حال دون طلب ذلك.

لم يرغب لايارد بمغادرة الكهف إلا أن فكرة العودة إلى هنا في فجر الغد هونت عليه الرحيل. لم يكن في رأسه غير لهفة العودة السريعة إلى هذا الكهف في فجر الغد بصحبة رفاقه الحفارين ودفتر مدوناته كي ينسخ النقوش المسمارية على دفتره ويرسله فيما بعد إلى اللجنة الأكاديمية في لندن. تصور بأن اللجنة الأكاديمية لن تبخل عليه بما سيطلب من مال لمواصلة حملته ما إن تطلع على محتوى تلك المنحوتات الضخمة.

* * *

شعر لايارد بالارتباك وهو يمر بنفس الطريق الذي سلكه باأامس قاصدًا كهف أحلامه. كان الطريق بالأمس يسلب الألباب بسحر ألوانه مع موسيقى الجداول المتناغمة, كان يبعث بالطمأنينة والصفاء، إلا أنه اليوم يثير الخوف والوحشة:
"ما الذي تغير؟ من أين أتت تلك الصخور التي رميت في الجداول لتخنق ألحانها وتستبدلها بهذه الأصوات المتكسرة؟ وأين هي تلك الغزلان البرية التي كانت تعدو أمامنا كحارس أمين؟!".

غابت ألوان الأعشاب المخضوضرة تحت كساء رمادي اللون كأنه أتى من نيران أوقدت من بعيد. توجه سرب الطيور بعيدًا عنهم وأكتسح الغيوم دخانًا لوث السماء وخنق صدورهم.
كاد قلب لايارد أن يتوقف وهو يرى الصخور التي تحيط بمدخل الغارة وقد تناثرت يمينًا ويسارًا كأن قنبلة فضت بكارة تلك المغارة التي سحرته بالأمس بعذريتها.
جذبت أنظاره راية سوداء ترفرف قرب مدخل الكهف. التفت نحو هرمز ولسانه لا يكاد يسعفه ليسأله عما يراه أمامه.
ـ أظنها راية المفتي وأتباعه يا لايارد. يبدو أنهم سبقونا إلى هذا المكان!

شعر بالذنب وهو يرى الدمار الذي حل بتلك الكنوز. لوهلة تصور بأنه هو السبب وراء تلك الخسارة الكبيرة. طمأنه هرمز بألا علاقة له بذلك وإنما هو التعصب الذي يدفعهم لارتكاب تلك الجرائم لأنهم يعتبرونها أصنام كفر وإلحاد.
ركض في عمق الكهف. تعثر بصخور تناثرت بفعل الإنفجار. بحث في الزوايا وبيت الأنقاض آملا أن يعثر على آثار نجت من فؤوسهم. لم يعثر بالداخل على التماثيل ولا تلك الألواح الضخمة. لم ير أمامه، أو تحت

قدميه غير بقايا وشظايا تماثيل تكسرت تحت الفؤوس على يد مفتي الموصل وأتباع مذهبه.

12

كنت في إحدى الخزائن أدقق بشأن بعض القطع الأثرية التي كانت أرقامها والمعلومات الخاصة بها موجودة على الأوراق فقط دون أن أعثر عليها في الخزائن.

بحثت في صالات المخازن الثانية لأن الترتيب قد يكون عشوائيًا في بعض الأحيان دون احترام الترتيب الزمني للحقب التاريخية التي تنمتي إليها تلك القطع. لم أجنِ من ذلك البحث غير تراب غطى يدي وتناثر على رأسي.
خرجت من الخزانة متوجهًا إلى مكتب المدير الذي لا يحضر إلا نادرًا.
طرقت باب المكتب بشدة, سمعته يتحدث بالهاتف ومن جديد بشأن تفاصيل بناء منزله.
دفعت الباب بقوة ودخلت:
ـ كيف تدخل بهذه الطريقة يا سالم!! ماذا تريد؟
ـ طلبت مني أن أتكفل بمهام معينة وها أنا هنا لنتحدث بشأن تلك المهام..
ـ عن أي مهام تتكلم؟
ـ بالطبع لا تذكر فقد يكون هذا آخر ما يشغل بالك. هنالك آثار مفقودة من الخزائن. هل يمكنك أن تقدم لي ايضاحات عن هذا النقص.
ـ ومن أنت لتوجه لي هذه الأسئلة؟! أنا مديرك وليس العكس أفهمت أم لا؟ ثم من تظن نفسك, مدير هيئة النزاهة؟ اخرج من المكتب وسأتفرغ لك فيما بعد.
ـ لن أخرج قبل أن تجيبني. هنالك صناديق مفقودة, أين هي؟
ـ أنت تعلم بأن المتاحف تعرضت للنهب والتخريب عند الاجتياح الأمريكي. لماذا أنت متفاجئ بشأن غياب الآثار الآن؟
ـ أنا متفاجئ لأن الآثار التي أبحث عنها تم تسجيلها في عام ٢٠٠٥، أي أنها بقيت في المتحف بعد الإجتياح الذي تتكلم عنه. فأين هي الآن؟
ـ يا سالم, هنالك سوء فهم.. القطع التي تقصدها موجودة بحيازة المتحف الوطني وقد تم نقلها إلى هناك لتخضع للجنة فنية تسعى ل....
ـ وأين هي الأوراق الخاصة بقرار نقل القطع إلى هناك؟ أين هو الطلب الرسمي بذلك؟ من الذي قام بنقلها ومتى؟ وما هو موعد...
ـ سالم.. سأريك غدًا كل الأوراق الرسمية التي ترغب بالاطلاع عليها.. سنكمل حديثنا في الغد. واضح؟
ـ ولماذا لا تريني الأوراق الآن.. ما الذي يمنعك.. لماذا غدا؟
ـ لأن الملف الذي تسأل عنه موجود مع مساعدي وقد غادر قبل قليل.
ـ غادر ونحن في الساعة الحادية عشر صباحًا!

ـ وما شأنك أنت. لقد استأذن مني قبل أن يذهب. تعال غدًا وسأريك الأوراق التي تسأل عنها. هل هذا واضح؟
ـ لكنك تعلم بأن غدًا سيكون عطلة, وستستمر هذه العطلة لأسبوع بسبب العاشر من محرم.
ـ آه فعلا, لقد نسيت.
ـ لا والله لم تنس. كيف تنسى وقد أمرت الحارس صباح اليوم أن يضع راية سوداء على مدخل البناية؟! سأعود إليك وأنصحك بأن تضع حينها الأوراق الرسمية أو القطع بعينها على مكتبك هذا.

أعلم بأنه يكذب وقد يكون متورطًا بعمليات تهريب الآثار لكنني لا أمتلك أدلة كافية ضده. هو يحاول أن يكسب الوقت وقد يستعين بشركائه ليتخلصوا مني أو ليصدروا أوراقًا مزورة بشأن القطع المفقودة. لكنني لن أتركه يسرق هكذا بلا حساب.
عدت أدراجي إلى مكتبي فوجدت كيسًا أسود يحتوي على شيء ما بداخله. لم يكن أحدًا في المكتب حين دخولي. قد يكون قنبلة وضعها المدير أو أحد شركائه ليتخلصوا مني! لكن لأظنهم قرروا تصفيتي بهذه السرعة, هذا غير ممكن! ثم إنهم لن يقوموا بعملية كهذه في داخل هيئة الآثار!
اقتربت بهدوء وحذر نحو ذلك الكيس ومددت يدي المتربة لأفتحه بتردد بأطراف أصابعي. رأيت جزءًا من قنينة بلاستيكية من وراء الكيس. لم يكن هناك ما يثير الخوف. أخرجت القنينة من الكيس وحملتها بيدي متسائلًا عن سبب وجودها هنا. لم تكن غير قنينة تحتوي على ماء عتيق مخضر اللون لم أفهم سبب وجوده أمامي.
دخل رياض إلى المكتب:
ـ أين كنت يا سالم بحثت عنك في كل مكان.
ـ ما الأمر يا رياض؟
ـ أرجو ألا تكون غاضبًا مني بسبب ما قلته لك. أنا آسف, لم أكن أقصد أن...
ـ لا تقلق بهذا الشأن نحن إخوة وأصدقاء. أنا بالفعل غاضب لكن ليس بسببك.
أشار بيده إلى قنينة الماء:

ـ اختصرت عليك عناء الطريق, وبعثت بأخي الأصغر ليجلبه لك.
ـ ما هو؟
ـ الماء الذي أعده لك السيد؟
ـ آه, لقد نسيت...
ـ نسيت؟ أعرف بأنك لم تكن تنوي الذهاب للبحث عنه. لا تنس ما قاله لك. السبت عند الغروب و...
ـ أعرف بقية التفاصيل.

* * *

لم أرغب باستخدام ذلك الماء لكن تلك الرفسة النجلاء التي تلقيتها على ظهري خلال كابوس الأمس جعلتني أفكر مليًا باللجوء إليه.
سحبت قنينة الماء من أعلى خزانة الملابس فنزل مع القنينة القليل من الغبار, فركت عيني لأتخلص من التراب الذي نفذ إليها من سقف الخزانة الخشبية.
جلست على حافة السرير وأنا أنظر إلى الماء الذي اكتسب لونًا أخضر باهتًا. رججت القنينة فتحرك من قعرها فتات صغيرة خضراء وصفراء اللون. استمرت بالدوران لثوان ثم استقرت في القعر من جديد.
انتظرت قليلًا ريثما ركدت المحتويات في القعر. فتحت الغطاء الأزرق وشممت رائحة ذلك الماء الغريب...
ما الذي يضمن لي بأن هذا الماء لا علاقة له بالسحر والشعوذة؟ ماذا لو استحممت به وأصابني الجنون. مالذي سينفعني حينها؟ هل سيصطحبني حينها رياض من جديد إلى ذلك السيد كي يخلصني من جنوني أم سيرميني في مستشفى المجانين ويغادرني؟
قد لا أجد حينها من يشفق علي لأنهم سيقولون بأنني توجهت بقدمي باحثًا عن جنون مؤكد بدلًا من الهرب منه. وما المشكلة؟ قد يكون الجنون هو خلاص لي مما أنا فيه.

سحبت القنينة نحو أنفي مرة ثانية واستنشقت رائحة الماء لكنني لم أعثر على رائحة تذكر.

لماذا انا مندهش هكذا؟ إنه أمر طبيعي فالماء لا لون له ولا رائحة... منذ متى وللماء رائحة؟! لكن هذه المواد الغريبة التي تسبح في القنينة، لماذا لم تمنح لهذا الماء رائحة ما؟!
ما هو السر الذي وضعه ذلك الرجل بهذا الماء؟ أشياء لها القدرة على طرد الكوابيس أو كما قال طرد الجن!...
جن قديم، هههه... وهل هنالك جن ولد بالأمس؟
لكن كيف عرف أسم أمي؟!.. آه، كم اشتقت إليك يا حبيبتي... منذ أن غادرتِنا وحتى اللحظة وأنا لا استوعب فكرة انتقالك إلى عالم الأموات. لم أشبع من نور وجهك كفاية قبل أن ترحلي عنا.
لا أستطيع أن أستسلم لفكرة موتك. بل حتى لا أطيق هذه الفكرة عندما يتعلق الأمر بكِ. كنتِ امرأة عظيمة، كيف لبشر عظيم أن يتفسخ في التراب؟!
كان علي أن أسأل السيد عنكِ عندما ذكر أسمك لكنني تفاجأت بذلك، لم أكن أتوقع سماع اسمك في تلك اللحظة. شعرت بالارتباك ولم أتمكن من الحديث بشأنكِ أمامه.. حبيبتي أمي، أصبحت معروفة عند السادة والشيوخ.
قد يكون ذلك السيد يمتلك فعلًا قدرات ما ورائية. في الحضارات القديمة التي درستها كان هناك وجود حقيقي للسحر والكهنة.
قد لا أكون مخطئًا باللجوء إلى السحر، حتى الخليفة المعتصم استشار المنجمين قبل أن يتوجه لفتح عمورية... لكن الزمان غير الزمان ولا المكان نفس المكان...
ما حدث مع غيري قد لا يتكرر بالضرورة معي.

رفعت القنينة المفتوحة نحو فمي لأتذوق طعم الماء بطرف لساني. لم أشعر بطعم مميز فتجرأت وشربت جرعة صغيرة منه.
أغلقت القنينة وأعدتها إلى مكانها وخرجت لشراء بعض الحاجيات من البقال. نزلت إلى صالة الاستقبال وتقدمت نحو الموظف لأترك مفتاح الغرفة عنده:
ـ ربما سأتأخر بالعودة لأنني سأزور صديق لي في العمل، لا تنم قبل أن أعود كي أجد من يفتح الباب لي.

لاحظت أن الموظف أرجع رأسه إلى الوراء عندما كلمته. تغيرت ملامحه وانقبض وجهه. وبحركة لا إرادية، وأنا خارج، رفعت راحة كفي نحو فمي ونفثت القليل من الهواء فاخترق انفي رائحة عفنة!
كأنها ضربت دماغي فتراجعت قليلا إلى الوراء لشدتها.
ـ يا إلهي كأنها رائحة كلب ميت تخرج من فمي!!! ما هذه الرائحة الكريهة؟!

رجعت إلى غرفتي راكضًا. انتشلت فرشاة الأسنان، وغطيتها بكمية كبيرة من معجون تنظيف الأسنان وبدأت أفرك بقوة.
تمضمضت بالماء وأنا أنظر في المرآة إلى وجهي القلق. استنشقت الهواء الخارج من فمي فلاحظت أن الرائحة الكريهة لا تزال موجودة، لكنها أقل حدة هذه المرة.
نزلت مسرعًا دون أن أحاول الكلام مع أحد وتوجهت إلى بسطية صغيرة لبائع متجول يفترش الرصيف المقابل للفندق. أخذت من بين البضائع القليلة المعروضة علكة بنكهة النعناع متحاشيًا أن أفتح فمي وأقول كلمة للبائع.
رميت العلكة بسرعة في فمي واستدرت مبتعدًا لبضعة خطوات، ناداني البائع:
ـ ها... خوية, وين الفلوس؟!
ـ آه، آسف، لقد كنت على عجل فنسيت.
ـ من تاخذون ما تنسون.. بس بالدفع تسوون نفسكم ناسين.

توجهت نحو منزل رياض لأعاركه. لم أتوقف عن مراقبة وجهي على زجاج السيارات التي مررت بجانبها. كنت أخشى أن تكون ملامحي قد تغيرت بفعل تلك الخلطة الغريبة:
ـ مالذي دهاني؟ كيف يمكن لذلك الماء أن يغير ملامحي؟! هل هو مثل تلك التركيبة التي يمكنها أن تحول الإنسان الطيب إلى رجل شرير عند حلول المساء؟ لقد بدأت أهذي من جديد. جل ما يخيفني هو أن تبقى هذه الرائحة العفنة في فمي لمدة طويلة.

تهلل وجه رياض ما إن رآني أمامه:
ـ الله جابك، كنت للتو أنوي أن آتي للبحث عنك في الفندق.
ـ أنا أيضًا أبحث عنك، اسمع...
ـ اسمعني أنت أولًا، لدي خبر سيفرحك. تعرف ابن عمي أبو حيدر.
ـ كلا، لا أعرفه.
ـ ما بك يا سالم؟! لقد حدثتك عنه قبل أيام!
ـ نعم، حدثتني عنه لكنني لا أعرفه.
ـ طيب.. سيسافر أبو حيدر عن قريب إلى السويد. سيطلب اللجوء هناك.
ـ لم أفهم, لماذا تظنني سأفرح بذلك؟!
ـ سيبقى بيته فارغًا ريثما يحصل على أوراق الإقامة. وكما تعرف قد يستغرق الأمر سنة أو أكثر. وكي لا يبقى منزله خاليًا فتستولي عليه أحد الأحزاب أو المليشيات, طلب مني أن أعثر له على شخص أثق به ليشغل البيت ريثما يعود.

شعرت بفرحة تغلبت على غضبي. كنت بحاجة ماسة لمنزل مستقل أسكنه دون المرور بموظف الإستقبال لتسليم المفتاح كل صباح وأبقى قلقًا من احتمال أن يعبث عامل التنظيف بأغراضي.

* * *

انتهى شهر نيسان من عام ١٨٤٨؛ الطوافات الخشبية تنتظر وصول أميل بوتا وحمولته من القطع الأثرية. لم يتعب رفاق بوتا هذه المرة كما حدث لهم في المرة السابقة. فكرة بوتا بتقطيع التماثيل إلى عدة أجزاء أو إحداث تجويف في أجسادها كانت فعالة بشأن تخفيف الوزن.
انسابت العربات بلا مشقة بين البساتين القريبة من الموصل حتى بلوغهم مجرى نهر دجلة. ستكون المهمة في غاية البساطة من بعد ذلك لأن تيار الماء في دجلة سيتكفل بنقل الطوافات حتى الخليج.
لم يتأخر بوتا بإرسال برقية مستعجلة إلى القنصلية الفرنسية في البصرة ليخبرهم باقتراب موعد وصوله محملًا بكنوز أرض الموصل..

أعدت القنصلية الفرنسية سفينة صغيرة لتحمل المنحوتات حتى ميناء مرسيليا, تمامًا كما حدث في المرة السابقة.
يبدو القلق على الرجال السبعة الذين كانوا بانتظار بوتا على حافة النهر:
ـ مسيو بوتا عليك أن تتريث قليلًا، هذا ليس بالوقت المناسب لركوب النهر.
ـ ماذا تقول يا طعمة؟! لماذا؟
ـ نحن في شهر أيار، في هذا الشهر من السنة يرتفع منسوب المياه.
ـ لكنني لا أرى ذلك!
ـ لا يمكنك أن تلاحظ ذلك في الموصل لأنها منطقة مرتفعة.. انتهى فصل الشتاء ومياه الثلوج تذوب وتنحدر من الجبال نحو حوض النهر.. كلما نزلنا مع النهر جنوبًا سيرتفع مستوى الماء.
ـ وما المشكلة؟!... فاليرتفع مستوى الماء.
ـ مسيو بوتا... لن يكون بمقدورنا السيطرة على الطوافات مع تسارع جريان الماء.
ـ اسمع يا هذا، مهما تسارع جريان الماء فهو سيأخذنا إلى الجنوب.. إلى البصرة، وهذا ما أريد.. إن كان التيار سريعًا فهذا أفضل لأنه سيختصر علي الزمن.. إن كنت غير قادر على التكفل بهذه المهمة البسيطة بإمكانك المغادرة وسأجد من يحل محلك أنت وأبناء عمك.

نظر طعمة إلى أبناء عمه الذين لم يصدر منهم أية كلمة، أدرك بأنهم تركوا القرار له وحده. أذعن طعمة يتبعه أبناء عمه لإلحاح واصرار بوتا.. لم يكن يرغب بخسارة المال الذي سيحصل عليه من القنصل الفرنسي.
إن أصر هذه المرة على الرفض فذلك يعني بأنه يضحي بعمله مع بوتا وإلى الأبد.
ساعد طعمة الحفارين بتحميل الصناديق فوق الطوافات الخشبية.
تنتهي مهمة الحفارين بعدما يستخرجون القطع الأثرية ويقومون بإيصالها إلى حافة نهر دجلة، عادوا أدراجهم بينما بقي طعمة وأبناء عمه برفقة بوتا.

ـ اسمع يا طعمة.. أنا أفهم قلقك، ربما هو مبالغ به قليلًا. سيرتفع منسوب المياه لكنني سأعتمد عليك أنت وأبناء عمك في الحفاظ على توازن الطوافات.. أليس كذلك؟... هل أعتمد عليك؟
ـ إن شاء الله.
ـ لا تقل هذا. كلمني عنك أنت.. هل أعتمد عليك؟
ـ طيب.. اعتمد علي. وسيفعل الله ما ير..
ـ طعمة.. يكفيني ما قلت في بداية جملتك، لا تضف شيئًا.

القرنة هي المنطقة التي يلتقي بها نهرا دجلة والفرات ليشكلا بالتقائهما شط العرب.. مسار النهرين في هذه المنطقة غير منتظم. تتلاطم المياه هناك وتشكل دوامات مجنونة قبل أن تقرر المسير نحو شط العرب لتسترد هدوئها من جديد عند اقترابها من الخليج. حوض الخليج يعيد الهدوء لكل من يمر به.

"جلس الغريب, يسرح البصر المحير في الخليج
ويهد أعمدة الضياء بما يصعد من نشيج"

أذعن طعمة أمام إلحاح بوتا لأنه اعتمد على هدوء الخليج الذي تعوده. فهو يخاف الله لأنه إن غضب يحيق العذاب بهم؛ لكن طعمة يسرق من الخليج لؤلؤه وهو ينظر إليه مبتسمًا..

لم يكن بوتا مقتنعًا بتحذيرات طعمة لأنه في المرة السابقة صادف مروره في فصل الصيف مسبوقًا بشتاء خال من الأمطار فانخفض مستوى المياه بشكل كبير وبرزت حينذاك الكثير من التكدسات الطينية في وسط النهر وعلى جانبيه. كان طعمة حينها يدفع الطوافة يمينًا تارة وشمالًا تارة أخرى كي لا يرتطم مركبه بإحدى تلك التكدسات الطينية فيعلقون في حوض النهر..

اقتربت الطوافات من القرنة وبدأت تتمرد على راكبيها.. حاول طعمة هذه المرة البقاء في وسط حوض دجلة كي لا ترتطم الطوافة بجانبي النهر فتنكسر وتسقط الحمولة.
العصي الطويلة تعوض غالبًا عن المجاذيف في تلك المنطقة..
يدفع طعمة الطوافة بعصاه مرة نحو اليمين ومرة أخرى نحو الشمال...
تزحف الصناديق إلى الطرف الأيمن من الطوافة, تصل إلى الحافة فيتمسك بها بوتا محاولًا دفعها نحو الوسط، لا يتمكن لوحده من فعل ذلك.
يترك طعمة عصاه ويساعد بوتا في سحب الصناديق. ينحني منتشلًا عصاه بسرعة قبل أن تتدحرج بعيدًا.
ينظر بوتا إلى بقية الطوافات ليطمئن على الصناديق.. يرى الآخرين مثلهما في حيرة بين الحفاظ على توازن الطوافة أو التشبث بالصناديق التي تحاول الهرب منهم...
يشعر بوتا بالندم، لو لم يقطع التماثيل إلى قطع صغيرة لما زحفت الصناديق إلى الجوانب بتلك السهولة... لو لم يحول كتلة التمثال الحجري الثقيل إلى قطعتين مجوفتين لما رقص هكذا مع كل موجة.. على الأقل كان وزن التماثيل سيقلل من ترنح الطوافات مع تيار الماء.
شعر طعمة بالتعب وأدرك بأنه لن يستطيع إنقاذ الطوافة:
ـ اسمع يا بوتا، يجب أن نخرج الآن من النهر؛ حتى السفن لا تقاوم هذا التيار القوي..
يصرخ خشية أن يهرب صوته بين الأمواج:
ـ دعنا نتقدم قليلًا.. لم يبق أمامنا الكثير لنبلغ شط العرب، هناك سيكون التيار هادء.
ـ وما أدراك أنت؟! نحن في شهر أيار، كل أمطار الأرض تنحدر لتمر من هنا.

لم يكن بوتا قد قرأ ملحمة جلجامش بعد. لو تسنى له قراءتها لأدرك بأن هذه المنطقة هي التي حدث فيها الطوفان الكبير الذي ذكرته الملحمة السومرية، وذكرته كتب الأديان من بعد.
حاول اقناعه بالخروج من الماء قبل أن يخسروا الحمولة لكن جنونه بصيد الآثار كان أقوى منه.

لم ينتظر طعمة هذه المرة الإذن من بوتا. حاول دفع الطوافة نحو حافة النهر لكن التيار كان قويًا. ترنحت الطوافة في حوض النهر كما تلعب رياح الخريف بالأوراق الصفراء. زحفت الصناديق نحو الجانب الأيمن..
قفز بوتا ليمسك بها قبل أن تهرب منه، اختل التوازن. أصبحت الحمولة وبوتا في حافة الطوافة، وطعمة في الجانب الآخر. ترنحت قدما طعمة وهو يحاول التشبث بالصناديق...
مالت الطوافة نحو اليمين، فقد طعمة توازنه فاتكأ على الحمولة الثمينة..
اشتد ميلان الطوافة ثم هربت الصناديق نحو النهر وكذلك سقط بوتا وطعمة:
ـ اغطس يا طعمة.. اغطس في الماء وأخرج الصناديق قبل أن تغيب في الأعماق..
ـ لا يمكن.. ستبتلعني الأمواج إن فعلت ذلك..
يصرخ بأعلى صوته:
ـ قلت لك اغطس بسرعة, لا تترك الصناديق تضيع من بين أيدينا.. أرجوك, سأدفع لك ما تشاء.
يصرخ كي يسمعه من بين الأمواج:
ـ لا وقت للكلام بالمال، لقد ضاعت الحمولة يا بوتا.. لننقذ أنفسنا إن استطعنا.. اخرج من الماء قبل أن تبتلعك الأمواج..

كاد بوتا أن يغرق بسبب التيار القوي الذي جرفه نحو دوامة وسط حوض القرنة الواسع في ملتقى دجلة والفرات.. سحبه طعمة من كتفه نحو سطح الماء وسبحا حتى الجرف.. تمدد طعمة أرضًا من التعب بينما استوى بوتا واقفًا وعينيه تتطلعان بلهفة نحو ملتقى النهرين.
ـ هل تريد أن تغوص من جديد وراء التماثيل؟!
ـ كلا، يا طعمة. أنا أبحث عن بقية الطوافات... أين بقية رفاقنا؟!
ـ إنهم هناك.. على الضفة المقابلة.
ـ أين؟ لا أرى شيئًا.
مشيرًا بيده المبلولة:
ـ هناك قرب ذلك النخيل المائل.
ـ لكن.. يا إلهي! إنهم بدون الطوافات! لا صناديق معهم!

أين ذهبت الصناديق؟!!
ـ يبدو أنهم تعرضوا لمثل ما تعرضنا له.

13

تتقدم العاصفة الرملية نحوي بسرعة مرعبة. خرجت منها ساق صخرية مفتولة العضلات كساق ثور وبحوافر تشبه حوافر المعز! حاولت رفسي

على وجهي، قفزت من سريري وصددت الضربة بأعلى صدري دون أن أشعر بألم يذكر!!
كأن صدري تغطى بدرع واق للرصاص!
استيقظت وأنا ألهث والعرق يتصبب من جبيني، سحبت أنفاسي بصعوبة، كأن الغرفة أصبحت خالية من الهواء. دفعت جسدي بصعوبة نحو الشباك لأفتحه، فزعي من ذلك الكابوس لا يزال يثقل أطرافي. لم يبزغ الفجر بعد. شربت قليلًا من الماء وعدت إلى النوم من جديد.

لم أتعود على السكن بمفردي في منزل كبير. هذا المنزل يجعلني أشعر بوحدة حقيقية.
بالرغم من ضيق الغرفة في الفندق إلا إنني كنت أسمع خطوات النزلاء وهمسات كلامهم من بعيد. تلك الأصوات كانت تقلل من شعوري بوحشة الاغتراب. صعبة هي الغربة في عقر الدار. لم يكن جاري يتوقف عن الكلام مع إخوته وأصدقائه بهاتفه الجوال طوال الليل. أحاول نسيان غربتي مستعينًا بصوته من وراء الجدار. أنصت لكلامه وأستنتج الرد الذي يأتيه على الهاتف. كان يغضب تارة ويضحك تارة أخرى.. تضحكني في بعض الأحيان طريقة سلامه:
ـ شلونك، وبعد شلونك. شلونك.. صحتك شلونه؟ أمورك أحوالك؟ إن شاء الله زينين. شلونك؟ شخبارك؟ الأهل شلونهم؟
كنت أتخيل أن سلامه يستهلك تقريبًا نصف بطاقة شحن الهاتف. لا ينسى خلال السلام السؤال حتى عن كلب الجيران... نتصادف على السلالم أو في صالة الفندق فأتحاشى الدخول معه بمغامرة تبادل السلام. كنت أتخيل لو أمطرني في يوم ما بسلسلة الشلونك شلون صحتك فبماذا سأرد على الشلونك الرابعة أو الخامسة؟
لم أكن أستغرب إلحاحه في السلام مع أقربائه؛ فهو من مدينة الرمادي التي سقطت بين مخالب داعش منذ أشهر. يحاول إقناع أولاد عمه بالالتحاق به في بغداد هربًا من داعش.
أحدهم حاول المجيء إليه لكنه لم يجد كفيلًا من سكان بغداد ينتظره عند مدخل العاصمة ليمهد له طريق الدخول إلى المدينة. بقي هناك ليومين بانتظار أن يعثر على أحد يتطوع لاصطحابه, لم يتوقف جاري خلال

هذين اليومين عن الاتصال بكل أصدقائه لكنه لم يفلح بانقاذ ابن عمه فعاد من حيث أتى.
طبول تلك المعارك الشرسة تصم آذان سامعيها، طبول تضرب القلوب بعنف فتتركها ساكنة من دون روح.
استلقيت على الأريكة في صالة الجلوس واضعًا قدمي على مسند الأريكة.
بإمكاني أن أفعل ما أريد دون حرج في هذا المنزل الذي خلا من أهله...
سقط نظري على آثار الصور التي كانت معلقة على الجدران.
غادرت الصور العائلية جدران المنزل كما غادره أهله لتترك بمكانها مربعات ومستطيلات باهتة اللون. نسجت من خيالي صورًا افتراضية تملأ تلك المستطيلات الفارغة على الجدران.. واحدة كانت لأبو حيدر بالملابس العربية التقليدية. والأخرى صورة تجمع العائلة بمناسبة عيد ميلاد أحد أبنائها. استبعدت أن تكون صورة عرسه تحتل ذلك المستطيل في وسط الصالة لذا افترضت أنها صورة تخرج ابنه البكر من الجامعة.
لم يترك أبو حيدر على الجدران غير آية الكرسي المنقوشة بلون ذهبي وصورة كبيرة للإمام علي.
اقتربت من الجدار محدقا بالصورة. لم يبق لي أنيس في هذا البيت غير ذلك الوجه الملتحي ذي العينين الواسعتين في تلك الصورة الخضراء وهو يجلس على ركبتيه وقد برك أمامه أسد غضنفر لكنه تحول إلى حيوان أليف ما إن وقف أمامه في تلك الصورة .
حدقت مليًا بتلك الصورة وتساءلت إن كان الإمام علي يدرك بأن هذه الصورة هي التي ستخلد شكله في مخيلة محبيه؟ لماذا لا تتكون في الأذهان غير هذه الصورة حين التكلم عنه. وحتى من يراه في الحلم فإنه يراه على هيئة هذه اللوحة! ماذا لو لم يتخيله الرسام بهذه الهيئة فهل كان سيأتي بالحلم بهذا الشكل؟
كم كان عمره في هذه الصورة، هل كان خليفة حينها أم لا؟ هل كانت ستعجبه هذه الصورة لو اطلع عليها؟ ربما ستكون مصدر قلق له لأنها تخلد ملامحًا لن تدوم.

شعرت بالأسى لحال تلك العائلات التي بدأت تهجر بيوتها بالآلاف... قوافل لا نهاية لها تودع البلاد دون التفكير بالعودة. أتسلى بمخاطبة الصورة التي بقيت أمامي على الجدار:
ـ ما من مشكلة في هجرة البيت.. أنت أيضًا هجرت بيتك مرتين. مرة عندما تركت مكة نحو المدينة ومرة عندما تركت المدينة نحو الكوفة. لا عيب في هجرة الديار أنت هاجرت وهم يهاجرون.

* * *

لم يجرؤ أميل بوتا على إعلان السبب الحقيقي لفقدانه حمولة الآثار أمام الأوساط الأكاديمية في باريس. تعرض لحيرة كبيرة وهو يبحث عن أسباب مقنعة يسكت بها إدارة متحف اللوفر ويحثهم بنفس الوقت على الإستمرار بتمويل تنقيباته في الموصل.
يجب أن يكون التلغراف قصيرًا وبنفس الوقت يحمل أعذارًا مقنعة للجميع..
لم ينس اعتراض إدارة اللوفر منذ البداية على مقترح تقطيع التماثيل إلى عدة أجزاء, فهم يعلمون بأن حفاري الموصل تنقصهم الخبرة في مجال الآثار, وسيتسببون بأضرار كبيرة وتشوهات أبدية حينما يباشرون بقطع التماثيل بمناشيرهم. تشوهات لن تتمكن مختبراتهم الفنية من ترميمها.
لذلك ألحوا عليه أن يعدل عن هذه الفكرة. لكن رد بوتا كان لا يتغير في كل مرة:
ـ إن لم نفعل ذلك فعلينا أن نقبل بفكرة بقاء تلك التماثيل الثقيلة في مكانها.

يدرك بوتا بأن اللجنة الأكاديمية وكذلك إدارة متحف اللوفر تتوق بشدة للحصول على كنوز الحضارة الآشورية وأن التخلي عن هذا المشروع وترك التماثيل بمكانها في الموصل هو آخر فكرة ممكن أن تتبادر إلى ذهنهم.
في آخر المطاف أذعنوا لمقترحه، ووافقوا على تقطيع التماثيل وكشطها من الداخل.

القبول بتماثيل مشوهة كان أهون عليهم من التخلي عنها. أو تركها لتستولي عليها بريطانيا بدلًا منهم.

برقية مستعجلة

السادة أعضاء اللجنة الأكاديمية في متحف اللوفر

أبلغكم بشديد الأسف بأن مسلحين من رجال العشائر البربرية اعترضوا طريقنا قرب منطقة القرنة خلال ركوبنا النهر، أطلقوا علينا النيران وتسببوا بفقداننا الآثار.

"بول أميل بوتا- قنصل الجمهورية الفرنسية"

الموصل مايو ١٨٤٨

14

اقترب موعد الإمتحانات النهائية لكن الطلاب لم ينهوا المنهج الدراسي بسبب العطلة الدينية. ألح عليَ الطلاب بتدريسهم كي يعوضوا ما فاتهم.

تعاطفت معهم لأنني شعرت بأنهم يرغبون فعلًا بالتعلم ويطمحون لتحقيق أحلامهم الصغيرة. قد يحالفهم الحظ أفضل مني.
تجمعوا في حديقة منزل أحد الطلاب بانتظار وصولي. لم أتأخر عنهم كثيرًا. ما إن وصلت حتى بدأت بتدريسهم كي لا يتأخروا في العودة إلى منازلهم قبل حلول الليل:
ـ سوف أشرح لكم قصة الخليقة في الحضارة البابلية، سأحاول الاختصار وبإمكانكم أن تطلعوا على التفاصيل في مؤلفات طه باقر...
الأسطورة اسمها "حينما في العلى" أو "اينما ايليش" كانت هذه الأسطورة ترتل في الأعياد البابلية خصوصًا في رأس السنة الذي كان حينها في شهر نيسان. بصورة عامة هذه التراتيل تمجد الإله البابلي الأكبر مردوخ.
أما خلق الإنسان فقد جاء كالتالي:
"حينما خلق الإله الأرض والسماء وحدد مجرى ووظائف دجلة والفرات قرر أن يخلق كائنًا يقوم بالحرث والزرع وخدمة الآلهة وتقديم القرابين وإقامة الشعائر والأعياد. قرر الإله أنوناكي أن يذبح إلهين ويخلق من دمهما البشر، وخلق صنفين من البشر كي يتكاثروا على الأرض و...".

انتفض أحد الطلاب واقفًا وصرخ بصوت متعصب:
ـ توقف.. ماهذا الذي تقوله؟! هذا كفر.. هذا إلحاد..
كيف يمكنك أن تمنح لشخصيات خرافية هذا التقديس وتجعلهم مكان الله؟! هذا إشراك.. الله وحده هو الخالق ولا أحد سواه.

لم أستوعب اندفاعه كما لم أفهم بالضبط سبب إتهامه لي بالاشراك:
ـ عن أي كفر تتحدث؟! حاول أن تفهم ما أقوله لكم قبل أن تتكلم!. ما شرحته لكم هو مجرد أسطورة... أسطورة... ستفهم من خلالها معتقدات الأمم السالفة، وهكذا تكون فكرة عن طريقة تفكيرهم. لم أطلب منك أن تعبد مردوخ أو غيره كي تتهمني بالإشراك، هل فهمت؟
ـ إنها قصص الكفار وعلينا ألا نوليها اهتمامًا. هذا إلحاد، هذا إشراك.
ـ يبدو أنك تتكلم أكثر مما تسمع. تتهمني بالكفر والإشراك دون أن تعي ما تقول. هل أصبحت تهمة الكفر هي الذوق السائد في هذه الأيام؟!. ألا تعي ما تقول؟ إن كان هذا الدرس يشعرك بالذنب فلا تحضره.

ـ بالتأكيد لن أبقى هنا، هل تريدني أن أستمع لهذا الإلحاد. معاذ الله، دع مردوخك يشفع لك.

* * *

طرق شديد على الباب أيقظني من غفوة لم يكتب لها النجاح. خرجت راكضًا لأرى من هناك:
ـ هذا أنت يا رياض؟! ما بك؟ كدت أن تكسر الباب!
ـ دعني أدخل أولًا، أريد أن أكلمك.
ـ تفضل. لكنك أفزعتني بهذا الطرق العنيف! لم أتعودك هكذا.
ـ ولا أنا تعودتك هكذا.
ـ ماذا تعني؟ لم أفهم!
ـ لم أتوقع أن تقوم بتدريس أشياء تضعف من إيمان الطلاب وتشككهم بدينهم!
ـ ماذا؟! أنا أشككهم بدينهم؟! من ادعى هذا؟
ـ تقدم فتى يدعى سجاد بشكوى ضدك لدى حزب الرايات الإسلامية قبل ساعات.
ـ شكوى! الرايات الإسلامية؟! هذه ليست شكوى؛ إنها وشاية كاذبة وتهمة باطلة. وما علاقتي أنا بالأديان؟!
ـ لا علاقة لك, لكن الأساطير التي تمزجها بالدين سوف تقلق أفكار الصبية الذين لم يتعلموا بعد كل تفاصيل الإسلام.
ـ عجيب أمرك يا رياض! وهل تعلمنا نحن كل تفاصيل الإسلام؟! دعك من هذا الكلام. ثم ماذا يريد مني حزب الرايات الإسلامية؟
ـ لا أدري بالضبط لكن عليك أن تحترس. اتصل بي ابن عمي قبل قليل بشأنك، كما تعلم هو عضو في الحزب وقال لي بأن شكوى تقدمت ضدك في مكتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...
ـ النهي عن المنكر! ما هذا المكتب؟
ـ إنه مكتب تنفيذ القصاص.
ـ القصاص!!!

ـ نعم قد ينفذون بحقك القصاص دون أن يتركوا لك فرصة الإجابة عن أسئلتهم.
ـ لم يكن ينقصني غير هذا.
ـ سأحاول تهدئة الوضع، لكن ريثما نجد حلًا عليك بملازمة البيت ولا تفكر بالخروج بتاتًا. لا أحد يعرف عنوانك هنا غيري أنا، فلا تكشف نفسك قبل أن آذن لك.
ـ لكنني أتابع ملفات مهمة في هيئة الآثار.. لا يمكنني البقاء في المنزل.
ـ لا تناقش كثيرًا، تذكر إن الأمر يتعلق بحياتك.

* * *

انتهى اليوم الثالث وأنا ملازم للبيت. أمقت فكرة البقاء سجينًا هنا. بدأ الحنين يداعبني للعودة إلى أبي، لكن الخوف من الوقوع بيد حزب الرايات أغلق أمامي كل المنافذ. قد ينفذ حزب الرايات قصاصه بي إن اجتزت هذا الباب. كم أرجو ألا ينشغل رياض بعروسه فينساني هنا لأيام أخر.

تربعت الشمس في كبد السماء... اشتد الحر ولم أعد أطيق انتظار عودة التيار الكهربائي. تناولت هاتفي لأتصل بوالدي لكن البطارية كانت غير مشحونة. وضعته جانبًا وأنا أفكر بما يمكن أن أفعله لقتل الوقت. قررت أن أستحم كي أبرد جسدي قليلًا عسى أن تتساقط همومي مع تساقط الماء البارد على رأسي وجسدي.
قبل أن أدخل إلى الحمام تذكرت قنينة الماء الذي وصفه لي السيد صباح:
ـ قد يكون رياض مصدقًا لما قالوه عني! فأنا لم أبد إعجابي بذلك السيد، كما قلت لرياض أكثر من مرة بأن ما يدعيه ذلك الرجل مجرد هراء.. هم يفسرون عدم قناعتي بمعتقداتهم بعدم إيماني بالله. وعدم تصديقي للأنساب بنكراني للنبوة وكأن هذا السيد المبارك هو شريك للنبي في الرسالة!
لست مجبرًا على تقديسه وتقبيل يده كما يفعلون فلماذا يريدونني أن أقدم له فروض الطاعة والولاء؟! ربما لم يعد هنالك من وسيلة لإصلاح ما فات.

وكأن مؤامرة كانت تحاك ضدي! بالبداية مشكلة الحي مع والدي ثم طردنا من منزلنا بالرصاص, وبعدها رياض وصديقه العراف, ثم سجاد وانتهت بحزب الرايات.. كلا ربما هي لم تنته بعد. ماذا يخبؤون لي أكثر من ذلك؟ حظي العاثر هو الذي قادني إلى هنا كي أسجن في هذا البيت وأصبح عاجزًا عن عبور الرصيف أمام هذا المنزل.
لا أكلم غير صاحب هذه الصورة. أكلمه لساعات دون أن يرد علي، أكلم الأسد فلا يرمش له جفن. حتى هذه الصورة أكثر حرية مني، أراها في كل الشوارع والأزقة، يمر الناس من أمامها دون أن يجرؤوا على رسم شيء عليها مثلما يفعلون مع صور المرشحين. لا يجرؤون أن يمسوا هذه الصورة بسوء لكنهم مستعدون لنحري إن تيسر لهم ذلك ومن دون تردد.
لن يمزق أحدهم هذه الصورة المقدسة لكن حزب الرايات يسعى لتمزيق جسدي إلى أشلاء.
هل يدرك صاحب هذا المنزل الذي سافر إلى السويد أنه ترك سجينًا بين جدرانه؟ ترك إنسانًا عاجزًا عن مبارحة منزله. وهل كان سيوافق أن أبيت في منزله لو اطلع على ما أقول؟ ربما سيتهمني هو الآخر بالإلحاد.

عدت أدراجي نحو قنينة الماء، تناولتها بيدي. فكرت بحل للخروج من هذه المشكلة إلا أنني لا أرى أمامي حلًا غير انتظار خبر من رياض. وحتى رياض هو الآخر لا يفعل شيئًا غير انتظار كلمة من ابن عمه.
ليس ملهوفًا تمامًا كما كنت أظنه. فهو يغلق هاتفه لساعات طويلة ويبقى ممددًا على السرير ملتصقًا بزوجته.

توجهت إلى الحمام والقنينة بيدي. بدأت أستحم بماء خرج دافئًا من الحنفية. نظرت إلى القنينة البلاستيكية بيدي قبل أن أسكب ماءها الأخضر على رأسي.
رميت القنينة الفارغة أرضًا وبدأت بفرك رأسي بيدي. انتشرت ذرات خضراء لزجة على جسدي, شعرت بالتقزز من ذلك السائل المخضر ورائحته الغريبة. دعكت جسدي بسرعة لأتخلص منه قبل أن يعلق بجلدي.

أعلم جيدًا بأن هذا الماء قد يترك على رأسي رائحة لا تطاق... ربما ستكون هذه الرائحة العفنة هي سر نجاتي من هذه المعضلة.
لماذا لا أقتدي بتلك الحيوانات التي تفرز رائحة كريهة لحماية نفسها؟! قد يولون بعيدًا عني ما إن يستنشقوا رائحتي العفنة وتصبح رائحتي هي درعي الواقي.
لكن أين سأذهب إن خرجت من هنا دون أن يعترض طريقي أحد.. هل أذهب إلى هيئة الآثار لأباشر عملي من جديد وأقدم طلبًا ثانيًا إلى الكونغرس بشأن المخطوطات؟ أم أعود أدراجي إلى البيت وأتخلى عن كل شيء بدلًا من المجازفة بحياتي أمام حزب الرايات؟..
إن عدت إلى العمل فعلي أولًا الحصول على توقيع المدير صهيب لإرسال تلك المذكرة. لا أشك بفرحته بغيابي, هو آخر شخص يتمنى رؤية وجهي.
هو مشغول ببناء بيته الجديد تاركًا كل شيء يتهدم من حوله.

شعرت بدوار شديد, ربما هي رائحة ذلك الماء التي ضربت رأسي وأفقدتني توازني.. بدأت أنظر بصعوبة.. أشعر بترنح وأكاد أهوي أرضا.. دفعت بجسدي خارج الحمام وليس في رأسي غير فكرة واحدة، العودة من حيث أتيت.
سحبت بنطالي الجينز من دولاب الملابس وارتديت معه قميصي الرمادي.
وقفت أمام المرآة لأرى ما أصابني إلا أن الدوار غطى عيني بغشاء ضبابي.. تراجعت قليلًا لأسند ظهري على الجدار؛ الترنح المفاجئ جعلني أشعر بأن الجدار بعيد جدًا. كدت أهوي أرضًا لهول الصداع الذي اجتاحني.
خطواتي المتعثرة قادتني نحو السرير. رميت بجسدي على حافته التي بلغتها بصعوبة. لا شك أنها الرائحة الكريهة هي التي سببت لي هذا الدوَار, يبدو أنني أول ضحايا السلاح الذي نويت أن استخدمه لحمايتي.
غصت في سريري دون أن أميز ما مررت به, هل غفوت أم تراني فقدت وعيي؟... مرت أمامي الكثير من الأطياف والأحلام وربما الكوابيس أيضًا.
لم أميز المدة التي قضيتها في السرير... كانت مدة طويلة كما أظن...

أحسست بحجارة خشنة توكزني من قدمي لأستيقظ.. فتحت عيني بصعوبة فرأيت أمامي كائنًا ضخم الجثة متلفعًا بغمامة ضبابية منعتني كالعادة من تمييز شكله.
بدى كحيوان كبير ذي جناحين عريضين لو نشرهما على جانبيه لحطم جدران الغرفة.
حاولت أن أصرخ أو أهرب لكنني فقدت السيطرة على جسدي. كأن شللًا أصاب أطرافي. كاد قلبي أن ينفجر بين أضلاعي من شدة الخوف.
حاولت أن أخرج كلماتي من صدري لأسأله "من أنت وماذا تريد مني؟" لكن عبثًا أحاول!! سلب ذلك الكائن مني قدرتي على الحركة والكلام! وكأنه شل حتى لساني!
تكلم ذلك الكائن بصوت مهيب. صوت قوي خرج من حنجرة صخرية كاد أن يكسر زجاج النوافذ لشدته:
ـ تلجأ إلى السحر لتتخلص مني؟ تلجأ إلى العزائم لتهرب من خطيئتك بحقي؟
أدركت حينها بأن ما منحه لي السيد لم يكن مجرد ماء دون مفعول. لكن ما هو المفعول المخفي في ذرات ذلك الماء؟ لم يلفظ ذلك الكائن المتدثر بغمامة الغبار كلمة أخرى. بقي صامتًا جاثمًا فوق جسدي الممدد على السرير وأنا أكاد أموت من شدة الفزع.
شعرت في تلك اللحظة بأنه قادر حتى على اغتصابي. تمنيت ألا يفعل.
تصورت بأن هنالك عاصفة ترابية اجتاحت المدينة، عاصفة أرسلها هو ليغطي على ما ينوي فعله. لم أر ترابًا من خلال النافذة القريبة مني! كانت العاصفة الترابية في البيت فقط. شعرت بضيق في التنفس لثقل التراب المحيط بي. سحبت أنفاسي من فمي فشعرت بطعم التراب يحط على لساني المشلول.
رفع ذلك الكائن ساقيه الأماميتين فرأيت أعضائه العملاقة. رفس السرير بقوة خرافية. ارتطم السرير بالجدار وغبت عن الوعي.
عدت إلى كوابيسي من جديد. كنت أشعر بأياد تمسك بي وتمنعني من التحرك.
لا أدري, أو لا أذكر ما حدث بعد ذلك؟

15

فتحت عيني بصعوبة بسبب الصداع الذي ضرب رأسي. الألم يكاد يفجر جبيني. انتصبت واقفًا بصعوبة. لم أكن في سريري وإنما على الأرض. لم أكن على أرضية الغرفة.
لم أكن حتى في المنزل!

لم استوعب كيف خرجت من البيت ورميَ بي على قارعة الطريق! نفضت التراب عن ثيابي وأنا أنظر من حولي دون أن أفهم ما يحدث لي.
سرت خطوات قليلة متوجهًا نحو زقاق ضيق حيث تجمع عند بدايته بضعة رجال حول عربة خشبية لبيع الخضروات. اقتربت منهم لا شعوريًا دون أن أفكر بالكلام معهم. كانت أشعة الشمس تداعب تلك المدينة بهدوء. لم أميز إن كان اليوم في بدايته أم هي لحظات وداع النهار.
حدقوا بملابسي حينما أصبحت قريبًا منهم ثم عادوا لمواصلة حديثهم غير آبهين بي. كانوا يرتدون جلابيب بيضاء ورمادية اللون وينتعلون أحذية جلدية فقدت ألوانها لكثرة الاستخدام وقد غطى التراب ما برز من أقدامهم.
عدت أدراجي نحو البقعة التي وجدت نفسي ممددًا عليها. وقفت لبرهة وأنا أنظر إلى الأرض ثم التفت يمينًا ويسارًا... انحنيت لألمس الأرض الترابية براحة كفي. اقتلعت قليلًا من العشب الأخضر المنتشر بشكل عشوائي على تلك الأرض الندية ودعكته بأصابعي.
هل أنا أحلم؟!!...
ما الذي أتى بي إلى هنا؟! أين أنا؟! هل أنا بكابوس؟!

استويت واقفًا وأنا ألمس وجهي براحة كفي. تحسست خدي وأنفي بيد مرتجفة دون أن أجد جوابا يكبح تساؤلاتي، لم يكن أمامي غير تفسير واحد.
أنا أحلم. نعم إنه حلم... ما الذي سيخرجني من منزل مقفل لأجد نفسي هنا؟! ممدد أرضًا في مكان لا أعرفه!
سأستيقظ بعد قليل وسينتهي كل شيء.

تقدمت خطوات نحو منازل رمادية مبنية من حجر الكلس.. سمعت أحدهم يصرخ ورائي وصوته يقترب مني:
ـ ابتعد يا هذا عن الطريق.. ألا تسمع؟ سيرفسك الحصان!

حصان بني يعدو نحوي بسرعة ويجر خلفه عربة سوداء! تنحيت جانبًا بسرعة متحاشيًا الارتطام بالعربة. نظر إلي "العربجي" وهو يمر من أمامي بعربته التي جلس بداخلها رجل يرتدي عباءة بنية اللون ويعتمر

غترة بيضاء ترافقه امرأة محنية الرأس, العباءة السوداء التي ارتدتها تلك المرأة حالت دون رؤية وجهها.
راقبت العربة وهي تبتعد حتى غابت عن أنظارى بين الأزقة الملتوية.
عربة! منذ متى ونحن نتنقل بعربة كهذه؟! أكاد أجن مما أرى. ما الذي يحدث من حولي؟!

نظرت إلى الساعة حول معصمي فوجدت العقارب ساكنة لا تتحرك.
وضعتها على أذني علني أسمع تكتكتها, لكنها كانت.. ميتة!
تحسست جيوبي فوجدتها خالية إلا من هاتفي المحمول. هو الآخر كان مقفلًا، ضغطت بقوة على زر التشغيل لثوان وأعدته إلى جيبي!
حاولت أن أتذكر ما حدث معي قبل أن أصل إلى هنا:
اغتسلت وارتديت ملابسي، كنت أنوي أن أغادر المنزل... لكنني عدت إلى سريري! استلقيت على السرير لأنني.. ربما شعرت بدوَار شديد..
نمت و... وصحوت فوجدت نفسي هنا!...
لماذا؟... لماذا أنا هنا؟!
لقد حدث شيء ما عندما كنت نائمًا.. أعتقد أنني رأيت شيئًا.. حدث لي شيء ما، لا أذكر تمامًا ما هو، لكن مهما يكن ذلك الشيء لماذا أنا هنا؟!

واصلت سيري بين المنازل المتلاصقة دون أن تتوقف تساؤلاتي.
مررت بمحاذاة غلام في الثانية عشر من عمره، جذب ذلك الفتى انتباهي لأنه كان حافي القدمين. ناديته بصوت متودد:
ـ انتظر من فضلك أود أن أطرح عليك سؤالًا.
ـ تفضل.. ماذا تريد؟
ـ أين نحن؟
ـ هل تمزح معي أم ماذا؟!
ـ كلا، أبدًا.. أعتقد أنني أضعت الطريق.
ـ فهمت... أنت في محلة الخزرج.
ـ ها.. ماذا؟ الخزرج! هل أنا في السعودية؟!
ـ عن أي سعودية تتكلم؟ أنت في محلة الخزرج في الموصل.

لم يكن الرد الثاني ليخفف من وقع المفاجآة.
ـ مالذي أتى بي إلى هنا؟!
وهو يبتعد عني:
ـ وما أدراني! ألم تقل بأنك تائه؟ ها قد عرفت أين أنت. خذ عربة وعد إلى منزلك.
بقيت أنظر إلى الفتى وهو يبتعد راكضًا. آخذ عربة!.. هههه. بالتأكيد هناك خطأ ما. أنا مازلت نائمًا، نعم أنا أحلم. يجب أن يوقظني أحدهم ويخرجني من هذا الكابوس الغريب!!
ولماذا يتنقلون بالعربات، أين ذهبت سياراتهم؟! هل أصدرت داعش أمرًا بمنع استخدام السيارات في الموصل؟!
ثم ما هذه الملابس الغريبة! لماذا يرتدون الجلابيب القديمة؟ هل تغيرت الملابس هنا منذ قيام الخلافة كما قالوا! وماذا لو عثروا علي وأنا أرتدي بنطالي الجينز؟ هل سيقتلونني بسببه؟

أسندت ظهري على جدار أحد المنازل وأنا أنظر إلى السماء الزرقاء. تهادى لأذني صهيل خيول بعيدة مختلطًا بحديث بعض الرجال وهم يسيرون بين الأزقة وصراخ أطفال يلعبون ويعدون أمام المنازل.
لم أسمع أصوات منبهات السيارات ولا محركاتها التي تمخر الشوارع.. لم يكن هنالك أصوات تلفاز أو مذياع تنبعث من المنازل المحيطة بي.. لعل التيار الكهربائي مقطوع كالعادة.
لم أسمع شيئًا.. شعرت بالخوف من هذا الهدوء وأحسست بأنني في عالم يشبه الحلم.. أو أنني في حلم بكل بساطة. لكن ما أراه الآن يبدو تمامًا كحياة حقيقية! ليس هنالك صور ضبابية كالتي أراها في الأحلام!! يجب أن أجد تفسيرًا مقنعًا لما يحدث.
ماذا لو لم يكن هذا حلمًا؟ ماذا لو اكتشفت بأن حزب الرايات هو من رمى بي هنا؟ وكيف لهم أن ينقلوني كل هذه المسافة دون أن أشعر بشيء؟!
كلا، هذا مستحيل... يجب أن أجد جوابًا مناسبًا. جواب منطقي.
لكن ما يحدث لا علاقة له بالمنطق!

اتكأت على جدار منزل في أول الزقاق وبقيت أراقب الناس دون أن أستوعب ما يدور من حولي. بعد مرور دقائق خرج من المنزل رجل في الثلاثين من عمره أو أكثر بقليل. نظر إليَ نظرة تساؤل منتظرًا مني أن أكلمه لكنني لم أجد ما أقوله.
أدرك بأنني لا أنوي الكلام فسألني مبتسما:
ـ هل بعثك الشيخ عبد الرحمن إلي؟ هل أنت هنا منذ وقت طويل؟
ـ أنا؟ في الحقيقة.. لست... لست هنا منذ وقت طويل.
ـ طيب، لقد قال لي بالأمس بأنه سيبعث لي من يساعدني في الحفر.. هيا بنا.
تقدم الرجل بخطوات سريعة ثم التفت إلى الوراء ليجدني باق في مكاني. لم أجرؤ على مرافقته نحو مجهول أخشاه كخشية الموت. ولماذا يبحث عن حفارين, ما الذي سيفعله بتلك الحفر؟! هل سيدفنون جثثًا مقطوعة الرؤوس؟ هل هذا الرجل يعمل مع داعش ويريد أن يأخذني إليهم؟ لكنه حليق اللحية, قد لا يكون مع داعش وإلا لأجبروه على إطلاق لحيته.
عاد الرجل أدراجه نحوي بابتسامة هادئة تغطي وجهه الأسمر ذا الشاربين الغليظين:
ـ لا تخف أنا أيضًا أعمل مع هنري لايارد ولن أشي بك أمام السلطات العثمانية.
رفعت حاجباي مندهشًا حتى كادا أن يصلا إلى أعلى رأسي:
ـ السلطات العثمانية؟!!
ربت على كتفي مطمئنًا:
ـ ألم أقل لك لا تخف.. هيا معي.

* * *

وصلت العربة التي تقلني ورفيقي هرمز رسام إلى منطقة واسعة بعيدة عن الأحياء السكنية، نزلنا من العربة وواصلنا طريقنا سيرًا. تحيط بنا من الجوانب الأربعة تلال خضراء متساوية في الارتفاع. الأغنام تأكل بعض العشب الذي كسا الأرض بلا انتظام وتعدو بين التلال.

تسبح الغيوم في سماء قريبة منا, تغطينا بظلها لدقائق ثم تغادرنا بعيدًا لتترك ألوان العشب تتلألأ من جديد تحت شمس ناعمة. آثار المواشي مغروسة في أرض رخوة لثقل أجساد محملة بجرار الماء نحو المدينة. والأحجار المبعثرة بين الأعشاب تنتصب كأعضاء ذكرية متشنجة.

لاحظ هرمز بأنني أتحاشى الكلام فأقلع عن محاولة تجاذب الحديث معي. التففنا حول التل فرأيت اثنين من القرويين وهما يحفران بالمعاول وقد أحدثا فوهة واسعة بشكل نفق مستطيل في قلب تل مكسو بالعشب الأخضر.
سقط نظري على شاب يرتدي بنطالًا بني اللون وقميصًا أبيض أو ربما ترابي اللون وقد انتشرت على ملابسه بقع ماء اختلطت بالتراب والغبار لكثرة الحفر بالمعاول. وضع الرجل قبعته جانبًا ليكشف عن جبين ارتسمت عليه حلقة حمراء من شدة الحر والتعرق.
تكلم العربية بلكنة أوروبية:
ـ من أنت؟
لم أتوقع أن يوجه إلي السؤال بهذه السرعة، كنت أظنه سيعتبرني هو الآخر صديقا للشيخ كما هو الحال في مجريات هذا الحلم، لكن على ما يبدو على أن أقول شيئًا:
ـ ألم تسمعني؟ من أنت؟
ـ أنا.. أنا اسمي سالم.
ـ ولماذا لم يبعث الشيخ عبد الرحمن غيرك؟ وعدني بأنه سيبعث خمسة أو ستة رجال.
ترددت قليلا قبل أن أرد:
ـ لا أدري.

بقي هرمز يجول بناظريه بيننا أنا وهنري دون أن يقول شيئًا.
ترك هنري معوله وتوجه نحو صندوق حديدي وضع أرضًا. انتشل منه قنينة معدنية وشرب القليل من الماء ثم عاد لمراقبة العاملين اللذين كانا يحفران في قلب التل.

اقترب هرمز من لايارد والتقط معولًا ليساعده في الحفر، فسأله قبل أن يبدأ:
ـ هل هذا الرجل محط ثقة؟ ثيابه لا علاقة لها بثياب البدو!!
نظر هرمز إليَ بينما بقيت صامتًا منتظرًا منه أن يزكيني بكلمة بسيطة:
ـ نعم... أظنه محط ثقة.
ـ قلت لي ما اسمك؟
أجبت بسرعة هذه المرة:
ـ سالم حبيب.
ـ وهل تجيد الحفر يا سيد حبيب؟ هو لا يحتاج إلى مهارة كبيرة لكن عليك أن تكون يقظًا عند كل مرة تضرب بها معولك بالتراب.
ـ فهمت، لكن ما الذي تبحثون عنه في هذا التل؟!
تقدم هنري نحو هرمز:
ـ ألم يشرح الشيخ لهذا الرجل طبيعة عملنا؟
ـ ربما لم يفعل, كما تعلم هو يأمرهم دون أن يكون بحاجة لتقديم شروحات وتبريرات.

ابتسم هنري وتراجع خطوات متجهًا نحو صندوقه المعدني. أخرج دفترًا صغيرًا وبدأ يدون على صفحاته الصفراء بعض الكلمات.
إن كان هذا هو هنري لايارد الذي قرأت عنه فإن هذا الدفتر الذي بين يديه سيتحول إلى مادة دسمة لأول كتاب عن الحضارة الآشورية في الشرق وسيسميه "نينوى وبقاياها"..
خرج أحد العمال من الخندق ليأخذ قسطًا من الراحة وقد غطاه التراب من رأسه حتى أخمص قدميه. وضع لايارد الدفتر جانبًا وانتشل المعول الذي رماه الحفار أرضًا. ولج إلى باطن التل لينوب عن العامل الذي تمدد ليلتقط أنفاسه على التراب الرطب الذي أخرجوه للتو من باطن التل.

ـ لماذا أنت واقف هكذا؟ ماذا تنتظر؟
ـ ماذا تريدني أن أفعل؟
ـ أنت هنا لتساعدنا بالحفر في هذا التل. هل فهمت؟
ـ فهمت لكن...

ـ بدون لكن، بما أن السيد لايارد وافق على بقائك فسوف يدفع لك جيدًا... خمس ليرات في اليوم.
ـ خمس ليرات! ماذا يمكن أن اشتري بهذا المبلغ؟
ـ يا رجل! ألا تكفيك خمس ليرات؟!

فك هرمز قطعة القماش الرمادية المبرومة حول كوفيته الصغيرة كاشفًا عن رأس كبير مغطى بشعر داكن السواد. أخذ معولًا من صندوق معدني يحتوي على معدات العمل وولج إلى الخندق في قلب التل.
بقيت في مكاني لا أتحرك بانتظار حدث غير متوقع يوقظني من هذه الغفوة الطويلة، أو أن أستمر بالنوم وأعيش هذا الحلم الغريب!
بكل الأحوال اليقظة من عالم الكرى لا يقررها النائم وانما تأتي فجأة.
خرج العامل الثاني من قلب التل بعدما ناب عنه هرمز في الحفر. ألقى معوله قرب معول رفيقه وأخذ جردلًا معدنيًا مملوءًا بالماء، شرب منه الكثير وغسل وجهه وعينيه اللتين احمرتا من ذرات التراب حول جفنيه.
تمدد قرب رفيقه الذي غلبه النعاس من شدة التعب. مسح جبينه بأكمامه وأغمض عينيه باحثًا عن غفوة قصيرة يواسي بها جسده الهزيل.
لم أستطع منع نفسي من مراقبة أجسادهم المتهالكة فوق التراب الندي، كأني رأيت هذا المشهد من قبل. كأن هذه القيلولة مألوفة لدي!
شخصان ممددان أرضًا، معولان جنبًا إلى جنب وكذلك الأحذية. أخالني رأيت هذا المشهد في مكان ما أو ربما في لوحة. لا أذكر.
شعرت بالتعاطف مع هذين العاملين، حتى عندما أحلم تكون هيئة العمال في قمة العناء.

أخرج هرمز رأسه من فوهة النفق:
ـ ألا تتحرك؟ هل ستبقى واقفًا هنا؟!
ـ كلا؛ لكن ماذا عليَ أن أفعل؟
ـ أوف... خذ معولًا وتعال لتساعدنا في الحفر.

16

اقترح عليَ هرمز أن أبيت عنده هذه الليلة لأنه كما قال بأن الطريق يستغرق ساعات للوصول إلى مرابع الشيخ عبد الرحمن. هو يعتقد بأني سأقضي وقتًا طويلًا برفقتهم لكنني واثق من مغادرتي هذا المكان بعد لحظات.

كنت أود أن أبيت في الخان. أن أستكشف المدينة قبل أن أستيقظ من هذه الغفوة العميقة, لكن هرمز أصر على استضافتي كي لا أتعرض للمضايقات من قبل السراق الذين يبيتون في الخان ليتصيدوا بضائع التجار. شرحت له بأنني لست تاجرًا لأشعر هناك بالقلق, فالمفلس في القافلة أمين. لكنه أصر على أداء واجب الضيافة معي.

سعيد جدًا باقتراب موعد النوم. بقيت على يقين بانتهاء كل شيء ما إن أفتح عيني من جديد.
عندما أصحو سيكون كل شيء انتهى وسأعود لحياتي الطبيعية. لم تكن حياتي طبيعية لكني لم أكن تائهًا كما أنا الآن.
أليس من الأفضل أن أترك هذا الحلم يستمر لأطول مدة ممكنة هربًا من أولئك المتطرفين الذين يهددون حياتي؟ لكن اللجوء إلى الأحلام لن ينقذني منهم. وماذا سأفعل لو هاجمني حزب الرايات وأنا ممدد على سريري أتسلى بحلم كهذا؟ سيقطعونني إربًا دون أن تكون لدي أدنى فرصة للهرب منهم.
استلقيت على سرير من خشب الصنوبر الأحمر يتوسط غرفة صغيرة في الطابق العلوي. ينبعث الضوء خافتًا من قنديل زيتي وضع على رف خشبي مقابل السرير. نصحني هرمز بإطفائه قبل أن أغفو لأن أسعار الزيت قد ارتفعت بعد المعارك الأخيرة بين الوالي العثماني تاهيار باشا وعشائر شمر. التعب الذي أعاني منه منعني من السؤال عن التفاصيل. نفذت فقط ما طلبه مني؛ أطفأت القنديل لأنني أرغب بالإسراع في النوم متعجلًا المغادرة.
للمرة الأولى في حياتي أواجه معادلة بهذه الغرابة ولا تفسير لها؛ أنام سعيًا للهرب من حلم! أغفو على سرير لأصحو من نوم طويل!
بقيت عيناي مسمرتان نحو صليب خشبي يتوسط الجدار أمامي. أتطلع إلى الأيقونة باحثًا عن الشبه بينها وبين الصورة التي تركتها معلقة على الجدار في المنزل الذي غادرته منذ.. منذ مدة لا أعرف كم هي بالضبط.
وقد أكون لم أغادره بالمرة.

تثاقلت جفوني وأنا مستمر بالنظر إلى ذلك الصليب الخشبي الذي يحمل تجسيدًا نحت باليد لجسد المسيح. استدرت على جنبي الأيمن فشعرت بهاتفي تحت فخذي. أخرجته من جيبي. آخر مرة استعملته كانت للاتصال بمحمد العالق في الموصل. وها أنا الآن في المدينة نفسها.
أخبرني حينها بأن أهل الموصل ركنوا إلى منازلهم وتحاشو الخروج منها بعدما طبقت داعش الحد على مدخني السجائر بقطع أصبعي الوسطى والسبابة. فضل الكثير من رعية داعش التوقف عن التدخين خشية الحد الذي لا رحمة فيه. كثيرون هم الذين يزعمون بأنهم مستعدون للتضحية بنصف أعمارهم من أجل تدخين سيجارة مع قدح شاي أسود بالهيل، لكن عندما أصبح الأمر مرهونا ببتر اصبعين من الكف توقفوا بلا تردد.
وهكذا فعل محمد عندما علم بأن جارهم فقد اصبعين من كفه بسبب سيجارة دخنها وهو يمشي في السوق. اعتبروه حينها يجاهر بالمعصية..
شيوخ العشائر لم يفكروا بالتدخل لأنهم يخشون أن يهانوا علنًا من قبل فتيان بعمر أبنائهم. تم جلد أربعة من الشباب لأنهم لم يستجيبوا لنداء الصلاة وفضلوا البقاء في محالهم التجارية...
لم يتوقف عن البكاء حينما صعد إلى سطح المنزل وفتح هاتفه الجوال ليصور تل التوبة الذي لا يبعد غير ثلاثمئة متر عن بيته. لم يكن التل هو الذي يشغله في تلك اللحظة وإنما ضريح النبي يونس الرابض بسلام منذ آلاف السنين على تلك القمة.
سمع قبل أيام إشاعة تناقلتها الألسن همسًا في الحي بأن داعش ستفجر قبر النبي يونس في صباح الجمعة.
لم يصدق ذلك... ربته أمه منذ طفولته على حب النبي يونس محبة خاصة لأنه جارهم... فقد أوصى به الله مرتين، مرة لأنه من الأنبياء الواجب تقديسهم واحترامهم، ومرة لأنه جارهم ويجب مراعاة واحترام حقوق الجار.
"بكل الأحوال هم دولة إسلامية. وبرغم المبالغة في التطرف لن يفكروا بتدنيس قبر نبي بهذه الطريقة. الإسلام يحترم كل الأديان ويقدس كل الأنبياء بقدر تقديسه للنبي محمد. لن يفعلوا هذا. هم عنيفون في تطبيق الحد، ويجتهدون في ابتكار قصاص من عندهم لكنهم لن يرتكبوا إثمًا كهذا وهم يتخذون من "لا إله إلا الله" شعارًا لهم".

تلك هي آخر كلمة قالها حينما كان يصور قبر النبي بهاتفه الجوال كي يضع التسجيل على شبكة الإنترنت, ليخبر العالم أجمع بأن النبي لم يدنسه أحد.. لم يصور غير ثوان معدودة قبل أن تنفجر العبوات الناسفة التي زرعوها حول التل وعلى جدران الضريح الذي تحول إلى تراب منثور في السماء خلال جزء من الثانية.
دوي الانفجار أصم أذنيه لثوان، بقي مذهولًا متجمدًا بمكانه كتمثال من رخام لكن روحه تناثرت ككومة رماد في يوم عاصف.
لم يكن قادرًا على إستيعاب ذلك الحدث. فغر فاه مشدوها بهول الصدمة, فدخل في فمه التراب المتطاير من الضريح. حط التراب على لسانه الذي جف حزنًا لفقدان ذلك الجار العزيز إلى الأبد...

بالأمس خسر جاره المسيحي إيشو لأنه غادر منزله خشية أن ينفذوا تهديدهم بقطع رأسه ورأس زوجته. هكذا فقد جارًا عزيزًا بالأمس. واليوم يفقد جارًا لا مثيل له، اليوم يفقد النبي يونس..
يغادرهم إلى غير عودة هو الآخر بعدما مكث آمنًا في حيهم لآلاف السنين.
بقي يراقب التراب الذي دفعه الهواء بعيدًا، أدرك بأن النبي هو الآخر سيهاجر راكبًا تلك النسمات الهادئة, مغادرًا أرض الموصل إلى غير رجعة.
أدرك حينها بأنه كان واهمًا بشأن تدين داعش واحترامهم للأنبياء؛ وأنهم لا ينظرون لصاحب الحوت كجار عزيز لأنهم لم يسكنوا يومًا في هذه المدينة، فهم غزاة جاؤوا من أصقاع بعيدة ومتفرقة. تحولوا إلى سادة هنا بسبب تواطؤ البعض وتخاذل البعض الآخر من سكان مدينته.
من لم يتعاون معهم بقي مكتوف الأيدي، واكتفى بالجلوس على مدرجات الملعب يراقب عروض داعش في أحيائهم.

جلس محمد أرضًا مسندًا ظهره إلى الجدار وعاد لمشاهدة المقطع الذي سجله قبل قليل على هاتفه الجوال. يكاد لا يصدق ما رأى للتو, لكن التسجيل الذي بين يديه والتل الذي أزهقت روحه قبل ثوان لم يدعا له مجالًا للشك بالكوارث التي تحدث من حوله:

قد لا يكون تدمير النبي يونس هو عرضهم الأخير...

تركت هاتفي جانبًا وعدت للتحديق بالأيقونة المعلقة على الحائط. ماذا سأفعل في الغد عندما أصحو؟ تثاقلت جفوني المتعبة. ها أنا سأغفو لأهرب من هذا الحلم الطويل.
عندما أغادر سريري في الغد سأكون قد غادرت هذا العالم الغريب.

* * *

آذان الفجر يسبح في سماء مترامية تحتوي بغطائها الأزرق عصورًا متعاقبة. أسمعه يداعب أذني ولا أعرف في أي سماء ينتشر صوت ذلك المؤذن. أهي سماء بغداد أم الموصل؟
بقيت مغمض العينين بين صحوة وغفوة. أسمع وقع خطوات ناعسة ترتقي سلمًا خشبيًا. الخطوات تقترب مني حتى أصبح بيني وبينها مسافة ذراع واحد. كنت قد لففت جسدي باللحاف طوال الليل اتقاء لبرد قارس، برد لم أئلفه من قبل.
فتحت عيني، فاخترقها نور منبعث من قنديل قريب.
هرمز يقف أمامي وبيده قنديل زيتي بشعلة صغيرة كأنها ترقص ساخرة مني.
أغمضت عيني من جديد. ضغطت جفني بقوة وأنا أقول بصوت مسموع:
ـ هيا عد للنوم. يجب أن تنتهي من هذا الحلم قبل مغادرة الفراش. لن أغادر سريري حاملًا هذا الكابوس معي.
ـ أي حلم يا سالم! اصح.. علينا أن نخرج بسرعة ونتوجه للعمل وإلا سيستبدلك السيد لايارد بشخص آخر.

بقيت ممددًا على السرير أحاول العودة للنوم.
ـ استيقظ يا سالم بسرعة، لا تضيع وقتنا.

دفعت الغطاء بقدمي وأنا أغادر السرير. اقتربت من هرمز ولمسته من كتفه ثم تراجعت خطوات مقتربًا من الجدار ولمسته براحة يدي.

نظرت من الشباك لأجد سلسة طويلة من المنازل التي اكتست بلون أزرق باهت تحت ضوء القمر الذي بدأ يخفت تاركًا ضوءًا خجولًا معلنًا عن ولادة يوم جديد.
ـ لا, هذا لا يشبه الحلم. ليس هذا بالحلم... إنه حقيقة!
رباه ما هذه الورطة التي أنا بها!
ـ ما بالك يا سالم؟! هل جننت؟!
ـ لا أدري, ربما جننت فعلًا! هل أنا في حلم؟ هل هذه حياة حقيقية؟ من الذي رمى بي هنا؟ لماذا أبيت بينكم وأنا من عالم آخر؟ سوف أصاب بالجنون... لماذا أنا هنا؟!!
ـ أنت تبيت هنا لأنك جئت معي بالأمس! هل نسيت أم ماذا؟!
ـ ليس هذا ما كنت أعنيه. أنا ببساطة من زمن آخر؛ يجب أن اعترف لك بذلك لأنني لم أعد أطيق ما يحدث.
ـ اسمع يا هذا، أنا بالكاد أعرفك. سمحت لك بالمبيت هنا لأنك غريب في هذه المدينة؛ لكن أن تخرج لي بقصة غريبة منذ الفجر فهذا ما لا أطيقه. بدأت أرتاب بأمرك، من أنت؟

لن يفهمني مهما شرحت له. كيف أشرح له ما عجزت أنا عن استيعابه؟ كيف سيصدق ما لم أصدقه بعد؟!
هل أشرح ما أعاني منه للايارد. ربما هو أكثر ثقافة من هرمز. وربما لا. ربما هو الآخر لن يفهمني:
ـ المعذرة يا هرمز، يبدو أنني كنت أحلم. لا تشغل نفسك بما قلته للتو.
يبدو أن الكابوس الذي رأيته بمنامي جعلني أهذي.
ـ أف.. لقد طمأنتني فأنا لا أجيد قراءة الهلوسة والهذيان. لكن.. إذا أحببت يمكنني أن أدلك على شيخ يزيدي مشهور جدًا في جبل سنجار يمكنه أن...
ـ كلا، كفاني شيوخًا وعرافين. لقد نالني منهم ما يكفي.

* * *

لم ينتظر هنري لايارد وصولنا ليبدأ العمل. وجدته يحفر منذ الفجر بهمة عالية في قلب التل.. أخذ هرمز معولين من الصندوق المعدني الذي كان

يحتوي على عدة لايارد من معاول وشفرات معدنية مدببة الرأس وعدد من الفرش وخرائط لكل مدن العراق العثماني وبلاد فارس، وبوصلة وكيس بني لم أميز ما بداخله. ناولني هرمز المعول، لكني قبل أن آخذه قلت للايارد:
ـ هل تسمح لي بإلقاء نظرة على خريطة الموصل؟
ـ بالطبع... تفضل.

انتشلت البوصلة بسرعة قبل أن آخذ الخريطة بيساري. فرشتها أرضًا ووضعت البوصلة فوقها. لاحظت أن اتجاه البوصلة غير متطابق مع الخريطة. أدرت الخريطة بعناية حتى تطابق مؤشرا الشمال بين البوصلة والخريطة. راقب لايارد حركاتي، حسبت أنني أثرت فضوله.
كنت متأكدًا من أنه لم ير من قبل أحد العمال وهو يقرأ خريطة بهذه الدقة. ربما لم ينتبه العمال في يوم ما إلى وجود الخرائط بين عدته، وقد لا يعنيهم من ذلك الصندوق غير المعاول والشفرات، وقارورة الماء.
اقترب مني وجلس القرفصاء:
ـ هل تبحث عن شيء معين في الخريطة؟
ـ كلا، أحببت فقط أن أرى كيف كانت خارطة الموصل في الماضي.
ـ لكن هذه الخريطة لا علاقة لها بالماضي! إنها مطبوعة حديثًا؛ انظر إلى تاريخ الطباعة في الأسفل، ١٨٤٠، ليست قديمة.. لم يمض عليها غير ثمانية أعوام.

حفرنا أنا وهرمز حتى انتصاف النهار.. خرجنا من قلب التل لنستنشق هواء خاليًا من الغبار ونستريح قليلًا بينما كان لايارد منشغلا بكتابة مذكراته تارة وبمراقبة سير العمل تارة أخرى.
أكلت القليل من الكبة التي أعدتها زوجة هرمز مع أرغفة الخبز الأسمر وعيناي لا تفارقان التلال التي تحيط بنا.
اختلست نظرات سريعة لمراقبة لايارد المشغول بالتدوين في دفتره الصغير:
ـ أنت مشغوف بالبحث عن أسرار الحضارات القديمة.
نظر لايارد إلي لبرهة قبل أن يرد:

ـ نعم، هو كما قلت.
ـ واخترت هذا المكان بالذات لأنك ترى في هذه التلال المتراصفة بانتظام شيئًا يتجاوز الطبيعة.
ـ لم أفهم ما تعني!
ـ انتشار التلال غالبا ما يكون عشوائيًا لكنك اخترت هذا الموقع بسبب الانتظام الهندسي في توزيع التلال الصغيرة... التلال كلها بنفس الارتفاع. نفس المسافة تفصل هذا التل عن الآخر وعن الذي يليه. أليس كذلك؟
ـ أنت محق.. كيف عرفت كل هذه التفاصيل؟!
ـ لو كنت مكانك لفعلت الشيء ذاته.
نظر إليَ دون أن يقول شيئًا فبادرت مجددًا:
ـ هل تكتب مذكراتك؟
ركز أنظاره بعيني محاولًا سبر السر الذي أخفيه:
ـ نعم... هي مذكراتي بالإضافة إلى مشاهد من الحياة اليومية في الموصل والقرى القريبة.
ـ ستصبح هذه المذكرات كتابًا مهمًا في المستقبل.
ـ أرجو ذلك.
ـ هذا ما سيحدث.
بسخرية:
ـ وكأنك تعلم ما سيحدث.
ـ لا أعرف كل شيء، لكن أؤكد لك بأنني أعرف الكثير عن المستقبل.
ـ ممكن لأحدنا أن يعرف الكثير من التفاصيل عن الماضي. لكن أن تدعي معرفة المستقبل فهذا غير ممكن! حتى لو كنت عرافًا كما يدعي بعض سكان جبالكم فلن أصدق ما تتفوهون به؟!

اقتربت من لايارد وحاولت أن أحدثه بالإنجليزية، كانت لغتي الإنجليزية محدودة لكنني قادر على التعبير عما أريد قوله:
ـ هل تصدقني إن قلت لك بأني لست من هذا الزمن؟
ـ هل تتكلم الإنجليزية؟!

ـ لا أتقنها، لكنني قادر على استخدامها.. لقد تعرضت لحادث غريب... شيء لا أفهمه. ليس لديَ تفسير لما أمر به لكن... هناك حادث غير مفهوم انتشلني من القرن الواحد والعشرين حيث كنت ورمى بي هنا...
بالأمس كنت أظنني أحلم؛ قبل أن أنام في منزل هرمز اعتقدت بأن كل شيء سينتهي عندما أصحو...

صمت قليلًا ثم نهضت من مكاني وسرت خطوات وعيناي تتابعان سرب طيور متجه نحو الجنوب:
ـ عندما أيقظني هرمز فجر اليوم أدركت بأنني لم أكن أحلم. حينما ألقيت نظرة على خريطتك وقارنتها بما أعرفه عن الموصل وجدتها صحيحة؛ في منتهى الدقة!...
لا يمكن لمخيلتي في النوم، في حلم، أن ترسم خريطة بهذه التفاصيل الدقيقة مع تطابق القياسات والمسافات... هذا مستحيل!
عندما بدأت أحفر في الصباح كنت أحفر بقوة؛ كنت أضرب المعول بكل ما أوتيت من قوة مع علمي بأن هذا لا يجوز في المواقع الأثرية كي لا نكسر إحدى القطع المطمورة تحت الأرض. لكني فعلت ذلك متصورًا بأن إحدى تلك الصدمات القوية والمتعبة ستوقظني من غفوتي العميقة...
ظننت بأن غفوتي أعمق مما تصورت وواصلت العمل لكنني لم أستيقظ!
هل تعرف لماذا؟
ـ لماذا؟
ـ لأنني لست نائمًا... كيف سأستيقظ وأنا يقظ مسبقًا؟!. لست نائمًا وهذا ما سيسبب لي الجنون! لماذا أنا هنا؟!
تكلم لايارد بهدوء دون أن يبدي تفاعلًا مع قصتي:
ـ هل تعرف الفريق الألماني الذي يقوم بتنقيبات في بابل وبلاد فارس؟
ـ كلا، لماذا تسألني عنهم؟!
ـ هناك جواسيس يعملون معهم؛ القنصل الفرنسي أميل بوتا أخبرني بأنهم يحاولون معرفة تطورات عملنا وإلى أي مرحلة وصل.
ـ أنا أريد أن أصل إلى جواب لتساؤلاتي؛ ما شأني أنا والبعثة الألمانية؟!

ـ بالضبط، ما شأنك أنت؟... إسمع، خذ هذه النقود, عشرة ليرات. إنه أجر يومين... خذها, لا تتردد؛ خذ النقود وغادر الموقع. لا أخفي عنك، لست مطمئنًا لك ولا لقصتك.

17

عدت سيرًا إلى مدينة الموصل.. خيبة الأمل التي تعرضت لها عندما طردني لايارد من العمل ضاعفت من التعب الذي حل بي خلال ساعات الحفر. لم أمارس المهن اليدوية منذ أعوام، عندما كنت في الإعدادية عملت مع صديق والدي الحداد. كنت أساعده في صناعة الأبواب المعدنية. مهنة اتعبتني كثيرًا وتركت في بياض عيني ندوبًا دقيقة حمراء اللون من الشرر المتطاير خلال صهر الحديد أو لحمه ببعض.
تركت هذه المهنة عندما أصبحت في الكلية وبت أشتري وأبيع الكتب في الجامعة لأحصل على المال الذي أسد به جزءًا من تكاليف دراستي.
بسبب المخاطر التي تحف الشوارع خشية الانفجارات أو الاختطاف لم تكن الطالبات قادرات على الذهاب بمفردهن إلى شارع المتنبي أو مكتبات شارع السعدون لشراء ما يحتجن من كتب ومصادر. وظفت هذه الحالة لصالحي لأصبح الممول الرئيسي لكل ما يقترحن علي من عناوين كتب.
آخذ عنوان الكتاب وأنطلق إلى شارع المتنبي.. أبحث عنه بين الرفوف المتربة.. لا أعطي العنوان لصاحب المكتبة كي لا يفرض علي سعرًا باهظًا إن اكتشف بأنني قصدته باحثًا عن هذا الكتاب بالتحديد.. وانما أقضي بعض الوقت بالبحث حتى أعثر عليه بنفسي وعندها أتظاهر بأن هذا الكتاب العابر لفت انتباهي للتو.. أسأل عن السعر بلا مبالاة وأتركه، وبعد دقائق من البحث بين الرفوف أعود إلى ضالتي مجددًا وكأنني قررت للتو أن أشتريه بدلًا من مغادرة المكتبة خالي اليدين. وفي الكلية أبيعه بضعف الثمن.

أما مهنة الحفر فهي شيء لم أجربه بتاتًا، لذا شعرت بتعب كبير وبالحاجة للنوم. أرغب بالتجوال في الأحياء التاريخية لمدينة الموصل لكن قدمي الثقيلتين حالتا دون ذلك.
لاح لي ضريح النبي يونس من بعيد رابضًا فوق مرتفع يتوسط المدينة ومحاطًا بالقليل من أشجار الجوز.
سرت صوب الضريح بحثًا عن طمأنينة أئنس بها قرب ذلك القبر. ذلك هو المكان الوحيد الذي أعرفه في الموصل. أثناء صعودي التل جذبت انتباهي حفرة واسعة في منتصف تل التوبة. كأنها حفرت منذ بضعة أيام.

توقفت قربها قليلا؛ حدثتني نفسي بالدخول هناك لكنني ترددت خشية أن يكون هناك أفاع في قلب التل... واصلت صعودي حتى بلغت بناية الضريح. بقيت جالسا تحت القبة الهرمية أتسلى بقراءة الآيات والأدعية التي نقشت بخط الثلث...
التشابك في الحروف والحركات منعني من قراءة كل ماهو مكتوب على السقف فاكتفيت بترديد الآيات التي ساعدتني أمي بحفظها في صغري.
اكتفيت بما منحتني من آيات ولم أضف إليها شيئًا.. وكأنني أعتبرت أمي هي نبيي ولا آخذ أكثر مما جاءني عنها.
الإسلام الذي أعرفه هو الدين الذي وصلني منها. أراه دومًا دين محبة وألفة لأنه أتى إلي عن طريقها.
أما الإسلام الذي أرى جرائمه في الشارع فهو دين لا أنتمي إليه ولا أعرف مصدره، دين لم تحدثني أمي عنه من قبل. وحينما أراهم على شاشة التلفاز وهم يتغنون بفداحة عنفهم أدرك بأنني لا أعبد ما يعبدون...

بقيت جالسًا في صحن الضريح لا أدري ما أفعل وكيف سأتدبر أمري إذا جن علي الليل وأنا باق في هذا المكان لا أبارحه بالصدفة كما وصلت إليه بصدفة مازلت بعيدا عن فك شفراتها.
عشرة ليرات بجيبي، أجهل قيمتها في السوق, ماذا يمكن أن أشتري بها؟
اقتربت مني امرأة تغطي جسدها بعباءة سوداء تحول لونها إلى رمادي وتهرأت أذيالها:
ـ أرجوك يا ابن الحلال..هل يمكنك أن تمسك ابنتي بين يديك ريثما انتهي من صلاتي؟
ـ آ... بالطبع ناوليني إياها.
أخذت الرضيعة ووضعتها في حجري. جذبني وجهها الملائكي. نائمة وشفاهها شبه مبتسمة, ابتعدت الأم عني لتركن إلى إحدى الزوايا وبدأت تصلي بحركات سريعة, خمنت أنها تفعل ذلك كي تنهي الصلاة قبل أن تصحو إبنتها الصغيرة:
ـ ما اسمك أيتها الصغيرة؟ ما عمرك أيتها الطفلة؟ سنة... ربما أكثر بقليل, أليس كذلك؟ هل تعلمين بأنكِ الآن طفلة بين يديَ لكنك أكبر مني عمرًا؟. أكبر مني بكثير. بكثيير.. أكبر مني بقرن ونصف... هه، يا للجنون!

من سيصدقني لو قلت ذلك على الملأ؟.. هل سيتردد, من يسمع قولي هذا, باعتباري مجنونا؟.. ربما هم على حق وأني أصبحت فعلًا على حافة الجنون. ربما أنا مجنون فعلًا دون أن أدري؟!
وهل المجنون يعلم بأنه كذلك؟ يظن المجنون نفسه أعقل من في الوجود؛ والغبي يعتبر نفسه أذكى من غيره. وأنا كذلك، لا أظن نفسي مجنونًا ولا غبيًا ولست متأكدًا من هذه ولا تلك.
لو كنت مجنونًا فهل سأكون قادرًا على اكتشاف ذلك؟ كل المجانين يرفضون الذهاب إلى المستشفى لأنهم لا يقرون بجنونهم فكيف سأقر أنا بجنوني إن كنت واحدًا منهم؟!. على الاقل أنا أتساءل وهذا جيد كبداية..
ربما أنا هنا منذ ولادتي وأظن نفسي جئت من زمن آخر!.. وكيف سآتي من زمن آخر، هل هذا يعقل؟!! هل يمكن لرجل يبيت في منزل ببغداد ويصحو فيجد نفسه في الموصل؟! وما المغزى من كل هذا؟
اقتربت المرأة مني ولا تزال على عينيها آثار دموع ذرفتها خلال صلاتها, كم وددت أن أعرف ما توسلته خلال سجداتها السريعة:
ـ شكرا لك يا سيدي على هذا المعروف؛ أتعبتك معي.
ـ بكل سرور.
ـ هل كنت تحدث نفسك؟
ـ آه.. كلا، كنت فقط ألهج بالدعاء.
ـ هذا واضح، فأنت بحضرة صاحب الحوت عليه السلام.

راقبتها وهي تغادر بعدما لفت ابنتها بعباءتها السوداء لتحميها من حرارة الشمس الساطعة؛ نظرت إلى القبر المحاط بشباك تزين بنقوش مطلية بالفضة وقد زال الطلاء عن بعض الجوانب لتعاقب الأيدي التي تمسحت بالشباك تبركًا وهي تتوسل ربها هناك:
ـ صاحب الحوت.. هل يمكنك أن تنقذني مما أنا فيه؟
هل حدث لك مثلما يحدث لي الآن؟... أنا أيضًا مثلك غارق في بطن حوت عملاق لا أعرف كيف أتخلص منه... بماذا كنت تفكر يا ترى وأنت في بطن الحوت؟.. ألم تكن خائفًا وسط ذلك الجوف الرطب, ولماذا تخاف وأنت نبي؟!

ربما أنتم أيضا تشعرون بالخوف كما تشعرون بالعطش والجوع، لكن هل شعرت بالوحدة التي أشعر بها الآن؟ هل شعرت بالعزلة في تلك الظلمة المطبقة في جوف الحوت؟...
هل قارنتها مع ظلمة القبر مثلا؟... هل فكرت بي؟.. هه... ومن أنا لتفكر بي؟.. ثم كيف لك أن تعلم بوجودي بعد آلاف السنين كي تفكر بي؟!. ولم لا؟ ألست نبيا؟!
كم كانت يا ترى تلك المدة التي بقيت فيها في الحوت؟ ربما فكرت حينها بأنها النهاية، لكن الحوت فتح أبوابه أمامك لتنفرج تلك الظلمة وتنتهي؛ فهل ستنفرج عني هذه المصيبة؟ هل ستنفرج فوهة الزمن أمامي لأعود من حيث أتيت؟ أم تراني سأبقى في بطن هذا الحوت العملاق أجهل مصيري.
لكن كيف تناول الحوت وجباته وأنت في جوفه؟ هل كان صائمًا عن الطعام حينها؟!. وكيف كنت تتنفس؟!. هل هنالك هواء في جوف حوت! غريب أمرك يا صاحب الحوت!

بينما أنا غارق في تساؤلاتي المتواترة دخلت زمرة من الرجال يرتدون عباءات عربية مغبرة, آثار الطين لم تغادر أذيالها. كانوا يقتادون عنوة فتى دون العشرين من العمر! نظراته تائهة والخوف يخيم على وجهه ويتلاعب بملامحه الخجولة.
يسير بمحاذاتهم بخطوات أبطأ من بقية رفاقه. أثار استغرابي القيود التي كبلت معصميه فظننت بأنه سرق منهم شيئًا وقد أتو به هنا ليؤدي قسم نكرانه للسرقة.
اقتربوا من الضريح وأخرج أحدهم حبلًا من كيس بني اللون؛ ربط الحبل بالشباك الفضي للقبر وانشغل اثنان من الرجال بلف الطرف الآخر حول صدر الفتى.
لم أفهم ما يحدث إلا أنني خشيت أن يكونوا ينوون شنق الفتى! لماذا يربطونه من صدره إن كانوا سيشنقونه؟! سوف أسألهم...
كلا وما شأني أنا.. قد يؤذونني إن تدخلت. لأبقى في مكاني هذا بدلًا من التورط بما لا يعنيني، يكفيني ما نالني خلال هذين اليومين.

استمر الفتى بدفعهم بقوة محاولًا الهرب فاقترب منه أحدهم وكلمه بصوت قريب من التوسل:
ـ يا بني. يا ولدي العزيز، اهدأ أرجوك. نحن نفعل هذا من أجلك.

فتح أحدهم لفافة من القماش الأخضر كان يضع بداخلها قرآنًا وبدأ يتلو سورة يس بصوت عال. استمر يقرأ حتى وصل تقريبًا إلى منتصف السورة؛ صدرت من الفتى صرخة مجلجلة أفزعتني وكذلك من حوله من الرجال..
تراجع أحدهم وهو مستمر بالتكبير بينما قفز شاب في منتصف الثلاثينات من العمر مقتربًا من الفتى الممدد أرضًا وأخذ يؤذن بأذنه بصوت مرتفع ومتوتر. استمرت تلاوة القرآن والآذان لعدة دقائق.
تملكني إحساس غريب، شعرت برغبة بالصراخ بدلًا من ذلك الفتى! لكن صراخ الفتى ملأ صحن الضريح وأفزع كل من فيه..
حبست صرختي في صدري... كان الصراخ يصدر من صدري ويبقى حبيسًا بين أضلاعي، فيخرجه ذلك الفتى بدلًا عني فأشعر بالراحة بتفريغ تلك الشحنات الغريبة التي أحاطت بجسدي.
شعرت بشحنات غريبة تربط بين جسدينا. ارتجفت يدايَ وساقايَ دون أن أشعر, أصابتني النوبة عينها إلا أنني لم أصدر صوتًا ليلفت انتباههم. لحسن حظي لم ينتبه أحدهم لذلك, فالجميع مشغول بذلك الفتى.
بقيت جالسًا في مكاني لا أتحرك وكأنني فقدت السيطرة على ساقي وخارت قواي ولم أعد قادرًا على مبارحة المكان. تحول الشاب الذي كان يؤذن في أذن الفتى إلى قدمه وسحب ساقه المقرفصة على معدته.
قاوم الفتى بوجه متوتر محاولا الإبقاء على ساقيه مطويتين نحو بطنه لكنه استسلم عندما بات اثنان من الرجال يسحبون ساقيه بقوة.
انحنى أحدهم نحو قدم الفتى وعض إبهامه بقوة وهو ممسك بساقيه كي يمنعه من الحركة. برغم ذلك لم يفلح أحد بمنع جسد الفتى من الارتجاف العصبي. اشتدت حركة الفتى حتى أصبح متصلبا كجذع نخلة ويهتز بخفة سعفها عندما يرقص مع الرياح.
لم تتوقف تلاوة القرآن بينما حدق الجميع في ذلك الفتى الذي فقد وعيه تمامًا.

خرج الكثير من اللعاب من بين فكيه المتشنجين وسال على خده حتى رقبته. ابتلت أعلى دشداشته بلعابه فانحنى والده ليمسح وجه ابنه بعباءته وهو يتمتم بآيات قرآنية وعينيه مغرورقتان بالدموع. اقترب من وجه ابنه وقبله من خده وفمه الرطب ثم استوى جالسًا بقربه وسحبه إلى حجره وضمه بين يديه بشدة محاولًا أن يوقف ارتجافه العنيف.
نزل القليل من الدمع من عيني دون أن أشعر، خيل لي وكأنني أسقط في هوة عميقة ومظلمة.
تقدمت نحو زمرة الرجال، نظرت إلى عيني الفتى الذي بقي ممددًا أرضًا؛ كأنه أراد أن يقول لي شيئًا. لمحت شفاهه تسعى إلى الحركة لكنها بدت كشفاه مشلولة تحاول كسر قيود عجزها.
غريب ما أراه! هذا الشاب.. إنه يشبهني تمامًا!!
كأنني أنظر إلى صورتي في المرآة..
نظرت إلى بقية الرجال. لم يلحظ أحد منهم ذلك الشبه؛ فقد انشغلوا بالصلاة والدعاء ولم يعرني أحد منهم أي اهتمام.
توقف الرجل عن قراءة القرآن بعدما أنهى سورة يس، تقدم نحو الشباك الذي يحيط بالقبر. مسح الشباك بقطعة قماش خضراء كانت تغطي القرآن ثم انحنى نحو الفتى الذي بقي عاجزًا عن النهوض وعصب رأسه بقطعة القماش تلك وهو يبسمل.
خلع أحدهم عباءته البنية ونفضها من التراب قبل أن يغطي بها الفتى المستلق على الأرضية الرخامية:
ـ لنتركه يرتاح قليلًا. يبدو أنه لن يقوى على المشي إلا بعد نصف ساعة أو ربما أكثر.
سحب والد الفتى رأس ابنه عن حجره ببطء, طوى عباءته عدة طويات ليحولها إلى وسادة تحت رأس إبنه. تركه مستلق أرضًا وانزوى نحو أحد الأركان مبتعدًا عنا وبدأ يصلي مفترشًا الأرض الرخامية الباردة.
لمحت دمعة براقة سالت من عيني الفتى المغمضتين؛ نزلت دمعته حتى اختلطت بلعابه. فتح عينيه وكأنه أراد أن يقول لي شيئًا, لكنه لم يقو على الكلام. رأيت نظرات الخجل في عينيه. لم يكن سهلًا أن يتعرض لهذه النوبة أمام أولئك الرجال وأمامي أنا أيضًا.
ابتسمت له علّه يفهم بأنني لا أستهزئ أبدًا بما يعاني منه.

* * *

نزلت من تل التوبة وأنا أودع النبي يونس. كنت أعلم بأنني أودعه الوداع الأخير. توقفت قليلًا لأتأمل البيوت التي تحف بالتل قبل أن أغادره.
سعادة كبيرة تملأ قلبي لأنني تمكنت من رؤية المدينة التي لم يرها أحد من أبناء جيلي. لا يخطر على بال أحد من زوار ذلك التل بأنه سيزول قريبًا ولن يبقى منه غير رماد يتطاير في الهواء وقليل من صور ضبابية في الذاكرة.
سرت بخطوات بطيئة مبتعدًا عن التل. أي باب سأطرق لأبيت فيه ليلتي؟ من جديد رددت بصمت: لا أصدقاء في هذه المدينة.
توجهت نحو البقعة التي وجدت نفسي ممددًا عليها للمرة الأولى.
وقفت قليلًا هناك وأنا أتوسل تلك الأرض أن تبتلعني وتعيدني من حيث أتيت. لبرهة ظننت أن هنالك ممرًا سحريًا مخفيًا تحت تلك الأمتار القليلة. تمددت عليها كما وجدت نفسي عند بداية هذا الكابوس، أغمضت عيني علني أغفو قليلًا وأصحو من بعدها لأجدني على سريري في بغداد...

لم يتغير شيء!...

لا بأس من الانتظار قليلًا، الصبر مفتاح تتكسر أمامه الأبواب الموصدة.
أغمضت عيني بقوة، سمعت صهيل جواد ووقع حوافر تقترب مني. صاح أحدهم بأعلى صوته:
ـ أيها المجنون! ابتعد عن هنا.

فتحت عيني بسرعة لأرى جوادًا بني اللون يقترب مني وهو يجر وراءه عربة صغيرة. قفزت من مكاني بسرعة وركضت مبتعدًا عن طريقه متحاشيًا أن تسحقني تلك الحوافر الصلبة.
لا فائدة من هذه المحاولة لأنني أجازف بحياتي بلا جدوى. سرت قليلًا نحو الحي الذي التقيت فيه هرمز بالأمس علني أصادفه من جديد وأطلب منه المساعدة...

انتظرت طويلًا في الزقاق... راقبت الأطفال وهم يلعبون لعبة الاختباء ويذرعون الأزقة ركضًا دون أن يشكو أحدهم من التعب. شعرت بالملل من الانتظار دون جدوى.
أنين معدتي ذكرني بأنني لم آكل منذ ساعات. قادتني قدماي نحو ضجيج البقالين لأجد نفسي وسط سوق صغير مليء بالمارة. صياح البقالين أمام محلاتهم بدد شعوري بالوحدة والغربة.
فكرت بشراء شيء يؤكل بسهولة دون حاجة لتحضير أو طبخ. استقر خياري بالنهاية على الخبز والجبن. تعودت أكل هذه الوجبة منذ رحيل والدتي عنا. أمست هذه الوجبة هي فطوري وفي أغلب الأحيان عشائي. لم أعد آكل إلا ما لا طعم له.
جلست في مقهى وسط السوق وبدأت أتناول عشائي مع الشاي. ناولت صاحب المقهى ليرة واحدة لأدفع ثمن الشاي. نظر إليَ باستغراب:
ـ أليس لديك قرش واحد؟!
ـ أخرجت قرشًا من جيبي ودفعته لصاحب المقهى.

يبدو أن الليرة الذهبية كانت تستخدم فقط لدفع ثمن البضائع الغالية. أما القروش الصغيرة فهي العملة المتداولة في الأسواق. أدركت حينها بأنني لست فقيرًا. على الأقل في هذه الليلة. فبحوزتي خمسمئة قرش.
راقبت بعين فضولية رواد المقهى المنهمكين بالكلام عن حاكم الموصل. بعضهم يبدي امتعاضه بسبب الحملة التي شنها الوالي لطرد اليزيديين من جبال سنجار وأسره لبعض شيوخهم ومنحهم الخيار بين الموت شنقًا أو الدخول في الإسلام:
ـ لا يا أبو ذنون ما فعله لا يغتفر.. لقد أعدمهم أمام الملأ بحجة الإسلام.
ـ كلا هي ليست حجة يا صالح؛ الوالي ينشر الإسلام الحنيف.
ـ دعك من هذا، هل الوالي مكلف من النبي بنشر الإسلام؟!
ـ ولم لا، الحاكم مكلف بهذا.
ـ وهل الإسلام دين جديد بحاجة للإنتشار؟... هذا ظلم. ما قام به الوالي هو جريمة.
ـ أششش. اخرس.

ـ أخفضا صوتيكما رجاء. سيسمعكما جواسيس الوالي ويلقون بنا جميعًا في السجن. أتركانا نبيت ليلتنا مطمئنين بدلًا من التورط مع الحكومة.

نظروا إليَ خلسة، ها هم من جديد يرموني بشبهة التجسس. نهض الرجال من مكانهم وهم يرمقوني بنظرات تأرجحت بين الإتهام والريبة.
فكرت بالتوجه إلى الخان بعد أن أنتهي من شرب الشاي؛ قررت ألا أفكر في الغد، فقد أصحو غدًا لأجد نفسي في البيت. نعم سأنام في الخان وقد ينتهي هذا الكابوس الطويل عند بزوغ نهار جديد.
كم يصعب عليَ التمييز بين الحلم والحقيقة. لطالما مررت بأشياء لم أكتشف بأنها حلم إلا عندما صحوت. وكم شعرت بالخوف من مواقف فرحت باكتشافي بكونها حلم. وكم من مرة حزنت عندما اكتشفت بأن ما مر بي قبل قليل لم يكن إلا حلمًا ناعمًا. حتى تجاربي الجنسية الاولى كانت أحلامًا عشتها حتى الذروة...
وكذلك قبلتي الأولى مع وسن حلمت بها وقضيت وقتًا طويلًا وأنا أسعى بلهفة لتحقيقها.
وسن.. ماذا تراها تفعل في هذه اللحظة وكيف السبيل للعودة إليها؟.. ماذا سأفعل لو اكتشفت بأن هذا ليس حلمًا؟ هل ما أعيشه الآن حياتي أم حياة شخص آخر عاش في هذا المكان قبل قرون؟
ما أراه الآن ليس إلا ذكريات؛ لكنها ذكريات أناس آخرين! لماذا أعيشها أنا بدلا عنهم؟!
أنا لا أؤمن بالتناسخ... حتى لو كان التناسخ صحيحًا فالمفروض أن أنتقل إلى حياة جديدة نحو المستقبل وليس نحو حياة انقضت في الماضي!
هذا الجيل الذي أراه أمامي مات وفني منذ عهد بعيد، فلماذا يتجه التناسخ هذه المرة إلى الوراء وليس إلى الأمام؟!

دخل المقهى رجل يرتدي جلابية بيضاء قصيرة يتبعه بضعة رجال ملتحون يرتدون السواد وعيونهم تتفحصنا بنظرات حادة.
جلسوا على مقاعد تبعد عني مترين وانضم إليهم رجال آخرون كانوا على ما يبدو بانتظارهم في المقهى.
انطلق أحدهم بالكلام بصوت مسموع دون خشية أحد:

ـ لقد اطلعنا المفتي بالأمس على الأسرار التي تقف وراء أبحاث ذلك الأجنبي هنري لايارد، وطلب منا أن نبلغ إخوتنا المسلمين بالخطر الذي قد يصيبهم من وراء ذلك الأجنبي اللعين.
ـ ما هو ذلك الخطر؟ لقد أقلقتنا يا أبا عمرو؟!
ـ أخبرنا المفتي بالأمس وهو كما تعلمون لا ينطق إلا بالصدق..
ـ نعم, بالفعل. هو رجل مؤمن وصادق القول.
ـ أخبرنا المفتي بأن لايارد يبحث عن مخطوطات وآثار يعود تاريخها لفترة كانت الإفرنجة والروم تسيطر على هذه الأراضي.. إن عثر على ذلك فسوف يبعثها لبلادهم كي تستند تلك البلاد على أدلة تاريخية باحقيتهم بهذه الأرض ليستولوا عليها ويسلبوا أملاكنا.
ـ ماذا تعني؟! كيف ذاك؟ كيف يستولون على أرضنا؟!
ـ أعني أن المفتي أخبرنا بأن بريطانيا تريد أن تحتلنا ولكن قبل أن تفعل ذلك ترغب باستخراج براهين تثبت ملكيتها لهذه الأرض.
ـ لكن ليس هنالك من براهين تحت الأرض لصالح بريطانيا!
ـ حتى لو لم يكن هنالك براهين فسوف يُزوِرون ويدلسون كي يحتلوا أرضنا. تخيلوا ما سيحل بنا لو خرجنا من حماية السلطان المعظم عبد المجيد الأول لنمسي تحت هيمنة ملكة تكفر بديننا ولا تؤمن بكتابنا. سوف لن يتورعوا عن قتل المؤمنين منا.
ـ وما العمل؟
ـ لن نترك لايارد يدنس أرضنا كما يحلو له.

أدركت بأن هنالك خطرًا مؤكدا يحيق بلايارد ورفيقه هرمز. غادرت المقهى بهدوء كي لا أثير الانتباه وأتعرض لتهمة التجسس من جديد؛ وتوجهت مباشرة إلى منزل هرمز فالليل بدأ يرخي سدوله وبالتأكيد سأعثر عليه في منزله.
سرت في أزقة ملتوية ومظلمة. لوهلة شعرت بالخوف من أن يعترض طريقي أحدهم, فمن يضمن لي بأن أعضاء حزب الرايات أو أتباع داعش ليس لديهم عيون هنا.. كأنني شعرت بأن المفتي وأتباعه ليسوا بالغرباء عنهم..

استقرت يد متينة على كتفي، شعرت بالخوف فاستدرت بسرعة, ابتسامة هرمز أعادت إلي الطمأنينة, كأنني أعرفه منذ وقت طويل:
ـ ها أنت هنا من جديد يا سالم!
ـ آه.. كنت أبحث عنك فها أنت تظهر أمامي.
ـ مازلت تبحث عن عمل؟
ـ كلا, إنما لدي خبر مهم لك وللايارد.
ـ أنا أيضا أحمل لك خبرًا قد يفرحك. أحد العمال سقط من فوق التل ولن يتمكن من العمل بسبب رضوض في ساقه.
ـ مسكين ذلك العامل.. لكن لماذا تظن بأن هذا سيفرحني؟!
ـ ههه.. يبدو أنني بدأت الحكاية بالمقلوب. السيد لايارد يبحث عن عامل جديد لأن أحد العمال لن يستطيع العمل إلا بعد مرور أسبوع وربما أكثر.
ـ لكنه سبق وأن طردني. لن يوافق على عودتي معكم.
ـ لا تقلق. فقط أحببت أن أعرف إن كنت ترغب بمساعدتنا أم لا؟
ـ لا أظنك ستفهمني يا هرمز, أنا أرغب باستخراج تلك الآثار لكنني أسعى لأبقائها هنا, في هذه البلاد.
ـ لكن بقائها هنا يعني ببساطة زوالها على أيدي المخربين. ما نقوم به قد يعتبر عملية إنقاذ... دعك من هذا الأمر, سأكلم لايارد لتعود معنا. فأنا لا أظنك تعمل لصالح الفريق الألماني. هو يثق بي.
ـ ما أردت أن أخبركم به هو أن رجال المفتي يبثون إشاعات بشأن لايارد. يقولون بأنه يسعى لاستخراج آثار ليسهل لبريطانيا من خلالها السيطرة على الموصل. أنهم يسعون لإيذائك أنت ولايارد.
ـ إنه أمر خطير، سنحدث لايارد بهذا عند الفجر.

خلال الطريق نحو منزل هرمز كنت أفكر بما سأقوم به في الغد إن بقيت في نفس المكان.. لا أحب الحفر في التلال ولست مقتنعًا تمامًا بكلام هرمز، لكن ما سمعته من محمد بشأن ما يعيشه في الموصل بسبب داعش جعلني أراجع أفكاري..
استلقيت من جديد على السرير الخشبي, ربما البقاء هنا أفضل بكثير من العودة. بدأت أفقد الأمل بعودتي من حيث أتيت. يبدو أنني لست في حلم, وما أنا بنائم, ولن أستيقض, وما من نهاية لهذا الكابوس.

كل شيء سيبقى على حاله! تلك هي آخر كلمة رددتها قبل أن أغفو.

رحب لايارد بعودتي مبتسما:
- "ويلكوم ويلكوم كرايزي مان".

ربما قال لي ذلك على سبيل الدعابة وقد أكون بالفعل "كرايزي مان".
شرح هرمز للايارد ما سمعته بالأمس، ارتسم القلق على وجه لايارد المتعب من السهر لكنه وصل بالأمس إلى نقطة اللاعودة وبدأ عمله أخيرًا يؤتي ثماره.
وافقت بالعمل معهما بعد تردد، لبرهة شعرت بأنني لا أملك الخيار وسط عالم لا أنتمي له. أقنعت نفسي بأن كل شيء مسموح به لأنني في حلم. إن كنت أحلم فكل شيء مباح إذن...
لا مسؤولية تقع عليَ حتى لو ارتكبت جريمة, فمن سيكتشف ذلك ليحاسبني؟

لم يخبرني هرمز بكل التفاصيل قبل عودتي إليهم، انكسرت ساق أحد الحفارين حينما كان يساعدهم في إخراج ألواح حجرية ضخمة عثر عليها العامل عندما حفر في أعلى التل.
تتضمن تلك الألواح منحوتات لملاحم ومعارك وقعت خلال ذروة مجد الإمبراطورية الآشورية, ومؤطرة بكتابات مسمارية دقيقة.

في البداية لم يفهم هرمز سبب بقاء لايارد طوال الليل واقفًا أمام تلك الألواح الصخرية. فهرمز لا يرى فيها أكثر من منحوتات تصور مقاتلين آشوريين في غمار معركة حامية.
طلب منه أن يرتاح قليلًا في خيمته لكن لايارد رفض التحرك من مكانه، رفض حتى أن يحول عينيه عن المنحوتات.. توجه مسرعًا بعد طول تأمل إلى صندوقه المعدني وأخرج منه كتابًا سميكًا، تعرف هرمز إلى الكتاب بسرعة:
- هل ستقرأ الكتاب المقدس الآن؟!
أشار لايارد بيده وهو يعود مسرعًا نحو الألواح الضخمة.

ـ ألا ترى ما أرى أمامي؟!
ـ نعم، انها نقوش تصور مقاتلين في حرب.
اقترب لايارد من الألواح ومرر يده برفق على تلك النقوش كأنه يداعب خدود طفل نائم يشعر برغبة بتقبيله لكنه لا يجرؤ خشية إيقاظه وقطع أحلامه الملائكية:
ـ هل سنقضي اليوم ونحن نداعب هذه الأحجار؟!
ـ هذه ليست أحجارًا.. انظر. إنها جيوش آشورية تحاصر المدن؛ وهنا تعبر الأسوار وتقتحم تلك المدن بعد قتال دام.. انظر إلى هذه اللوحة؛ الجيش يقتاد السكان نحو بلاد آشور... تكلم أنت ماذا ترى في هذه الأخيرة؟
ـ أرى أحدهم يسجد أمام.. ربما أمام ملك.
ـ نعم، هذا الذي يسجد هو الملك العبراني جيهو بن عمري، إنه ملك تلك المدينة التي تم اجتياحها في هذه اللوحة... إنها التوراة.
ـ التوراة ؟!!
ـ إنها ألواح عظيمة يا هرمز... هذه الألواح تروي سفر إشعياء، انه حصار لاخيش وأورشليم.
ـ أنا لا أرى ما تقول!
ـ بل هو كذلك. اسمع...
بقي لايارد يبحث بين صفحات الكتاب المقدس بيدين مرتجفتين:
ـ اسمع..
ـ هيا أسمعني. ماذا تنتظر؟
ـ نعم ها هو...
بدأ لايارد يقرأ مقطعا من كتاب التوراة:
ـ "هذا يوم شدة وتأنيب وإهانة.. لعل الرب يسمع كلام ريشاقي الذي أرسله ملك آشور.. صعد سنحاريب على كل مدن يهوذا الحصينة وأخذها... الآن أتيت به فتكون لتخريب مدن محصنة حتى تصير روابي خربة. فسكانها قصار الأيدي قد ارتاعوا وخجلوا حتى صاروا كعشب الحقل وكالنبات الأخضر، كحشيش السطوح وكالملفوح قبل نموه" ...

ـ لكن يا لايارد أنت تعلم بأن سفر أشعياء مجرد نبوءات لا أكثر.

نظر لايارد لهرمز دون أن يتأثر يقينه بما عثر عليه, قلب بعض الصفحات ثم قال لهرمز من جديد:
ـ هل أسمعك ما جاء في سفر الملوك الثاني؟

لم ينطق هرمز بكلمة فانطلق لايارد يقرأ بصوت منفعل ومتقطع:
ـ **"اجتاح سنحاريب ملك آشور جميع مدن يهوذا الحصينة واستولى عليها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا يقول لملك آشور في لخيش: أخطأت فارتحل عني, وأنا أدفع ما تفرضه علي من جزية."**
ـ وهذه اللوحة الثانية تمثل المقطع التالي.. اسمع,
"فقبض عليه ملك آشور وزجه موثقا في السجن. واجتاح ملك آشور أرض إسرائيل, وحاصر السامرة ثلاث سنوات. وفي السنة التاسعة من حكم هوشع سقطت السامرة, فسبى ملك آشور الإسرائيليين إلى آشور وأسكنهم في مدينة حلح, وعلى ضفاف نهر خابور في منطقة جوزان, وفي مدن مادي. لأنهم أبوا الاستماع لصوت الرب إلههم, ونكثوا عهده وكل ما أمر به موسى عبد الرب, ولم يعملوا بها."...

18

دخلت إلى الخندق في قلب التل وبدأت أحفر.. تمنيت أن أعيش لحظة اكتشاف آثار مهيبة قبل أن أعود من حيث أتيت.

أصبحت في حفرة، وسأحفر... سأحفر لتتوسع الحفرة, والكل يحفر من حولي, وسنتناوب على الحفر ونرتاح كي نحفر... وبانتظار مفاجئة جديدة, وقبل أن يصل المفتي ورجاله علينا أن نحفر.

عند منتصف النهار سمعت وقع حوافر خيول خارج التل تقترب منا. بقيت في باطن التل ممسكًا بمجرفتي بينما خرج لايارد ليستطلع الأمر. تأخره عن العودة دفع هرمز للالتحاق به، تبعته بعد ثوان قليلة.
أعرف بأنني تحولت إلى إنسان فضولي. لا أحب أن أكون كذلك لكن ظني بأنني في حلم يشجعني على أن أبيح لنفسي ما أخجل منه.
خرجت لأستطلع الأمر، على الاقل ليكون لديَ شيء أرويه عندما أعود!

كان هناك شرطيان أو ربما عسكريان ببزات عثمانية ويكلمان لايارد بلغة مخلوطة بين التركي والعربي وشيء بسيط من الإنجليزية.. مضحك هو اللسان الذي يخلط أكثر من لغة في عبارة واحدة! لهجتهم صارمة آمرة. وغادرانا دون أن يترجلا من جواديهما الرماديين, آخذين معهما تلك الفرحة التي كانت متوردة على وجه لايارد.
اقترب هرمز من لايارد وقدم له قنينة مليئة بالماء. شرب منها قليلًا ثم توجه لصندوقه المعدني وأخذ خريطته وبدأ يتفحص موقع الجبال التي تحف بمدينة الموصل من الشمال.
ـ هل كل شيء على ما يرام؟
ـ نعم يا هرمز... كل شيء على ما يرام.
ـ ماذا أرادا منك؟
ـ الحاكم يطلب مقابلتي حالًا.
ـ هل سيطلب الضريبة من جديد كي نواصل العمل؟
ـ كلا لقد أعطيته ما يريد. هو يرغب بتكليفي بمهمة الوساطة مع سكان جبال سنجار.
ـ اليزيديين؟! ماذا يريد منهم من جديد؟! ألا يكفيه ما فعله بهم قبل أشهر؟!
ـ لا أدري... لكن أعتقد أنه يسعى للصلح وتطييب الخواطر.
صمت قليلا ثم تكلم من جديد:

ـ اسمع يا هرمز، أريد منك أن تبحث لي عن عمال إضافيين يبدؤون العمل معنا منذ صباح الغد. هذا المشروع يجب أن يعطي ثماره بأسرع وقت ممكن.
ـ لكنه أعطى ثمارًا لا بأس بها.
ـ ما عثرنا عليه غير كاف... يجب أن أعثر على شيء غير مألوف، شيء يحبس أنفاس المتحف البريطاني ليمول مشاريعي المقبلة. أريد أن أخرج من قلب تلال النمرود عملًا فنيا يظاهي ما أتى به نابليون من مصر.
سأعتمد عليك يا هرمز بتوسيع فريق عملنا.

قبل حلول المساء كان هرمز قد اتفق مع رجال من أتباع الشيخ عبد الرحمن الذي يكن للايارد كل التقدير والاحترام. كنت سعيدًا بالتحاق مجموعة من الرجال بفريقنا لأن أصابعي تورمت من خشونة المعاول.
لم يكن هرمز متفائلًا بمهمة الوساطة التي سينفذها لايارد.
قضينا ساعات بالحديث عما فعله الوالي العثماني وكذلك سلفه الوالي محمد باشا الكرديلي باليزيديين في العام الماضي. طبعًا في العام الماضي بالنسبة لهرمز.
لم يستغرب لجهلي بأحداث تلك الواقعة لأنه اعتقد أن الحكومة العثمانية أخفت عنا أبناء العشائر ما يجري من مجازر في لواء الموصل.
برغم دراستي للتاريخ لا أذكر بأنني قرأت شيئًا عن تلك المجزرة! فالدولة العثمانية هي التي كتبت تاريخ تلك المرحلة لأنها كانت منتصرة.
اجتاح الحاكم العثماني جبال سنجار بجيش جرار وقتل المئات من عشائر اليزيديين.. من وقع بالأسر جيء به إلى المدينة ليوقع بهم أشد العذاب عندما رفضوا الدخول في الإسلام...
أذاقهم عذابا جعلهم ينفرون من الدين الذي بشرهم به.. وأنذرهم بالموت إن لم يذعنوا. كثيرون هم الذين اختاروا الموت في تلك الساعة.

في صباح اليوم التالي طلب لايارد من هرمز أن يرافقه إلى القنصلية الفرنسية التي فضل أن يزورها قبل التوجه إلى الوالي العثماني تاهيار باشا. ولأنني لم أكن أعرف الطريق إلى تل النمرود بمفردي اقترح هرمز على لايارد أن يصطحبني معهما إلى القنصلية.

لم يمانع لايارد لذلك المقترح فقد كان يرغب برفقة من أبناء البلد عندما يسلك طرقات الموصل بدلًا من السير بمفرده. لا أدري ماذا يمكن أن أعتبر نفسي، هل أنا فعلا من أبناء البلد؟ فهرمز يعرف كل الشوارع والأزقة وأسماء ساكنيها؛ أما أنا فلم أكن أعرف غير الطريق المؤدي إلى تل التوبة حيث يقع ضريح النبي يونس...
خرجنا من زقاق ملتو لنلج في آخر. مررنا من بين مجاميع أطفال يلعبون ويركضون بحرية وانفعال دون أن يلاحظوا مرورنا من بينهم. ابتسمت وأنا أتطلع إلى هالة البراءة التي تنير وجوههم.
لم يسمح لنا لايارد بالدخول معه إلى القنصلية، اقترح علينا أن نبقى بانتظاره عند البوابة لكن هرمز فضل أن نجلس في المقهى المقابل للقنصلية.
ارتشفنا قدحين من الشاي الأسود بانتظار عودة صاحبنا. شعر هرمز بالاضطراب عندما سلم عليه أحد الرجال معانقًا. أدركت بعد ثوان بأنه ابن عمه. اسمه زكريا ولا يتوقف عن طرح الأسئلة.
يسأل عن كل شيء، على العكس من ابن عمه هرمز الذي لا يحب الثرثرة, لم يجذب انتباهي غير السؤال الخامس والعشرين أو السادس والعشرين:
ـ ما الذي تنتظره قرب القنصلية الفرنسية؟
ـ أنا هنا بانتظار السيد هنري لايارد؟
ـ هل لازال أصدقائك الأجانب يحاولون العثور على مُزيف النقود الفرنسي؟
ـ كلا، لا أعتقد ذلك. أظنه هرب من البلاد ولن يعود.

قررت أن أشارك أنا أيضًا في مهرجان الأسئلة:
ـ من هو مزيف النقود هذا؟

أجاب زكريا عن سؤالي بوابل من الأسئلة:
ـ كيف لم تسمع عنه؟! لقد عرضوا جائزة لمن يأتيهم به. هل كنت نائمًا؟ ألم تشارك بالبحث عنه للحصول على الجائزة؟
ـ سالم ليس من الموصل؛ ولم يسمع عن قصة مزيف النقود الفرنسي.

ـ آه.. فهمت... إنه مزور فرنسي كان يعيش هنا منذ سنين وقد تزوج من امرأة موصلية؛ هو موهوب بالرسم والنقش. استغل موهبته في تزوير النقود الورقية؛ وعندما اكتشفت السلطات العثمانية قصته هرب تاركًا عدة التزوير في بئر المنزل. ترك دليل إدانته وفر.
لم أكن راغبًا بأن ينهي تلك القصة بهذه العجالة فسألته من جديد:
ـ وهل اعتقلوا زوجته؟
ـ كلا، لم يفعلوا لأنها لم تكن تعلم شيئًا عن نشاطاته؛ هكذا قالت! وهو الآن مطلوب من قبل العثمانيين. أما الفرنسيون أصدقاء هرمز...
ـ هم ليسوا أصدقائي.
ـ طيب كما تحب يا هرمز؛ أما الفرنسيون فيبحثون عنه لتسهيل هروبه إلى خارج حدود الإمبراطورية. الوالي يعتقد أنها جزء من مؤامرة أوروبية لمحاربتهم اقتصاديًا.

لم أتوقع سماع قصة مثيرة كهذه. من جديد أكتشف أن كتب التاريخ التي درستها أهملت الكثير من الأحداث المهمة.. لم أدرس في التاريخ إلا حياة الرؤساء والملوك، لماذا لم يتطرق التاريخ لقصص الشعوب المغلوبة على أمرها، الناس البسطاء؟ هل تعمد التاريخ تهميشهم لمجرد كونهم بسطاء؟ همشتهم الحياة ومن ثمة همشهم التاريخ من بعد!

خرج لايارد من القنصلية فلوَح له هرمز بيده. دخل إلى المقهى، وكأي رجل من أبناء المدينة سلم لايارد بصوت مرتفع على الجميع وانضم إلينا:
ـ سأتوجه إلى السراي لمقابلة الوالي تاهيار باشا. قل لي يا هرمز هل العمال الجدد بدأوا العمل في التل أم لا؟
ـ بالتأكيد، العمل مستمر هناك منذ الفجر وبدون توقف. لا تقلق أنت بهذا الشأن. إنهم يعتبرون هذا العمل فرصة كبيرة لهم بدلًا من أعمال السخرة التي يكلفهم بها الجيش العثماني.

كنت أتمنى زيارة السراي والإطلاع على تفاصيله من الداخل في زمن كانت الإمبراطورية العثمانية تحكم ثلث العالم القديم، لكن الجنود أوقفونا بعيدًا عن المبنى، مرة أخرى طلب منا لايارد أن ننتظره في الخارج.

ـ لا تقل لي يا هرمز بأننا سنجلس في المقهى من جديد.
ـ كلا. لن يتأخر لايارد في الداخل. سننتظره هنا. لن ينفق الوالي الكثير من وقته مع لايارد.
بعد أقل من ربع ساعة خرج لايارد وعلى كتفه حقيبة جلدية صغيرة, لم يفلح لايارد باخفاء شعوره بالتذمر بعد لقاء الوالي:
ـ يبدو أنني سأضطر للغياب عن تل النمرود ليوم أو يومين.
ـ لماذا! كيف ذلك؟!
ـ لست سعيدًا بهذا الأمر, إلا أن الوالي مُصِر على تكليفي بالوساطة بينه وبين قبائل اليزيديين في سنجار. أعطاني رسالة يجب أن أوصلها إليهم دون تأخير.
ـ والعمل؟! والتل! ماذا لو عثرنا على شيء خلال غيابك؟
ـ هذا ما يقلقني. لكن إن رفضت ما طلبه مني تاهيار باشا فسيعرقل عملي. وربما سيكف عن حمايتي من المفتي وأتباعه. وقد يطردني تمامًا من الموصل.
ـ لماذا لا تكلف أحدًا ينوب عنك لهذه المهمة.
ـ قلت لك بأنه مُصِر على أن أؤدي المهمة بنفسي. هو يعرف بأنني على صداقة مع أمراء اليزيديين حسين بك وبابا شيخ ناصر الياس، لذا يعتقد بأنني سأنجح في مهمة الوساطة لحقن الدماء.
ـ لماذا لم تطلب منه تأجيل المهمة ليوم آخر؟
ـ وتظنني لم أقترح ذلك! يريد أن أصل إلى سنجار قبل حلول عيد التجمع اليزيدي. على ما يبدو يخشى أن يستثمر الأمراء عيد الأربعاء المقدس للثأر من العثمانيين.
ـ يبدو أن المهمة واقعة لا محالة.
ـ لا بأس، أنا أيضًا أرغب بمساعدة اليزيديين كي ينعموا بالعيش بسلام... سأعتمد عليك يا هرمز بتسيير العمل بغيابي، وإن اكتشفت شيئًا جديدًا فعليك بإخفائه في منزلك وإن كان كبير الحجم فيمكنك حينها الإستعانة بالقنصل الفرنسي بوتا.
ـ نعم لكنه هو الآخر يبحث عن مدينة نينوى المفقودة في تلال خورسباد. قد يسرق منا ما نعثر عليه.

ـ كلا لن يفعل. سيحترم الإتفاق الذي تم إبرامه بين بلدينا بشأن اقتسام التلال. كما أن نشوة فرحته باكتشاف قصر سرجون الثاني في تلك التلال لن تجعله يفكر بسرقة ما سنعثر عليه.

يبدو أن هنالك نشاطات دبلوماسية بدأت تتحرك بشأن تلك التلال! وإلا من أين ستأتي تلك الاتفاقية بين فرنسا وبريطانيا بشأن اقتسام تلال الموصل!!
لم يحدثني هرمز عن هذا الأمر! وددت لو يغادر لايارد بسرعة كي أتمكن من سؤال هرمز عن هذه الاتفاقية؛ فلو سألته أمام لايارد فسيتهمني كما فعل في السابق بالتجسس لصالح الفريق الألماني في بابل.
كنا نتكلم ونحن نسير نحو ساحة كبيرة ستكون مفترق طرق لنا. سنعود أنا وهرمز إلى تل النمرود لنعمل هناك. أما لايارد فسيتوجه لأداء مهمته في جبال سنجار.
مرت عربة سوداء بمحاذاتنا. نظر هرمز إلى لايارد وسأله بسرعة إن كان يرغب بركوب هذه العربة حتى حدود المدينة ويكمل بقية طريقه سيرًا. وافق لايارد على المقترح فنادي هرمز بسرعة على "العربنجي" ليتوقف.

اختلط نداء هرمز بصراخ رجل يركض بين الأزقة..
صوت مبحوح بين اللهاث والخوف. حين اقترابه منا لاحظ هرمز بأنه أحد الحفارين الذين جلبهم بالأمس لمساعدتنا, أمسكه هرمز من ثوبه المغطى بالتراب ليمنعه من مواصلة الركض بين الأزقة كالمجنون:
ـ توقف عن الصراخ وقل لي مابك؟!
حاول أن يفلت من قبضة هرمز:
ـ دعني يا هرمز لقد خرج لنا النمرود بنفسه من قلب التل!!
لقد خرج النمرود!!!

دهشنا لما قاله الرجل الذي ولى عنا راكضًا بين أزقة المدينة والهلع يكاد يمزق وجهه كما لو أنه رأى الشيطان بين التلال. ركض هرمز ورائه واستوقفه من جديد ليستطلع الأمر, لكنه تكلم بسرعة دون أن ينتظر سؤال هرمز:

ـ قلت لكم لقد ظهر النمرود من بين الصخور؛ فتق الأرض وبرز لنا بعظمته؛ ألا تفهم؟!!
خرج قبل قليل!!! والله, رأيته بأم عيني!

نسي لايارد موضوع الوساطة مع اليزيديين وركض نحو العربة، طلب من السائق أن يجتاز المسافة نحو التلال بأقصى سرعة. كدنا نسقط نحن الثلاثة من تلك العربة عندما سلك العربنجي طريقا مختصرًا ومتعرجًا.
وصلنا إلى أطراف المدينة وواصلنا ما تبقى من الطريق راكضين.
رأيت الشيخ عبد الرحمن للمرة الأولى وهو ممتطيًا جواده ومحاطًا برجاله فوق التلال المحيطة بالموقع. كانوا جميعهم يسددون أسلحتهم صوب تل النمرود، ومتأهبين بانتظار إشارة من شيخهم لإطلاق النار.
اقتربنا من التل فوجدناه قد انهار معظمه وبرز منه رأس عملاق، رأس من الرخام ذو ملامح مهيبة ومتسلطة، ملامح تدعونا للابتعاد عنها وإحناء الرأس احترامًا وإجلالًا.
وجه يصدر نظرة متعالية تجعلنا لا نجد غير الخجل إحساسًا نحتمي به, لأننا نشعر بأن هنالك شيئًا ما ينقصنا مقارنة به. خصلة نفتقر إليها وهو أمامنا يتميز بها عنا.
حتى الشيخ عبد الرحمن، سيد قومه، كان يشعر أمامه بالضعف برغم من كان يحيط به من رجال قبيلته. يلوذ بعصبته وأسلحته لأنه يرى نفسه صغيرًا أمام ذلك الكائن الذي كأنه يحتوي السماء بجبروته. جبروت يخرج من وجهه دون أن يلفظ كلمة، هيمنة تطغى علينا دون أن يسمعنا صوته أو أن يتحرك من مكانه...
اقتربت من العمال الذين تملكهم الخوف والإرتباك. يترقبون حركة من التمثال وهم غير قادرين على الكلام ماعدا التكبير... استمروا بلا توقف بالصياح بصوت مرتبك "الله أكبر الله أكبر" ظنًا منهم بأنهم سيطردون الشياطين التي خرجت من باطن الأرض لتطوف حول رأس هذا المخلوق المرعب.

اقترب لايارد من التل فتراجع بعضهم ليفسحوا له المجال لاستطلاع الأمر. ابتعدوا خطوات إلى الوراء وعيونهم لا تفارق النمرود خوفًا من أن يبدي حركة غير متوقعة فيفوت أوان الهرب قبل أن يصب عليهم غضبه.
لم يجرؤوا أن يولوه ظهورهم. كنت أرى الرأس الذي فتق باطن التل كوليد خرج من رحم أمه بعد فترة حمل دامت لآلاف السنين.
كالجني في حكاية النبي سليمان؛ حبسه في بطن القمقم ليعاقبه.. ومات سليمان دون أن يوصي شيئًا بالجني الذي بقي في القمقم ينتظر.
وهكذا ظن الحفارون وكذلك أهل المدينة؛ تصوروا بأنه سيقتلهم غضبًا لأنه هو الآخر بقي حبيسًا لآلاف السنين في قلب الأرض لا يحيطه غير الظلام.
سيفغر فاه كتنين خرافي ويحرق المدينة..
يراه لايارد كائنا خرج ليفند ما يعتقده قومه خرافات وأساطير، ويراه أهل الموصل وحشًا خرج من عالم خرافي وإسطوري. هكذا تختلف التفسيرات بين الشرق والغرب.
سيبرز ما بقي مخفيًا من جسده ليسحقهم باقدامه. كالفيلة التي أحاطت بأهالي الكعبة لتدوسهم فأتاهم مدد من الله... لكن ما من كعبة في الموصل ليحميها الله...
هذه المرة، لا مدد ولا طير أبابيل... انقطع المدد منذ قرون! كنت واثقًا بأن الله لن يبعث مددًا لحماية النبي يونس وقبره لأنه سوى بالتراب قبل أن آتي إلى هنا.

فرحة كبيرة غمرت لايارد على العكس مما شعر به أهل الموصل.
لم يكن مسيطرًا على مشاعره، كاد يرقص فرحًا. كاد يجن من هول المفاجأة.
وأخيرًا سيصبح مشهورًا في لندن. سيتحول بهذا التمثال الفريد من مجرد مغامر يستجدي المعونة من المتحف البريطاني إلى رجل متفضل على بريطانيا، وربما على البشرية جمعاء.
طلب لايارد منا أن نساعده في الحفر لإخراج ذلك الرأس الضخم؛ هرب الحفارون قبل وصولنا تاركين معاولهم مرمية قرب التمثال. أخفوا رؤوسهم بين الناس المتجمهرين على قمم التلال.

بدأنا نحفر بسرعة, الحماسة لإخراج التمثال من قلب التل هي التي قادتني للحفر بهمة عالية. للمرة الأولى أحفر أسرع من هرمز دون أن يصيبني التعب أو أن أشكو من ألم في يدي بسبب خشونة مقبض المعول.
أنا أيضا كنت أنتظر المرور بحدث كهذا لأرويه فيما بعد.
بينما نحن منهمكون بالحفر دب الناس دبيب النمل من كل حدب وصوب نحو التلال. المئات من رجال الموصل تقاطروا بهدوء بعد انتشار خبر ظهور النمرود في المدينة.
لم يرتوي الحفار من الصراخ وهو يجوب الأزقة راكضًا:
ـ خرج النمرود. ظهر النمرود بعينه.

وصل الناس جموعًا وفرادى يدفعهم الفضول لرؤية ذلك الكائن الأسطوري الذي عاد بعد غياب شبه أبدي.
خلال أقل من ساعة أصبحت المنطقة المقفرة التي لا يصلها غير بعض الرعاة بصحبة خرافهم الجائعة مكتظة بالبشر. غطوا كل التلال المتراصفة وعيونهم صوبنا، يطل من نظراتهم المتسائلة فضول قروي.
يتهامسون بالسؤال عن سر هذا الكائن ال... خرافي:
ـ هل سيتحرك؟
ـ هل سيتكلم؟
ـ ماذا سيقول، وبأي لغة؟
ـ هل سيؤذينا؟
ـ هل هو شرير؟
ـ سيأكل أطفالنا؟
ـ هل هو مفترس؟
كل واحد منهم يطرح السؤال الذي يتبادر إلى ذهنه على من يقف بجانبه والجواب لا يتغير:
ـ لا أدري...

نزيح بعناية فائقة أكوام التراب المحيطة بجسد التمثال بالمعاول التي تركها الحفارون ورائهم. انضموا للحشود فوق التلال وباتوا متفرجين خائفين إلا أنهم لم ينجوا من لوم وتقريع أهاليهم:

ـ أنتم السبب.
ـ أنتم من أخرجتم هذا الوحش الذي سيهجم علينا...
ـ عليكم اللعنة, أخرجتم علينا شياطين الأرض بعدما كانت نائمة.

لم تفارق عيوننا تلك النظرة المهيبة التي يسلطها التمثال على كل من يتطلع إلى وجهه. نحن مستمرون بالحفر وهم يكتفون بالتفرج، ويتقاطرون قرب التل جموعًا وفرادى متخندقين فوق التلال المحيطة بالنمرود وعيونهم لا تفارقنا. كأنهم يتوسلون بنا أن نمسك بلجامه إن هاج ووثب عليهم. خلال أقل من ساعة واحدة باتت تلك المنطقة الخالية مكتظة بالبشر.
حتى النساء شعرن بأنهن لن يكتفين بما سيرويه لهن أزواجهن عند عودتهم، فتجرأن بالمجيء إلى التل. اخترقن الجموع كي يصلن إلى الصفوف الأولى بين المتفرجين.
تحرر وجه التمثال تمامًا من التراب كما تتحرر امرأة من برقع غطى وجهها. سقطت أشعة الشمس بحرية على وجهه بعد فراق دام لآلاف السنين.
نظر الناس بقلق وترقب بينما كان لايارد في قمة سعادته. كانت حركات جسده وهو يحفر كأنه يؤدي رقصة أسميتها رقصة الحفارين.
أحفر بهدوء وعيناي لا تغادران ذلك الوجه المهيب ذو اللحية الكثة والمظفورة بعناية فائقة.
نظرة الجلال المنبعثة من ذلك الوجه جعلت كل من ينظر إليه يظنه غاضبًا حازمًا فيتراجع خوفًا، تاركًا ذلك الكائن الخرافي يحيا أيام مجده من جديد حينما كان يحرس أبواب القصر الملكي. القرون حول رأسه ترتفع نحو السماء. لم تكن كقرون الحيوانات التي تتجه على جانبي الرأس لتحميه، وكأن تلك القرون لم يكن لها دور غير توثيق ارتباطه بالسماء وليس لحمايته في المعارك، فهو ليس بحاجة لحماية نفسه من أحد..
من ذا الذي يجرؤ على مواجهته! إنه بحق سيد حراس البوابة.
تراجع الناس خطوات إلى الوراء عندما تكشف جزء من كتفي التمثال وأعلى صدره. تصوروا بأن هذا الجسد الذي أمامهم يخفي بقلبه ماردًا عظيمًا قد يفتك بهم في أية لحظة..

لم أعد أرى العمال فوق التلال. غادروا المكان متنازلين بسخاء عن أجرة عملهم. تمنوا لو اكتفوا بأعمال السخرة المفروضة من قبل العثمانيين بدلًا من هذا العمل الذي أخرج إليهم كائنًا مرعبًا. تراجع معهم الكثير من الرجال خائفين.
يظنونه وحشًا كاسرًا ومع ذلك يتراجعون ليفسحوا له المجال!!

وحده لايارد اقترب ولامس التمثال من وجهه ولحيته كأنه يقول له.. أنا ألامسك دون تردد، أنت ترعبهم لكنك لا تخيفني... أعلم بأنهم فيما بعد سيضعونه في متحف وسيجعلوني أدفع المال كي أراه و... ولن يسمحوا لي بلمسه بتاتًا.
سحب لايارد يده ببطء متحسسًا وجهه ولحيته كمن يداعب فتاة حسناء وعاد للحفر من جديد.

لم يكن ذلك التمثال قد نزل إلى حفرة، الأرض هي التي ارتفعت لتغطيه, لكنه.. لم يتدل يوما في حفرة.
لم نتوقف عن إزاحة أكوام التراب التي تكدست على صدره لدهر دون أن تفلح في تكسير ضلع من أضلاعه. كانت التلال تضغط على صدره وهو يسخر منها غير آبه بسجنه الطويل. مترفعا عن الرضوخ أو الانحناء، متكبرًا عن التنازل عن نظرة الشموخ، متيقنًا من حلول ذلك اليوم الذي ستزول عنه تلك الغمة ويخرج منتصرًا... منتصرًا كإله أسطوري.
كانت لحيته لا تفارقنا، أزحنا التراب عن صدره واللحية مستمرة بامتدادها. تعمقنا بالحفر حتى أسفل التمثال لتنكشف أمامنا أرجل عضلية لحيوان ما، ربما كانت سيقانًا تشبه ساق النعاج لكنه لم يكن كذلك فجسده يشبه جوادًا ضخمًا أو ثورًا عملاقًا لكننا لم نتأكد من كونه ثور..
فليس للثور أجنحة! كانت تلك الأجنحة العريضة تمتد على جسده من كلا الجانبين. لم أفهم من يكون ذلك المخلوق الغريب. كنا نطلق عليه تسمية الثور المجنح لكن عندما رأيته أمامي وجدته بعيدًا جدًا عن تلك التسمية، فهو ليس ثورًا ولا يشبه الثور بتاتًا.
تراجعت خطوات للوراء؛ لم يكن بدافع الخوف كحال بقية سكان المدينة وإنما لأتأمله بصورة أدق. كان التاج الذي يعلو رأسه مزينًا بالزهور! لم

أر في حياتي ملكًا أو إمبراطورًا يضع الزهور على رأسه! لكن هذا الكائن الفريد اختار الزهور بدلًا من الأحجار الكريمة؛ هو شامخ بالطبيعة البسيطة ولن يضيف له الترف هيبة كما يحتاج البعض لذلك.
هو ثور لكنه إنسان، هو إنسان لكنه كائن خرافي بخمسة أرجل. رأيته من الأمام واقفا منتصبًا، ساكنًا لا يتحرك، ومن الجانب تهم ساقاه بالحركة لتتابع من يضمر الشر فينال منه.
هو إنسان بوجه ملك، حيوان بوجه إله. طائر بجسد ثقيل قد لا تحمله أجنحته. لكنه مرتبط بالعالم العلوي دون أن يطير. أذناه تتقدم إلى الأمام فلا يفوته سماع شيء، نظرته مريبة كأنه يقول لي أنا أراك وأسمعك وأعلم بماذا تفكر. أحميك بجسدي وأدفع الرياح بجناحي نحو البلاد فتمنحكم الأمطار ويزداد الخصب.

لكن، ماذا لو غادرنا هذا الكائن؟
من سيحل محله ويحمي البوابة التي كان يقف عليها؟
كان مختبئًا في قلب التلال الخضراء، يقوم بدوره دون أن يسمح لنا برؤيته. هكذا دومًا هو الاله, يعمل ولا نراه..
أما الآن فقد كشفنا عن وجهه وانتهكنا حرمته وأخرجناه من مكانه؛ لا بل سحلناه أنا ولايارد وأبناء العشائر، البعض فعل ذلك مقابل المال والبعض الآخر ساعدنا كي يتخلص منه لأنه يراه كأحد الأصنام التي دمرها النبي إبراهيم بيده.
يرونه كائنًا ينتمي إلى عهود الكفر والضلال وإن خرج للنور فستصيب الموصل لعنة لا دواء لها وسيعيد الناس إلى عهود الظلمات. ولكن أي ظلمات يمكن أن تخرج من رحمها كائنًا بديعًا كهذا؟!
كائن يجمع بين روح البشر وجبروت الإله.

19

خبر ظهور النمرود تفشى في أنحاء الموصل خلال ساعات قليلة..
لم أكن أتوقع أن تضم الموصل هذه الجموع الهائلة من السكان الذين احتشدوا فوق التلال. وانضم إليهم كذلك رجال العشائر من القرى القريبة. أتوا متنكبين سيوفهم استعدادًا لمواجهة أي خطر قد ينجم عن هذا المخلوق الشيطاني كما أسماه البعض.
عمت أخبار النمرود بين العشائر، بعضهم أنكر ذلك وقال بأنه الأعور الدجال الذي سيخرج في آخر الزمان؛ وها قد خرج الآن ليعلن عن بداية عصر الغوغاء والفتن.
آخرون رفضوا الدجال وحكاية ظهوره وزعموا بأنه نذير عن وصول قوم يأجوج ومأجوج الذين سيظهرون من باطن الأرض في آخر الزمان ليقضوا على بني البشر ويسحقونهم بأجسادهم العملاقة.
اختبأ البعض في منازلهم لكن أغلب رجال العشائر آثروا الخروج والمواجهة بدلًا من الموت سحقًا بالأقدام.
صوبوا أسلحتهم بأيد متوترة نحو رأس التمثال الذي أثار فيهم الرعب حتى من دون أن يتحرك.
رفع الشيخ عبد الرحمن يده للأعلى ليعطي الأمر لرجاله بتسديد النار نحو رأس النمرود الجبار كما أطلقت عليه النسوة تلك التسمية.
ركضت بسرعة ووقفت أمام الثور المجنح وأنا رافع يدي للأعلى:
ـ كلا، كلا.. أرجوكم.. إنه تمثال. نعم مجرد تمثال حجري, لا يتحرك. تعال أيها الشيخ وتفحصه بنفسك.. لا تتعجل بتدميره قبل أن تتأكد من ذلك.
رمقني الشيخ عبد الرحمن بنظرة غضب ثم التفت إلى رجاله الذين بقوا ممتطين جيادهم وأمرهم بالإنتظار قليلا:
ـ ومن قال لك بأنه لا يتحرك؟
ـ يا جناب الشيخ أنت رجل محارب ومحاط بالأشداء من رجالك، كيف لك أن تخشى صخرة لا روح فيها؟!.. تعال، انزل عن التل وتفحصه بيدك سترى حينها بأني محق.

ضربت على صفحة وجه التمثال بيدي لأبين له بأنه لا يتحرك... شعرت بموجات أثيرية تسري في جسدي عندما لامسته، إحساس غريب تملكني

كأنني أشحن جسدي بطاقة كهربائية كما تشحن البطاريات الفارغة.
صحوت من هذا الإحساس لأقول للشيخ عبد الرحمن من جديد:
ـ انظر.. هل تخاف من هذا وأنت تقود قبيلة لا تهاب الموت؟

شعر الشيخ بالاستفزاز واستفاقت فيه روح التحدي فنزل من التل دون أن يترجل عن جواده الأبيض. اقترب من الثور المجنح وركله بساقه فشعر بأنه لا يركل إلا صخرة نحتت على شكل حيوان خرافي.
ـ أذن هو تمثال! لكن.. يالله، ما هذا التمثال بصنع بشر!.. كم هو مرعب!.. كأنه، كأن به روح تتنفس!!

ـ الله أكبر... الله أكبر...
ـ اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين.
ـ الله أكبر... الله أكبر.

لم أميز من أين أتت تلك الأصوات. عشرات الأصوات تكبر الله بلا انقطاع. أصوات بعيدة يسبح صداها بين التلال فنسمع الكلمة الواحدة مرارًا قبل أن تزول.
اقتربت الأصوات حتى بانت لنا مجموعة جديدة من رجال ملتحين ويرتدون السواد، بعضهم راجلًا والبعض الآخر ممتطيًا جواده وهم يكبرون ويهللون بأصوات غاضبة. يتقدمهم رجل ممتلئ الجسم رفع يده فتفرق الحشد من أمامه. فسحوا له الطريق ومر فوق التلال دون أن يجرؤ أحد على اعتراض طريقه.
وضع هرمز يده على رأسه وهو يقول:
ـ آه.. كلا.. هذا ما لم أكن أنتظره.
ـ من هؤلاء يا هرمز؟ أجبني.
بقي هرمز صامتًا وهو ينظر إليهم بخوف، أجابني لايارد بدلًا عنه:
ـ إنه كنان السراي مفتي الموصل.
ـ مفتي الموصل؟ وماذا يريد هو الآخر؟!

فهمت بأننا أمام عقبة كبيرة. كيف سنقنعه بأن أفكارنا التي لا تعجبه هي أفكار صحيحة.
لم ينزل المفتي عن التل بقي ينظر إلينا في الأسفل وعيوننا شاخصة نحوه, تاركًا لرجاله شرف القيام بالمهمة. أشار بيده نحونا وهو يقول بصوت جهوري كأنه في معركة أو خلال خطبة الجمعة:
ـ إنه صنم... هذا صنم من عمل الكفار. يجب أن نطبق عليه سنة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام.
لم أفهم ما يقصد بالضبط لكنه لم يترك مهلة لتساؤلاتي، أجاب عنها قبل أن أحرك شفاهي:
ـ حينما فتح الرسول الأعظم مكة المكرمة طهرها من رجس الأوثان.. كسر الأصنام وألقى بها في حفرة من لهب.. سنوقد نارًا حامية ونرمي فيها هذا الصنم المقيت.

ارتفعت أصوات التكبير من جديد بين التلال ليرن صداها في أرجاء ذلك السفح الواسع.
الكثير من أهالي الموصل كانوا صامتين في البداية لكن تكرار التكبير جعلهم يندفعون لتأييد أوامر المفتي.
لم أرغب بترديد تلك العبارة بداخلي.. كنت دومًا أرى في التكبيرات بشرى خير أو بداية لصلاة محببة للقلب لكن منذ مدة وأنا أرى في هذه الكلمة نوايا شريرة تسعى للقضاء على ما جادت به الأرض. وقد تحصد تلك التكبيرات أرواحنا إن فكرنا باعتراض طريقها.
لم يتكلم لايارد ولم يجرؤ هرمز على التعليق.
جمدت الكلمات في الأفواه وآثرت القلوب التستر بعباءة الخوف.

عادت إلي صورة الحوت التي كانت تصادفني عند مدخل متحف التاريخ الطبيعي في الجامعة. تجذبني دائما عيناه على جانبي وجهه. فله عين في كل جانب من جوانب وجهه. فهو يرى صورتين لعالمه.. وله بالتالي نظرتين لكل ما يصادفه.

أما المفتي كنان السراي فهو لا يرى إلا ماهو أمامه. ليس له إلا نظرة واحدة وما اختلف عنها فهو كفر! تمنيت لو كان مفتي الموصل حوتًا.. ربما سيكون التفاهم معه أسهل.

كنت أتمنى أن يتدخل الشيخ عبد الرحمن لينقذنا من هذا المأزق لكنه لم يكن مهتمًا لمصير التمثال؛ يحترق يتبخر أو يذر في البحار... لم يهتم الشيخ عبد الرحمن بشأنه لأنه أدرك قبل قليل بأن هذا النمرود هو تمثال حجري لا يمثل خطرًا يهدده وما هو بذهب ينفعه، فلماذا يشغل نفسه بما لا قيمة له.

نزل بعض الرجال من التل وبيدهم فؤوسًا وسيوفًا وهم ينوون أن يحطموا التمثال إلى قطع صغيرة قبل أن يحرقوه كما تقطع الشاة وتشوى بعد ذبحها.
صرخت بأعلى صوتي:
ـ انتظروا.. توقفوا أرجوكم.. كسر الرسول الأصنام لأنها كانت تعبد من دون الله. وكذلك فعل إبراهيم من قبل. كان قومه يعبدون الأصنام فكسرها، لكن ما من أحد يعبد هذا التمثال، فلماذا تصرون على تكسيره؟!

لم ينصتوا لي، لم يستجب أحدهم لما قلت ولا حتى أبناء الموصل.
أشك بأنهم سمعوا كلامي وسط الضجيج واللغط. ربما لو كانوا قد سمعوني لقتلوني في طريقهم قبل أن يصلوا إلى التمثال.
كيف لي أن أقنعهم بأنهم إن كسروه فسيحولون المدينة إلى أرض لا روح فيها. أرض مسلوبة التاريخ.
دوى صوت طلقة نارية في أعلى التل المقابل لتل النمرود. التفت الجميع صوب مصدر الصوت, فأدركوا أنه كبير حرس الوالي تاهيار باشا قد وصل ليمهد الطريق لوصول سيده والي الموصل. لم يفلح الوالي في مقاومة فضوله فقرر هو الآخر أن يأتي ليطلع على مصدر اللغط في هذا اليوم.

لم يكتف بالأخبار المتناقضة التي وصلته عبر جواسيسه وعيونه المبثوثة في أنحاء المدينة... هو لا يؤمن بيأجوج ومأجوج؛ لا يصدق قصة الأعور الدجال؛ ولا يحب الأساطير والخرافات. فما هو هذا الشيء العجيب إذن؟! الأخبار المتناقضة التي وصلته دفعته للذهاب بنفسه ليرى بأم عينيه ما أفزع رجال المدينة.
تراجع رجال المفتي عندما تقدم الوالي نحونا محاطًا بجنوده وحرسه:
ـ هل هذا هو التمثال الذي أقام المدينة ولم يقعدها؟
أجبت بسرعة:
ـ نعم يا حضرة الوالي، إنه هو. تمثال مهم يعود للحضارة الآشورية التي كانت...
ـ هل وجدتم ذهبًا في التل؟ هل عثرتم على أحجار ثمينة؟... كنوز؟
تقدم هرمز نحو الوالي:
ـ سيادة الوالي المعظم.. لم ينته العمل بعد. كل ما عثرنا عليه حتى اللحظة هو هذا التمثال أمامكم. ربما سنعثر فيما بعد على...
ـ تعثرون فيما بعد! ما هذا الهراء؟ سيتوقف العمل هنا حتى آذن لكم.

لم أصدق ما سمعت. شعرت بفرحة كبيرة ربما سيتغير مجرى التاريخ وستحافظ الحكومة العثمانية على الآثار بدلًا من ترك الأوربيون ينبشونها نبشًا.
تكلم لايارد بنبرة معاتبة, كأنه لم يجرؤ أن يُذكر الوالي بالهدايا التي قدمها له كي يسمح له بالحفر في هذه التلال:
ـ لكن يا حضرة الوالي نحن نسعى لاستخراج هذه الآثار كي ندرس الحضارات التي..
ـ عن أية حضارات تتكلم؟ ألم أكلفك بمهمة الوساطة، لماذا أنت هنا؟!
تلعثم لايارد وهو يرد:
ـ يا حضرة الوالي، ما جاء بي هنا هو نفس السبب الذي جاء بكم. سمعت مناديًا يجري بين الأزقة ويعلن عن ظهور النمرود فجئت لأستطلع الأمر.
ـ أعد إلى الحرس الرسالة التي كلفتك بإيصالها وأوقفوا العمل هنا.

لم أشارك لايارد حزنه عندما سمع هذا الأمر. إيقاف العمل لا يعني غير بقاء الثور المجنح لمدة أطول... أما استمرار العمل فهو لا يعدو إلا استعداد للرحيل.
جلست على أحد الأكوام الرملية وأنا أرى الوالي يغادر الموقع محاطًا برجاله الذين اقتادوا معهم لايارد, بينما أذعن بقية الجنود لأمر الوالي بحماية التل. انتشروا حول الموقع متنكبين أسلحتهم كي يمنعوا رجال المفتي من الاقتراب بمعاولهم من التمثال.
تبخرت الجموع المتجمهرة كسيل ماء غير مجراه. زالوا عن التلال وذهب كل إلى شانه بعدما أدركوا بأن الحكومة تدخلت في الأمر.
حتى رجال المفتي خفتت تكبيراتهم وبتنا لا نسمعها وغاصت رؤوسهم بين المتجمهرين... يرمقوننا بنظرات وعيد وهم يبتعدون.
أدركت بأنهم سيتحينون الفرصة للعودة من جديد إلى التل. ومن لن يعود لتحطيمه سيترك لأحفاده شرف تلك المهمة. عندما تتدحرج صخرة من الجبل فهي تفسح المجال لصخرة جديدة لتمر من خلفها وتسحق من تصادفه.
سيعودون ليبروا بوعيدهم.. أقسموا بأن يكسروا تلك التماثيل ولم ينسوا قسمهم. لا يبرد قلب من يسعى للثأر. سيكون انتقامًا داميًا تتكلم عنه الأجيال دون أن يغيب في صفحات النسيان المطوية. لن تكون الموصل لوحدها من سيتضرر بهذا الإنتقام. وسينظر إليها جيرانها بين خائف وشامت.
سيكحلون جرائمهم بعبارة الله أكبر, لكنها لن تكون غير اغتصاب جماعي, يغطون بتكبيراتهم على تأوهات ضحيتهم..
سألت هرمز:
ـ ماذا سنفعل الآن؟ هل نعود إلى المنزل أم نبقى هنا؟
ـ ما هذا السؤال! بالطبع سنبقى هنا. هل يمكننا أن نترك جوهرة كهذه يتطاحن عليها الوالي والمفتي؟
ـ ولايارد أيضًا. يبدو أنك نسيت لايارد!

لم تمض ساعة على مغادرة الوالي ولايارد حتى لاح لنا من بعيد شبح رجل يتقدم نحونا بخطى سريعة. ما إن بدأنا نميز شكله حتى هب هرمز من مكانه ليحييه بحميمية.
جذبتني ملابسه الجميلة, كان ينتعل حذاء بني اللون ويرتدي قميصًا ناصع البياض وبنطالًا يشبه البنطال العسكري. كانت حقيبته الجلدية المعلقة على كتفه تعيق حركته قليلًا. قبل أن يتكلم خمنت أنه ليس من أبناء الموصل..
نهضت بدوري لأحييه دون أن أعلم من يكون لكن اهتمام هرمز به وبمقدمه جعلني أعتبره محط ثقة.
ـ تعال يا سالم لأعرفك بالفنان الكبير أوجين فلاندن.

رد الفرنسي فلاندن على تحيتي ببرود. توجه بسرعة ليتأمل التمثال, وبعد دقائق من الصمت أخرج من حقيبته الجلدية عدة الرسم وبدأ يرسم خطوطًا سريعة على أوراقه بقلم أسود فحمي.
راقبته وهو يرسم بثقة عالية. تبدو الخطوط غير مفهومة في البداية ثم يقارب بينها فيتصل الخط بالشكل المقابل له ويقارب من بقية الخطوط بجرة قلم سريعة فتظهر لوحة مطابقة للمشهد الماثل أمامي.
أعجبت كثيرًا بذلك الأسلوب الرشيق في الرسم. أدركت أن هذا الفنان يحاول تخليد هذه اللحظات في زمن لم توجد فيه آلة التصوير المحمولة بعد. وإلا لكان أتى بآلة تصوير صغيرة ليؤرخ اللحظة.
كان يريد أن يرسم أكبر عدد ممكن من اللوحات قبل أن يتغير وضع التل وتماثيله.
تذكرت في هذه اللحظة هاتفي المحمول, كان معي في اليوم الأول لوصولي إلى هنا لكنني لم أره منذ ذلك اليوم! أين ذهب؟ كيف فقدته دون أن أدرك ذلك؟!!
شعرت بالأسى لفقدانه, وإلا لكنت قد التقطت الكثير من الصور لهذا الحدث التاريخي.
وضع فلاندن لوحته الأولى في حافظته الجلدية ثم سار قليلًا مبتعدًا نحو اليمين باحثًا عن زاوية جديدة للوحته الثانية. بقيت أراقبه وهو يرسم بتركيز وعينيه تجولان بين الورقة والتل. كأنه يحاول أن يحيط الموقع بلوحاته لينتج عملًا ثلاثي الأبعاد.

قد أكون موجودًا في لوحاته.. من يدري. قررت أن أبحث عن أعماله إن عدت في يوم ما إلى مدينتي لأرى إن كنت موجودًا فعلًا في هذه اللحظة أم أنها مجرد خيالات وأوهام...
هل سأكتشف بعد كل هذه الأحداث بأنها لم تكن إلا حلمًا؟! في البداية كنت أتمنى أن أكتشف بأنها حلم لكنني بدأت أمقت هذه الفكرة.
ما يحدث أمامي هو واقع.. هي أحداث تعيسة أتعرض لها، أتمنى أن تكون مجرد كابوس وأصحو منه مفزوعا. أشرب قليلًا من الماء وأعود للنوم من جديد.. لكن لا.. لا يمكنني أن أهرب من الواقع وأوهم نفسي بأنني أحلم. هذه حقيقة وعلي مواجهتها.

جلست على التل، أتأمل الثور المجنح بنظرات وداع بينما أوجين فلاندن مستمر بالرسم.
كنت في داخل إطار اللوحة التي بدأ فلاندن برسمها كما توقعت. ربما سيكون ذلك هو الدليل المادي على وجودي في ذلك الزمن كما هي الألواح التي حولها لايارد إلى دليل مادي لإثبات صحة ما جاء في التوراة.

* * *

عدنا أنا وهرمز فجرًا إلى التلال لنجد أوجين فلاندن قد سبقنا إلى هناك ليواصل رسم لوحاته بينما كان لايارد في سراي الوالي تاهيار باشا... يشعر لايارد بالفخر بهذه اللقية الفريدة ويتوق للشهرة التي سينالها عندما ستصل هذه القطعة إلى لندن.

جل ما أخشاه أن يتحول لايارد من سارق إلى منقذ بفضل داعش، ربما ستتغير المفاهيم وتستبدل كلمة سرقة بعبارة إنقاذ!
كنت أسعى قبل أيام لاسترجاع مخطوطات من مكتبة الكونغرس اكتشفتها بالصدفة, وها أنا من جديد أرى أمامي سرقة جديدة.. بالصدفة! وكأن حظي لا يقودني إلا لرؤية عمليات السرقة!
لن أشكرهم بحجة إنقاذ ما سرقوا مني. ولن أشكر من يغتصب منزلي ويعيد ترميمه.

لوحة أوجين فلاندن تضمنت هذه المرة الآثار التي برزت عندما سقطت أكوام التراب عن جانبي الثور لتكشف عن جدار من الألواح الحجرية نقش عليها مشاهد من أحداث ملحمية في حياة الإمبراطورية الآشورية من حروب وغزوات, وكذلك مشاهد من الحياة اليومية كالزراعة والحصاد وصيد السمك والأسود الضارية.

عاد لايارد مسرعًا نحو الموقع.
ـ توقعت بأنك ستتأخر عند الباشا- سأل هرمز.
ـ كان ينوي ذلك لكن كما تعرف... كل شيء يمكن حله بالمال.

جلست على كومة من التراب أتأمل الألواح كمن يعانق والده قبل السفر وعبارة "كل شيء يحل بالمال" عالقة في ذهني. بكم يا ترى باع الوالي هذه اللقية للايارد؟ كم أخذت يا تاهيار باشا منه كي تتركه يغادر حاملًا معه كنوزًا تفوق بكثير تلك التي عثر عليها علي بابا.

كنت أرغب بفعل شيء يوقف هذه الصفقة اللعينة. لكني لا أعدو كوني مجرد شبح عابر في هذا المكان. طيف يمر ليرى ويسمع. وربما ليدون فيما بعد. أو هكذا قررت أن أفعل إن عدت في يوم ما إلى المدينة التي جئت منها.
اقتربت مجددًا من الرسام فلاندن، كان يسعى للقبض على لحظات هاربة ليرمي بها على أوراقه. تلك اللحظات التي سترافق درب السبي الذي ستسلكه هذه الحضارة نحو قارة أخرى.

ـ هرمز، أرجو منك أن تأتيني بكل حفار يمكنه أن يساعدنا في استخراج هذه اللقيات. يجب أن ينتهي العمل خلال يومين أو ثلاثة. أخشى عودة المفتي ورجاله من جديد.
ـ لا تقلق يا لايارد, لقد دخلنا في حماية الوالي؛ لن يجازف المفتي بمضايقتنا؟!
ـ سيعود إذا اكتشف بأن الجنود غادروا الموقع. قال لنا الوالي بأنه سيوفر لنا الحماية لكنه مجرد كلام عابر.

ـ لكنك دفعت له قبل قليل!
ـ بالفعل, دفعت له فقط ليتركني أكمل ما بدأت, لكنه لن يرسل جنوده لحمايتي ويترك الحملة على اليزيديين. يبدو أن المكافأة التي يسعى إليها من الباب العالي بدأت تؤرقه. لا أظنه جادًا في مبادرة الصلح وإلا لما كان قد سحب مني الرسالة التي عنونها إلى أمرائهم.
ـ في الغد سآتيك بعشرة رجال يساعدوننا في...
ـ كلا، أريد عشرين. نعم أريد عشرين رجلًا. عشرة رجال لن يكفوا... لا تنس بأننا بعد الانتهاء من الحفر علينا حمل هذه الأشياء بعيدًا عن هنا.

حصل لايارد على قرض من القنصل الفرنسي أميل بوتا بانتظار وصول المال من اللجنة الأكاديمية في المتحف البريطاني. كان بوتا متعاونا معه لأنهما اتفقا على تقسيم التلال فيما بينهما. تمسك بوتا بتلال نينوى الشمالية لأنه باشر بالحفر هناك منذ أكثر من عام واستخرج آثار مدينة النمرود هو الآخر. لكن غضب نهر دجلة خطف منه تلك الكنوز ليحول فرحته إلى مأتم..

بدأ النجارون بصنع عربة خشبية كبيرة بست عجلات ضخمة.. كانت العربة قادرة على حمل الثور دون أن تنكسر لكن السؤال الذي أقلق لايارد:
ـ من الذي سيسحب العربة بعدما تمتلئ بحمولتها؟

توجهنا في المساء نحو مضارب الشيخ عبد الرحمن. كانت خيمه تحف بمدينة الموصل من الجهة الغربية وتتوزع بصورة عشوائية بين الكثبان الرملية. لاح لنا ضوء خافت من بعيد فأشار هرمز بيده:
ـ هناك.. إنها بالتأكيد النار التي يوقدها الشيخ عبد الرحمن كي يستدل عليها عابرو السبيل وطالبي الحاجات فيتوجهون إليه.

كان لايارد من طالبي الحاجات.. أما أنا فكنت عابر سبيل في بلادي، فالحياة في زمن لا أنتمي إليه أسوأ من الحلول في بلد غريب عنه.

استقبلنا الشيخ عبد الرحمن عند مدخل خيمته الواسعة التي علق على جانبي مدخلها رايتين خضراوين. لم أتوقع أن تكون خيمته واسعة من الداخل بهذا الشكل. تغطت الأرض بسجاد بني خشن ومصنوع من شعر الإبل.
جلس أمامنا مبتسمًا, كاشفًا عن أسنان صفراء تشي بالإفراط في شرب القهوة, مشروب الضيافة.
صحيح أنني رأيت الشيخ عبد الرحمن مسبقًا لكن انشغالي حين لقائنا الأول بالثور المجنح منعني من ملاحظة قسمات وجهه. أعجبت بوجهه الباسم وملامحه التي تخلط بين الهدوء, والقوة والثقة بالنفس.
كان ذو نظرة حادة ومطمئنة. ادركت بأنه يحمل شخصية قادرة على فعل الخير أو الاغارة والنهب في نفس الوقت. كان هو الوحيد الذي يعتمر عمامة رمادية اللون فوق غترته البيضاء الموشاة بتطريز أحمر. بقية الرجال لم يغطوا رؤوسهم بغير الغترة البيضاء. ربما كانت تلك العمامة تخص شيوخ العشائر في تلك المنطقة.
انشغل أحد الرجال بإعداد القهوة وتقديمها لنا دون أن يطلب أحد منه ذلك.
لاحظت أن جانبي وجه القهوجي أيضًا يتغطيان بالتجاعيد التي تزداد عمقًا ما إن يمنحنا ابتسامة الترحيب.
استرقت النظر نحو قطعة القماش الكبيرة التي تتوسط الخيمة لتقسمها من الداخل إلى جزئين. أطياف النساء لا تتوقف عن الحركة في الجانب الآخر.
خرجت امرأة ضخمة الجثة وذات بشرة داكنة تحمل بيدها وعاء مملوء بالماء المخلوط بماء الزهر.
أخرجت من لفافة حزامها قطعة سكر كبيرة غير منتظمة الشكل. كسرتها بأسنانها لتقسمها إلى أربعة أجزاء. وضعت كل قطعة في قدح من الأقداح النحاسية الأربعة وخلطتها بسبابتها؛ مصت اصبعها بحركة سريعة لتزيل ما علق به من سكر ثم قدمت لنا أقداح الماء بابتسامة هادئة.
شربته برغم عدم تعودي على شرب ماء الزهر المخلوط بالسكر؛ كان شديد الحلاوة. ربما مرارة القهوة التي أشم رائحتها فوق الحطب المشتعل ستقضي على هذا الطعم.
قرب لايارد القدح من فمه متظاهرًا بأنه يشرب الماء ثم وضعه جانبًا.

لم يسألنا الشيخ عن سبب قصدنا إياه في تلك الليلة. على ما يبدو لم يكن ينوي أن يفعل ذلك إلا بعد مضي الليلة الثالثة على مكوثنا معه, تبعًا لتقاليد الضيافة العربية؛ لكن لايارد ليس بذلك الرجل الذي يضيع ثلاث ليال ليقول ما يريد:
ـ قصدتك راجيًا أن...
ـ لا تكمل يا هرمز... لا تكمل قبل أن تشربوا قهوتكم وترتاحوا من مسيرتكم.
أردف لايارد:
ـ لكننا لسنا متعبين يا شيخ.
ـ لا يهم؛ فلتشرب القهوة وأمامنا الليل بطوله كي نتحدث كما نريد.

الليل بطوله! لايارد متعجل ولا يحتمل الإطالة وغير قادر على إضاعة دقيقة واحدة؛ هو في سباق مع الزمن.
أما الشيخ ورفاقه فالزمن بالنسبة إليهم لا يمثل غير الليل والنهار، يتعاقبان بطريقة لا تثير الانتباه. ليس لهما أهمية لأنهما يتكرران بلا توقف كمتلازمة أزلية.
لا حزن على انقضاء النهار لأنه ببساطة سيعود بعد سويعات.. سيكون النهار المقبل مماثلًا لما سبقه، وسيصبح توأم ما يأتي بعده. لن يتغير شيء. فلماذا يحنون ليوم مضى؟ ومن يحن إليه ما عليه إلا إنتظار سويعات ليراه عائدًا مستبشرًا بشمس جديدة, وهي الشمس ذاتها.
تجاذب أطراف الحديث وسرد حكايات الغزوات بين القبائل لا تهم لايارد. فالشيخ عبد الرحمن لديه الكثير من الوقت يقضيه في الكلام, وسماع الشعر من رفاقه, وسرد حكايات الأجداد وأمجاد الصولات والغزوات بين القبائل, والتصدي لغارات عشائر تقهقرت أمامهم وهربت, دون أن تفلح في خطف حياة رجل منهم أو اغتنام شيء أو سبي إحدى نسائهم.
تلك هي مفاخر الشيخ عبد الرحمن ورفاقه, لكن لايارد لم يأت باحثًا عن تلك الحكايات.
ما يعتبره الشيخ عبد الرحمن مفاخر يراه لايارد سببًا من أسباب تأخرهم وجهلهم لقيمة ما أتى لأخذه منهم.

ارتشف لايارد قهوته بسرعة وأعاد الفنجان وهو يهزه بكف يده كعلامة عن عدم رغبته بفنجان آخر.
ـ رحم الله والديك يا شيخنا على هذه القهوة الرائعة.

ابتسم الشيخ لكلمات هرمز دون أن يقول شيئًا، فتكلم لايارد بسرعة قبل أن يدخل الشيخ في حكاية لا تنتهي حتى بعد صياح الديك كما تفعل شهرزاد:
ـ قصدتك يا شيخ بخدمة وأرجو ألا تردني خائبًا. رغبت ألا أشرب القهوة قبل أن أسألك لكن عندما وجدتك مُصرًا على الضيافة اعتبرتها علامة موافقة.
ـ لن أردك خائبًا يا لايارد؟ حاجتك مقضية.
ضرب الشيخ بيده على صدره وهو يقول تلك العبارة.
ـ أرجو أن تكلف بضعة من رجالك بمرافقتي كي ننقل التمثال الذي عثرت عليه حتى حافة النهر.
ـ لك ما تريد. كم رجلًا يلزمك لهذه المهمة؟
ـ عشرة.. أو خمسة عشر.
ـ طيب.. متى تريدهم؟
ـ غدًا عند الفجر.
ـ عند الفجر سيصل إلى تل النمرود أربعون رجلًا لمساعدتك.. سيكونون رهن إشارتك وتأمرهم دون تردد.
ـ وعدتني في السابق بارسال رجال لمساعدتي لكنك لم تفعل؟
ـ لم يتركنا الوالي نتحرك نحو المدينة, شن علينا حملة عسكرية وكنا حينها بحاجة لكل رجل من رجالنا. أما اليوم فهو يستعد للإغارة على جبل سنجار, هو مقاتل محنك ولن يفتح جبهتين في آن واحد؛ لكن يا لايارد أنا أيضًا لدي سؤال قد حيرني ولا أرغب برحيلك قبل أن ترد عليه..
ـ تفضيل يا شيخنا.. اسأل.
ـ ماذا ستفعل بهذه الأصنام بعد كل هذه الأموال التي أنفقتها لاستخراجها من الأرض؟ هل هي لغرض الدراسة والتعمق في الحكمة كما تدعي، أم هو كما قال المفتي بأنكم وملكتكم تعبدون وتألهون هذه الأصنام من دون الله؟

ـ لا يا شيخنا.. بل هي كما سبق وقلت لكم, نحن ندرس الحضارات القديمة من خلال أعمالها ومستوى الرقي الذي وصلت إليه.. وسننظم معرضًا لهذه المنحوتات.
ـ لكن.. يا سبحان الله!! يا سبحان الله!
ـ ماذا هنالك يا شيخ؟
ـ هذه الألواح والتماثيل التي أخرجتها من قلب أرضنا.. من تحت أقدامنا!. هي هنا منذ آلاف السنين!!.. منذ عهد أجدادي وحتى أقدم منهم.. ولم يتصور أحدهم وجود هذه الأشياء تحت قدميه!.. حتى حكمائنا وعرافينا ولدوا على هذه الأرض.. هنا عاشوا, وهنا ماتوا وفيها دفنوا؛ ولم يكتشف أحد منهم هذه الأسرار! حتى لم يعلموا بوجودها! ولم يذكرها أحد منهم بقصائده ولا في خطبه وحكمه..
وفجأة, ها أنت تأتي عابرًا البحار البعيدة.. من أقليم لم تطأه أقدامنا من قبل... تأتي إلى هنا وتخط بعصاك على الأرض وتقول: احفروا هنا، اضربوا المعول هنا، واحفروا في قلب هذه التلال، هنا الجدار ومن هنا بوابة القصر!!
وإذا بك تستخرج كل هذه المنحوتات الضخمة ونحن نتفرج لا نفقه شيئًا!!
يا سبحان الله, لو لم أتكلم معك لمرات ومرات لقلت بأنك ساحر.. لكن لا لست بساحر, فحتى السحرة الذين عاشوا في قرانا لم يكن لهم علم بما كان نائم تحت أقدامهم..
فماذا تكون أنت؟.. هل نبيكم هو الذي علمكم كل هذا؟ لو لم أكن أؤمن بأن محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء لقلت بأنك نبي له معجزات وكرامات.

20

استلقينا أرضًا لا نبعد سوى أمتار عن لايارد الذي كاد أن ينام وهو ملاصق للتمثال. لم أفلح في النوم قبل أن أسأل هرمز عن سبب تعاون الشيخ بهذه الطريقة مع لايارد. أدركت حينها بأن الشيخ عبد الرحمان يعتبر لايارد صاحب فضل كبير عليه.
قبل أشهر نشبت معركة بين الوالي تاهيار باشا وعشيرة الشيخ عبد الرحمن لأن رجلًا مقربًا من الشيخ قتل جنديًا عثمانيًا ورفض الشيخ عبد الرحمن الإذعان لأمر الوالي وتسليمه لحبل المشنقة، فهو لا يعترف بالحكومة العثمانية ويعتبر دولته هي القبيلة فقط.
وعلى حين غفلة أحاطت كتيبة عثمانية بالشيخ واقتادوه أسيرًا، وزجه الوالي في السجن وهدد بقتله إن أغار رجاله على سراي الحكومة. ولم يطلق سراحه إلا بعدما توسط بشأنه القنصل الفرنسي بول أميل بوتا وهنري لايارد ولم يترددا بدفع فدية لإطلاق سراحه.
ومنذ تلك اللحظة والشيخ ينتظر فرصة ليرد هذا الجميل للايارد وللقنصل وها قد حانت اللحظة. لم يترددا بمساعدة الشيخ عبد الرحمن لأنه كان يوفر لهما الحماية من بقية القبائل ومن رجال المفتي مقابل المال.. كانت هناك منفعة متبادلة بينهم.

قضينا ليلتنا مستلقين فوق التل قرب الثور المجنح، نسمع أصوات كلاب تنبح من بعيد فيقف لايارد بسرعة ويتنكب سلاحه وينظر في كل الاتجاهات تحسبًا لأي مفاجئة. هو لا يخشى إلا رجال المفتي وعزمهم على تكسير التمثال لأنهم أعتبروه رمزًا للكفر والإلحاد.
هو إله عبدته أقوام غادرتنا منذ عصور سحيقة. كان الإله يحميهم من الكوارث، عيونه تسهر وهم نيام.
زالت تلك الأقوام وانتشرت الكوارث في كل مكان، لم يعد هنالك من إله يحمي خدُامه لأن الإله قد نام.
نام الإله وترك الباب مفتوحًا!

ربما لم ينم لكنه اكتفى بالتفرج و... ترك الباب مفتوحًا!

هدأ نباح الكلاب وتلاشى صوتهم بين نسمات الهواء الباردة. شعر لايارد بالاطمئنان واستلقى من جديد على التراب الندي الذي كان هو فراشه وغطاءه في تلك الليلة الصافية. تلألأت النجوم في السماء فاعتبرها لايارد بشارة خير كالنجوم التي قرأ عنها في الكتاب المقدس حين أحيت الليل ابتهاجا بولادة المسيح.
يتوق للغد؛ في الغد سيغادر هذا التمثال سجنه الأبدي.. لكنه سيرحل إلى سجن آخر.
يسمع صهيل خيول بعيدة.. لم يستغرب لايارد سماع صهيل الخيول في أرض ألف ليلة وليلة فبقي مستلقيا أرضًا. دعك عينيه المتعبتين براحتي كفيه وركز من جديد على صوت ذلك الصهيل البعيد.
لم يعد الصهيل بعيدا!
سحب بندقيته بسرعة واستوى واقفا ليستطلع الأمر فأحس حينها بأنها النهاية. قرابة عشرة من الخيالة يقتربون صوبنا, بعضهم يحمل المشاعل. صوب البندقية باتجاههم ليستعد للرد إن تعرض لاطلاق نار فصرخ أحدهم.
ـ إن أطلقت النار على أحدنا يا لايارد فسنقطعك إربًا؛ نحن لا نسعى لايذائك فلا تضطرنا لذلك.
خفض لايارد سلاحه وأذعن لهم مفضلًا ألا يكون هو من يبدأ اطلاق النار، كي يمنحهم الحجة بقتلنا نحن الثلاثة. نظر لايارد إلينا:
ـ ليست هذه الليلة التي يمكن أن أموت فيها. أليس كذلك يا هرمز؟
ـ ولا أنا يا لايارد.

نزلوا عن جيادهم وتوجهوا نحو التمثال. قربوا المشاعل من وجه الثور المجنح فبانت ملامحه كوحش رهيب أو كإله جبار كما ادعى أغلب أهالي الموصل.
نزل لايارد عن التل واقترب منهم محاولًا عدم استفزازهم بحركة أو بقول خشية أن يثير غضب أحدهم فيهدروا دمه بلا مناسبة.
ـ تركتم بيوتكم في منتصف الليل لتأتوا هنا!! هل تبحثون عن شيء؟!

دون أن يلتفتوا إليه:
ـ بيوتنا تحولت إلى ديار خوف وهلع منذ أن أخرجت علينا هذا الكائن الغريب.
ـ لا أفهم.
ـ نساؤنا لا يستطعن النوم وهن يعتقدن بأن هذا الوحش سيهجم علينا ما إن تغمض جفوننا.
ـ وماذا أتيتم تفعلون هنا؟
ـ خرج علينا مختار الحي واختار رجلًا من كل زقاق ليقوم بالحراسة الليلية تحسبًا لما يمكن أن يقوم به هذا الثور إذا بعثت به الحياة من جديد.
ـ الحياة لن تبعث بهذا الثور.. إنه مجرد تمثال.
ـ أنت تقول هذا منذ البداية لتطمئن الناس، لكنه لو كان بالفعل مجرد تمثال عادي لما جئت من بعيد تاركًا ديارك لتبحث عنه.. أليس كذلك؟

صمت لايارد متأملًا هذا السؤال, هل أتى بالفعل من مكان بعيد تاركًا بلاده ومضحيًا بوظيفة عرضت عليه في جزيرة سيلان من أجل تمثال عادي:
ـ وهل بقاؤكم هنا سيجعل نساء الموصل تفلح في النوم؟
ـ نعم عندما يعلمن بأن هنالك رجالًا من مدينتهم يحيطون بهذا الكائن ستطمئن قلوبهن وستنام عيونهن. هن يثقن بنا.
ـ كما تشاؤون, بإمكانكم حراسته لكن أرجو ألا تقربوا المشاعل كثيرًا من التمثال. أبقوها بعيدًا عنه.
نظروا إلى بعضهم قبل أن يسأله أحدهم:
ـ لماذا؟!! هل سيحدث شيء لو اقتربت النار منه؟ هل سيتحرك عندما يشعر بالحرارة؟! تكلم.. يبدو أنك تخفي عنا شيئًا ما.
ـ أنا لا أخفي عنكم شيئًا. لكنني أخشى أن تتركوا المشاعل قريبة فتحرقوه.. هذا كل ما في الأمر.
ـ قل الحقيقة يا لايارد ماذا سيفعل لو قربنا المشاعل منه؟!
صمت قليلا:
ـ لا أدري، جربوا أنتم. وأنا غير مسؤول عن النتيجة.

صعد لايارد إلى أعلى التل ليستلقي قربنا وبقي يراقب الرجال بعينين نصف مغمضتين. شعر بالارتياح لوجودهم لأنه اطمئن بأن هؤلاء الرجال قد يحموه من رجال المفتي إن عادوا في تلك الليلة.

قبل شروق الشمس كان رجال الشيخ عبد الرحمن يدفعون بالعربة الخشبية نحو تل النمرود. تحرر الثور المجنح تمامًا من تل النمرود وأكوام الرمال أو بالأحرى لم يكن تحررًا بقدر ما كان نفيًا. لم يعد التل بالنسبة للثور المجنح غير ذكرى استمرت لآلاف السنين...
ذكرى وطن.
كان هنالك تل في يوم ما واسمه النمرود.
تبخر التل وأصبح ترابًا يتطاير في الهواء وحل بدلًا منه إله مخيف اسمه الثور المجنح...
غادر محمولًا على عربة الأموات تاركًا بوابته...
لم يبق شيء, لم يبقى إله ولم تبق بوابة.

التفت الحبال المتينة حول الثور المجنح. حول عنقه وسيقانه الخمسة.. التف حبل حول جذعه وآخر بقي عالقًا بجناحيه. رأيت مقاومته اليائسة للسواعد المفتولة وهي تسحبه. نظرات الغضب لم تفارق وجهه.
تفصدت جباه الرجال بالعرق وتدنت ألسنتهم لهاثًا. لكنه لم يتعب ولم يتراخى. بعد راحة قصيرة عاد الرجال للعمل فتزحزح الثور من مكانه. تحرك قليلًا وبعد لحظات رأيته يستسلم ويهوي أرضًا. ارتطم على جانبه الأيمن.. ركضت نحوه وهو ممدد أرضًا وقد دوى صوت ارتطامه في أرجاء الوادي كدوى قنبلة.
لمسته بيدي كمن يواسي رجلًا مريضًا. كنت أخشى أن يكون قد انكسر، لكنه لم يتأثر من تلك السقطة. كنت أرى في وقوعه أرضًا وفي السبي الذي يتعرض له كنكبة أبدية. تاريخ يشنق بالحبال, يسحل بسواعد رجاله و... يسقط أرضًا...

* * *

أخرجنا العربة الخشبية بصعوبة من بين التلال. انغرزت العجلات وهي تتقدم ببطء تاركة جرحًا عميقًا في الأرض.
لم أشارك في دفع العربة وإنما اكتفيت بالسير بجانب الثور الممدد, كمن يشيع ميت نحو مثواه الأخير. كنت أراقب لايارد وهو يسير أمام العربة ليفسح لها المجال ويبعد الأحجار عن درب العجلات ليسهل انسيابها.
أما هرمز فقد بقي بصحبة مجموعة صغيرة من الرجال في الموقع لمواصلة التنقيب. كان لايارد فرحًا جدًا بالألواح التي بدأ هرمز باستخراجها لأنه منذ اللحظة الأولى توسم برسوماتها ما سيفك به أسرارًا كثيرة كانت غائبة عن البشرية.
كان يسعى للاستمرار بمقارنة محتواها مع ما جاء من أخبار المعارك والسبي في التوراة ليتأكد إن كانت تلك الأحداث وقعت بالفعل أم أنها مجرد حكايات توراتية للموعظة.

كادت إحدى العجلات أن تنكسر ويسقط التمثال أرضًا من جديد لكن لايارد أمرهم بالتوقف وإسناد العجلة المعطوبة بلوح خشبي. انبرى ثلاثة من الرجال بتنفيذ الأمر وبدأت مطارقهم تغرز مسامير ضخمة في العجلة.
أرى المسمار ينغرز في الخشبة وأشعر به كما لو أنه يخترق فؤادي، لكم تمنيت لو تنكسر العجلات لألف مرة ولا تتقدم خطوة واحدة.
همة الرجال لمساعدة لايارد كانت تثير استغرابي واشمئزازي في الوقت ذاته. حاولت أن أتذكر إن كنت قد سمعت في يوم ما عن سراق تعطلت سيارتهم خلال عملية السطو فقرروا أن يتركوا ما سرقوه... حاولت أن أتذكر ذلك كي أزرع بنفسي الأمل بأن هذا العطل قد يعرقل هذه العملية وربما يجعلها تنتهي قبل أن تبدأ. لكن ماذا سينفع العطب في العربة؟ هل سيثني لايارد عن مواصلة عملية النهب؟!
إن انكسرت العربة الآن فهذا لا يعني إلا تأخر لايارد لساعة أو ساعتين، فبماذا ستغير تلك الساعة وبيني وبينه أكثر من قرن ونصف من الزمان؟
أصبحت أتمنى أن تنكسر العربة مع علمي بأنها أمنية عقيمة.
هذه المرة بالذات لا نفع لأمنيتي لأن هذه العملية التي أراها أمامي بدأت منذ زمن طويل، لكنها لم تنتهي بعد. كان لها بداية أما نهايتها فلا أعرف متى ستكون.

لم أسمع أبدًا عن سرقة تبدأ قبل قرون وتستمر لقرون عديدة دون أن تنتهي! أي نوع من السرقات هذه؟
مرت قرون وتحولت تلك السرقات المنظمة إلى خطط تدمير! ولا زالت العجلة تدور دون تباطؤ! وماذا بعد؟!
غادر مكانه, وأنا وراءه. أسير مع زمرة من الرجال نتبع ثورًا ممددًا على عربة.
كأنها جنازة! لكن الجنازة تأخذ من كان على الأرض لتخفيه في باطنها، أما هذه فجنازة مقلوبة، أخذنا من كان حيًا تحت الأرض لنميته بعيدًا عن وطنه خلف حواجز زجاجية.
من يقف بوجه تلك الجنائز؟ جنائز تتواصل منذ مئات السنين.
جنائز تبدأ دون أن تنتهي، كجحيم لا نهاية له!!

* * *

أصلح رجال الشيخ عبد الرحمن العجلة وتأكدوا من أنها ستقاوم لحين وصولهم إلى ضفة النهر. ومن هناك سيكون الطريق أسهل عبر حوض دجلة نحو الخليج.
ركب لايارد جواده واصطحب معه رجالًا كان يثق بهم من خاصة الشيخ عبد الرحمن وتوجهوا نحو دجلة كي يتأكد من إعداد المركب الذي سيستقبل التمثال.
ما إن غاب عن أنظارنا حتى قرر الرجال أخذ قسط من الراحة.. جلس بعضهم أرضًا وبينما تمدد ثلاثة آخرون تحت العربة اتقاء لأشعة الشمس.
اقتربت منهم وانحنيت أمام العربة:
ـ أخرجوا من تحت العربة. هي ليست بالمتينة، إن انكسرت فستسحقكم بحمولتها الثقيلة.
خرج عدة رجال وبقي ثلاثة منهم لا يرغبون بالتزحزح عن مكانهم:
ـ ألا تخرجون؟! إن انكسرت هذه العربة فستموتون تحتها.
ـ لا يهم... كل إنسان يموت في يومه. إن كان مقدر لنا أن نموت ها هنا فلن ينفعنا الهرب.
أكمل الآخر وهو ممدد أرضًا:

ـ "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة".
ـ ألا تفكروا بالتزحزح قليلا مبتعدين عن الخطر! لن يكلفكم ذلك عناء بقدر ما تتحملون من عناء نقل هذه الحمولة؟!

لم يكلف أحد نفسه عناء الرد على سؤالي فتكلمت من جديد:
ـ لماذا تجتهدون هكذا في مساعدة لايارد وهو سارق كبير؟
ـ هه.. سارق! وماذا سرق؟ هل أخذ ذهبًا أو أموالًا؟!
ـ لا هذا ولا ذاك. إنه يسرق هذا التمثال فوق رؤوسكم. إنه ثروة عظيمة.
ـ ثروة؟ هاهاها.. إنك تهذي! هل هذا وقت المزاح؟
ـ اتركنا نرتح قليلا. نحن نعمل منذ الفجر.
ـ أنا لا أهذي، هذا التمثال سيخرج من البلاد ولن يعود أبدًا.
ـ لقد تكلم لايارد مع الشيخ وقال له بأنه سيقيم شيئًا ما.. ما أسمه يا مشجب؟
ـ أظنه معرضًا.
ـ نعم نعم، سيقيم معرضًا في بلاده وبعدها سيعيده إلى مكانه في التل. هل هذه هي السرقة التي تتكلم عنها؟
ـ هو قال ذلك لكنه يكذب. وذلك المعرض الذي كلمكم عنه لن ينتهي أبدًا لأنه متحف.. سيدفع أبناؤكم الكثير من المال ليسمحوا لهم فقط برؤيته من بعيد. لن يتمكنوا حتى من لمسه. سيستولون عليه. والمعرض سيستمر حتى قيام الساعة دون توقف.
ـ لنفترض أنهم لن يسمحوا لنا برؤيته، ما المشكلة في ذلك؟ من منا يعبر البحار قاصدًا رؤية تمثال؟
ـ هاهاهاها.
ـ كفاكم ضحكًا، ألا ترون لايارد أمامكم وقد عبر البحار آتيًا من بعيد ليأخذ هذا التمثال؟!
ـ لا حاجة لنا بهذا التمثال الغريب، ليأخذه بعيدًا ويخلصنا منه فهو يخيف الأطفال ويسبب لهم الكوابيس.
ـ خوفكم منه هو الذي سبب الكوابيس لأطفالكم.

21

ابتعدنا كثيرًا عن التلال ومازل أمامنا مسافة طويلة قبل أن نصل إلى مجرى النهر... لم يشكو أحد من التعب, ما عداي أنا.
كم رغبت بأن أقترح استراحة قصيرة أسترد بها أنفاسي, لكن من سيأبه لطلبي؟ فهم لا يأتمرون إلا بأوامر لايارد ولا ينقادون إلا بتعليمات رفيقهم سليمان.
إنضم إلينا لايارد من جديد بعدما اطمأن لمسيرة العمل قرب مجرى النهر. تهللت وجوههم وهم يستقبلونه بالهوسات العشائرية, يسميه بعضهم الباي لشدة تقديرهم له.
شعرت بالارتياح حين وصولنا إلى أرض سهلة ومنبسطة.. لم يعد هنالك من مسير على أرض صخرية تؤلم الأقدام. يبدو أنني وحدي كنت متضايقًا من خطواتي فهم تعودوا السير على أرض وعرة المسلك.
لم تدم فرحتي كثيرًا. انزلقت العجلات الأمامية للعربة في حفرة كبيرة كانت مموهة بأعشاب كثيفة تم تغطيتها بتراب الأرض كي لا نميزها. كانت عميقة جدًا وتحتوي على الكثير من أكياس القمح والشعير وصناديق السكر وصناديق أخرى تحتوى على لحم مملح ومجفف!
حاولنا إخراج مقدمة العربة من الحفرة لكن بلا جدوى. شعر لايارد بالغضب وهو يلقي بالحبل أرضًا بعدما يأس من إمكانية سحب العربة:
ـ عجبًا, من أين جاءت هذه الحفرة اللعينة! من الذي يفكر بتخزين طعامه هنا في هذه البرية؟!
رد سليمان وهو يلهث من التعب:
ـ يبدو أنها لتخزين الغلال والطعام يا باي.
ـ فهمت, لكن من يخزن طعامه هنا؟! ولماذا؟!
ـ ربما هذه الحفرة من عمل أهل تلك القرية التي تلوح لنا هناك. بعض القرى اعتادت خزن مؤنتها خارجًا, كي لا يفلح الجنود العثمانيين بالاستيلاء عليها حينما يأتون للجباية عند بداية الموسم.

ربطنا العربة من الخلف بحبل متين, ثم ربطنا طرفه الآخر بشجرة قريبة كي لا تنزلق أكثر ويغوص التمثال في عمق الحفرة. بقي البعض قرب العربة للحراسة بينما توجهت مع لايارد وأربعة من الرجال إلى القرية التي لاحت لنا من بعيد لنطلب العون.
شممت رائحة النار عن بعد فتوقعت بأنها أوقدت للطبخ, فالشمس تشرف على المغيب وهو بلا شك موعد العشاء.
عند اقترابنا سقط نظري على ثلاثة أشجار متفحمة رميت قرب مدخل القرية لتعيق دخول العربات إليها. تناثرت بعض الصخور في ممرات القرية وقد انتشرت عليها بقع دم التصق به بعض الشعر... كأن هنالك رؤوسا قد تكسرت فوق تلك الصخور الحادة!
لم أسمع غير أصوات طيور بقيت محلقة في السماء بحثًا عن عش أو بيوض احترقوا مع تلك الأشجار. ما خلا تلك الطيور لم يكن هنالك من أثر حياة من حولنا.
ـ إلى أين أنت ذاهب يا لايارد؟ يبدو أنها قرية مهجورة.
ـ بالفعل يا باي, إنها تثير الخوف... وليس معنا أسلحة. علينا المغادرة بسرعة.
شربت قليلا من الماء من ساقية ملئت بالأحجار, شعرت بطعم دم مخلوط مع ذلك الماء فبصقته بسرعة.
سمعنا صوتًا لم نميز مصدره:
ـ من أنتم؟ ماذا تريدون منا؟
شعرنا بالخوف من ذلك الصوت الذي جلجل فجأة ليتغلب على هدوء الأشباح المخيم على تلك القرية المهجورة. التفتنا بسرعة يمينًا ويسارًا علنا نعثر على مصدر الصوت.
ـ قلت من أنتم؟ ألا تسمعون؟!
ـ أنا هنري لايارد, أتيت ورفاقي طلبا للمساعدة.

خرج رجل برداء كهنوتي من منزل صغير تهدم نصف سقفه ليبرز خشب السقف والجدران كهيكل عظمي تفسخ اللحم من حوله.
اقترب منا مرحبًا بابتسامة مرتبكة:

ـ أهلًا بكم في قريتنا... المعذرة على سوء الاستقبال, لكن كما ترون لم يبق في قريتنا غير الأطلال التي تأوي القليل من الناجين.
مد لايارد يده مصافحًا:
ـ أنا أسف لما أراه أمامي, ولكن ما الذي حل بكم؟! لم كل هذا الخراب؟!!
بصوت يكاد يختنق من الغصة:
ـ لا نعرف من هم ومن أين جاءوا.. إنهم عصابة كبيرة, قلوبهم أشد سوادًا من لباسهم.. أغاروا علينا ليلًا وقتلوا أغلب الرجال والنساء. حتى الشيوخ والأطفال لم يسلموا منهم.
ـ أنا متأسف جدًا لما أصابكم أيها القس.
ـ لست قسًا, أنا شماس, إسمي يوحنا.. آباؤنا القساوسة قطعت رؤوسهم جميعًا. فليرحمهم الرب.

عم الصمت لبرهة...
لم يجد أحد منا ما يقوله إزاء ما سمعنا للتو... لم نجد كلمة كافية أو مناسبة لمؤاساة ذلك الشاب... شعرنا بالخجل من طلب المساعدة من أناس تعرضوا لنكبة لا مثيل لها..
ـ تعالوا, تفضلوا معي من هنا.
سرنا وراءه بصمت جنائزي. اقترب من منزل نصف مهدم وطرق بابًا تكاد أن تهوي أرضًا.
ـ من؟.. من على الباب؟
ـ إنه أنا يا أبا يعقوب, افتح الباب.
انتظرنا قليلًا قبل أن يفتح الباب رجل مسن يضع قفطانًا سميكًا على كتفيه ليحتمي من البرد في منزل تلعب فيه الرياح من كل الجوانب.
ـ مرحبًا يا عم, لدي ضيوف كما ترى.
ابتسم أبا يعقوب بثغر رحلت أغلب أسنانه كما رحل عن قريته أغلب سكانها.
ـ أهلًا، أهلًا. تفضلوا إلى الداخل.
شعرنا بالتردد والخجل:
ـ تفضلوا قلت لكم, مالكم لا تتحركون؟!

دخلنا المنزل لنعثر بداخله على مجموعة من الأطفال.. كانوا قرابة عشرين طفلًا دون العاشرة من العمر.
التفت إلينا الشماس يوحنا:
ـ إنهم الأطفال الذين أفلحنا بإنقاذ حياتهم... نجا البعض ومات من مات مع أهله.
أشار بيده إلى فضاء رحب خلف المنزل، كنا نراه من خلال الجدار المكسور. الصلبان الخشبية تنبت على تلك الأرض كحقل واسع ترقص فيه سنابل القمح الذهبية.
لم أفلح بإخفاء دموعي.. مسحت خدي, فسالت عليهما دموع ثانية, مسحتها من جديد لكنها لم تتوقف, تركت دموعي تنهمر كمطر تأخر موعده.
وضع الشماس يوحنا يده على كتفي:
ـ أشكرك يا أخي.. عذرًا على عدم مشاركتنا لك بهذه الدموع... لم يبق لدينا دموع نكحل بها أحزاننا.
تراجعت خطوات إلى الوراء متحاشيًا النظر إلى عيون أطفال داعبوا الموت وهم يدفنون آبائهم بأيديهم.
اقترب منا أبو يعقوب:
ـ اجلسوا على هذا البساط أرجوكم, سآتيكم بالخبز والدهن الحر.. يبدو عليكم الجوع والتعب.
ـ كلا, لا تكلف نفسك يا أبا يعقوب.
ـ لا تقولوا هذا, أنتم ضيوفنا. لن ينسينا الموت ما تربينا عليه. اجلسوا لآتيكم بالطعام.

تعمدنا ألا نأكل غير القليل من الخبز. فأمامه العشرات من البطون لإطعامها.
ـ كلوا, ما لكم لا تأكلون؟!
ـ لا نريد أن نكلفكم يا شيخنا.
ـ لا تقلقوا, لدينا والحمد لله الكثير من الطعام. لدينا مخزون يكفي المئات, وكما ترون لم يبق منا غير حفنة من الرجال والأطفال.
ـ هل الطعام المخزون في الحفرة خارج القرية هو لكم؟
ـ نعم, انه لنا يا سيد لايارد, لماذا تسأل عنها؟

ـ لقد انغرست عربتنا في تلك الحفرة ولم نفلح باخراجها منها.
ـ لدينا ثورين وبقرة... سيأتيكم الشماس يوحنا بها لتعاونكم على سحب عربتكم.
سرنا وراء الشماس بحثًا عن الدواب. مررنا من أمام كنيسة تتوسط القرية. آثار الفؤوس تنتشر على جدرانها. جذب انتباهي البوابة الصغيرة لتلك الكنيسة... اقتربت منها, كان علي أن أخفض رأسي كي أتمكن من المرور عبر تلك الباب:
ـ لماذا هذه الباب صغيرة جدا بهذا الشكل؟! هل هنالك بوابة أخرى غير هذه؟
ـ كلا, انه المدخل الوحيد للكنيسة.
ـ لكنها صغيرة جدًا!! كأنها صنعت للأقزام.
ـ في قرانا نصنع أبواب الكنائس بهذا الانخفاض كي لا يتمكن العثمانيون أو عصابات المخربين التي تهاجمنا من الدخول بجيادهم إليها. لا نريد أن يدخلوا بدوابهم إلى بيوت الرب.

أخرج لايارد من حقيبته كيس نقود وناوله للشماس يوحنا:
ـ إنها هدية بسيطة لقاء استقبالكم ومساعدتكم لنا.
ـ لسنا بحاجة للمال يا سيدي, لكن إن كنت ترغب فعلًا بتقديم هدية لنا فأنا لدي طلب آخر.
ـ تفضل, قل.
ـ هل لديك نسخة من الكتاب المقدس؟
ـ نعم, لكنه باللغة اللاتينية, هل تريده؟
ـ نعم من فضلك.
أخرج لايارد كتابا بغطاء أزرق اللون وناوله للشماس يوحنا:
ـ ألا تمتلك الكتاب المقدس وأنت تعمل في الكنيسة؟!
ـ كان لدينا لكن العصابات التي هاجمتنا أحرقت مكتبة الكنيسة, سارع القساوسة لإنقاذ الكتب المهمة والمخطوطات المقدسة وأخفوها في مكان آمن, ربما خارج القرية.
سألته بسرعة وقد عادت إلى ذاكرتي معضلة المخطوطات التي استولت عليها مكتب الكونغرس الإمريكي:

ـ وماذا تنتظر لاسترجاع تلك الكتب والمخطوطات؟
ـ كيف لي أن أسترجعها؟.. لقد قطعوا رؤوس القساوسة بأسرهم ولم أعد أعرف أين أمست الكتب. دمروا حاضرنا وأضاعوا تاريخنا.

* * *

على ضفة النهر تنتظرنا طوافة خشبية، أحد الرجال ينفخ قربًا من جلد الماعز بينما انشغل آخر بربط القرب المنفوخة على جوانب الطوافة. حينما انتهيا من عملهما سحب الرجال الطوافة حتى أصبحت تلامس الماء. سحلوا التمثال من جديد..
زحزحوه يمينًا ويسارًا ليستقر بالتالي على ظهر الطوافة التي راحت تنوء بحملها وتتأرجح فوق النهر، ثم طفت بصعوبة على سطح الماء.
لم تقتصر الحمولة على التمثال لوحده وإنما صعد معه أكثر من عشرين رجلًا. خشيت أن تتفكك تلك الألواح الخشبية التي تشكل جسد الطوافة، كنت أتصور بأن الألواح ستتفرق في النهر ويغوص الثور إلى الأعماق.
لاحظ سليمان القلق مرتسمًا على وجهي وأنا أحملق بهذا المركب البسيط:
ـ اصعد يا سالم، لا تخف هذه الطوافة تتحمل أكثر مما تتوقع. إنها قوية ومدعومة بالقرب. وزنها كوزن الريشة إلا أنها تستوعب حمل عشيرة.

منذ البداية وأنا أراقب سليمان، كان هذا الرجل بمثابة القائد الذي يمثل الشيخ عبد الرحمن بغيابه، ما إن يلفظ كلمة حتى يهب رفاقه لتنفيذها دون تردد. يأمر فيطاع! لم يكن أكبرهم عمرًا لكنهم يبجلونه كشيخ قبيلة.
مثل بقية الرجال ركبت الطوافة منصاعًا لأمر سليمان برغم عدم اطمئناني لهذا المركب المتراخي.
للمرة الأولى أشعر بأنني أتمنى للايارد حظًا موفقًا وأن يصل إلى بر الأمان بدلًا من فقدان الثور كما حصل مع القنصل الفرنسي. لو غرق التمثال فإننا سنفقده إلى الأبد لأن النهر يغير مجراه باستمرار ولن نعثر عليه.. وإن أفلح لايارد وأوصله إلى لندن فربما سنطالب به في يوم ما..
عندما أعود إلى هيئة الآثار والمخطوطات في بغداد فسأنهي في البداية

ملف استرجاع المخطوطات من أمريكا ثم سأتفرغ بعدها للمطالبة باسترجاع هذه الآثار من المتحف البريطاني..
ربما في هذه الأثناء قد عاد محمد من الموصل وباشر مهامه الأساسية بمتابعة تلك الملفات..
تسابقوا أمامي لركوب الطوافة, وجوههم ملهوفة ليحتل كل منهم مكانه قبل أن يأخذه غيره؛ استفاقت عندهم من جديد روح الإغارة العشائرية. لم يفكر أحد منهم بالاستغناء عن ابتسامته, بقيت أراقب وجوههم الفرحة كأنهم يتوجهون إلى رحلة نهرية للترويح عن النفس. وضع سليمان يده على كتفي:
ـ أغلبهم لم يخرجوا من الموصل منذ ولادتهم. هذه هي فرصتهم الأولى وربما الأخيرة التي سيغادرون فيها لواء الموصل نحو لواء بغداد. وربما سيحالفهم الحظ وتدوس أقدامهم لواء البصرة.. من يدري!

كان يتحدث عن الألوية الثلاث وكأنها دول متباعدة وصعبة البلوغ. ألححت عليه بالقول بأن هذه الألوية ليست ألا أجزاء لدولة واحدة لكنه لم يستوعب كلامي أو بالأحرى لم يصدقه لأنه لايعرف غير الدولة العلية العثمانية ولا يتوقع زوالها حتى ينفخ إسرافيل في الصور!
تركتهم يهزجون ويغنون خلال الطريق بقصائدهم التي تتغنى بحروبهم وبأمجاد عشيرتهم, بينما انشغلت بمراقبة القرى الصغيرة والأكواخ المتفرقة على جانبي النهر.
تزداد القرى كثافة كلما نزلنا باتجاه الجنوب. بساتين النخيل المتشابكة والتي تحف بالنهر منعتني في بعض المناطق من التطلع للقرى القريبة.
كنا نمر في بعض الأحيان بجانب قرى تجمعت نساؤها قرب النهر إما لغسل الثياب أو لغسل الأطفال، بينما كان بعض الصبية يسبحون بعيدين عن أمهاتهم اللواتي لم يتوقفن عن مناداتهم كي لا يبتعدوا عنهن.
وددت أن أسأل سليمان عن الكلمات التي لم أفهمها من كلام النسوة لكنه كان مشغولًا طوال الوقت بتوثيق الحبال والتأكد من رباطات القرب حول الطوافة..
بعض الصبية يسبحون قرب المواشي التي تعوم في النهر كي لا يتركونها تسبح بعيدًا والنهر يتأطر بضحكاتهم المتناثرة من حولنا.

خشيت أن تصطدم الطوافة بإحدى المواشي التي لم يكن يظهر منها غير الرأس والقرنين لكنها سبحت بعيدًا عن طريقنا بصورة آلية ما إن رأوا الطوافة تقترب منهم.
كانت الحيوانات تسبح في النهر بحثًا عن بيئة أكثر برودة هربًا من حر الشمس التي جلدتنا بحبالها الذهبية. وحدي أنا كنت مكشوف الرأس تحت الشمس أما بقية الرجال فقد غطوا رؤوسهم بغترهم البيضاء المطرزة باللون الأحمر، واتقى لايارد أشعة الشمس بقبعته البنية.
لم تزعجني الشمس كثيرًا بقدر ما ضايقتني كثرة البعوض من حولي.. لم يتوقف عن قرص وجهي ورقبتي طوال الطريق بينما لم يقترب إلى أحد منهم.. ربما اقترب منهم لكن تعودهم على تلك البيئة جعلني لا ألاحظ ذلك.
عند حلول المساء قررنا أن نتوقف لنسترح قليلًا على اليابسة ونبحث عن شيء نأكله. جدف الرجال مقتربين من ضفة النهر، قفزوا الواحد تلو الآخر وبدءوا بسحب الطوافة بالحبال نحو الضفة. بقي التمثال ممددًا على الألواح الخشبية. اقترحت أن نربط الطوافة بنخلة كانت قريبة جدًا من حافة النهر.
رحب لايارد باقتراحي وبدأ بتنفيذه دون أن يكلف أحدًا بذلك.
بقيت أراقب النخلة التي كانت شديدة الميل نحو دجله. كان رأسها منحنيًا مقاربًا لمجرى الماء وكأنها تميل على النهر طالبة منه مداعبة خدودها أو لتهمس له بأسرارها. تخيلتها امرأة عشقت دجلة فانحنت لتقبيله. كان التمثال يطفو على النهر ويرقص مع الأمواج وهو مربوط بحبل حول جذع النخلة. تخيلته كطفل وليد لا يزال مربوطًا بالحبل السري ولا يرغب بالانفصال عن أمه.

تساءلت عن مصير الألواح التي عثر عليها هرمز، ربما أستخرجها كلها في هذه اللحظة، لكن أين سيذهب بها؟ لن يكون لديه مجال واسع ليحفظها في بيته فيا ترى هل سيذهب بها إلى القنصل الفرنسي؟ أعلم بأن عددًا من تلك الألواح سيذهب إلى المتحف البريطاني وسيضم الجناح الآشوري في متحف اللوفر بباريس هو الآخر ألواحًا آشورية، لكنني لم أهتم في يوم ما بتقصي أخبار هذه الحقبة فبقيت جاهلًا للطريقة التي خرجت بها تلك الآثار.

أرجح أن يكون هنالك اتفاق قد أبرم بين لايارد والقنصل الفرنسي بول أميل بوتا، اتفاق يخفي الكثير من الأسرار؛ قنصل فرنسي لا علاقة له بالشؤون الدبلوماسية لأنه عالم آثار! ليس لديه مهام في العراق غير التنقيب واستخراج الآثار؛ أما تطوير العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والحكومة العثمانية فلم تكن من أولياته.
ربما هرمز هو الآخر جهز طوافة مماثلة ولحق بنا لتذهب الآثار دفعة واحدة. لم أفكر بسؤال لايارد لأنه لا يمنح أسراره إلا لهرمز الذي أسمته بريطانيا "الرجل الذي كلف المملكة مليون باوند".
هرمز الموصلي هو الآخر كان باحثًا عن الثروة قبل أن يولد طموحه الذي جعله عالم آثار. ربما هرمز هو الآخر كحال هؤلاء القرويين لم يكن يعلم بأن هذه الآثار لن تعود إلى العراق. أقنعه لايارد بفكرة المعرض الذي سيضم آثار العراق. لكنه لم يف بوعده لهرمز ووعده بأنه سيحصل له على إذن ليسفره إلى بريطانيا ليدرس علم الآثار هناك.. ووفى لايارد بهذا الوعد ليصبح هرمز رسام أول عالم عراقي في هذا المجال. سيعمل فيما بعد لحسابه الخاص وسيستخرج هو الآخر قطعا أثرية ليتاجر بها.. سيصبح اسم عائلة رسام من بين العائلات الثرية في بريطانيا؛ سينتقل إلى لندن ولن يعود ثانية إلى الموصل. ستنقطع جذوره من هناك، سيرث أبناؤه ثروة طائلة وسينسى أحفاده من أين أتت تلك الثروة ولن يتذكروا من أين أتى جدهم.

عاد رجلان من رجال الشيخ عبد الرحمن وهما يحملان ربطة من أرغفة الخبز الأسمر الساخن وسلة من البيض المسلوق والجبن والقليل من الزيتون الأسود. جلسوا أرضًا ونادونا لنشاركهم الطعام. تجمعوا جلوسًا بعباءاتهم السوداء حول السلة كحلقة دراسية في مسجد.
لاحظت أن أحدهم كان يجد صعوبة في الجلوس أرضًا، لم أهتم بسؤاله إن كان مريضًا أم لا. على الأغلب إن كان يشكو من شيء لما فكر الشيخ عبد الرحمن بإرساله معنا. اكتشفت فيما بعد بأنه أجرى عملية ختان مؤخرًا استعدادا للزواج! لم أستوعب كيف بقي من دون ختان حتى مرحلة الشباب! على ما يبدو هنالك من لا يعير أهمية لهذا الأمر في البدو ولا

يفكرون به إلا عند اقتراب موعد الزواج. مسكين ذلك الشاب كلفه الشيخ بمهمة قد تطول وبسببها ستتأخر أسباب متعته.
اقتربت منهم وقد شعرت بالجوع في اللحظة التي داعبت رائحة الخبز أنفي وسمعت هسيسه وهو يضعه على عباءته الملقاة أرضًا.
ناولني سليمان رغيفا ساخنًا وبيضتين مسلوقتين وقطعة صغيرة من الجبن المالح قطعها بأسنانه! توقعت بأنه سيستخدم سكينته المعلقة على خاصرته.
انزويت تحت نخلة محملة بالتمر, نظرت قليلًا إلى أثر أسنانه على قطعة الجبن قبل أن آكلها.. راقبت لايارد خلال تناولي للطعام, لم يتحرك من مكانه. كان يبدو منومًا مغناطيسيًا أمام التمثال، كيف لا وهذا التمثال يحمل معه سر نجاح باهر سيرافقه إلى الأبد.
ـ ألا تريد أن تأكل؟
ـ بلى يا سالم، أنا جائع لكن.. أخشى أن أسهو عن التمثال ف...
ـ فيهرب مثلًا.
ـ ربما.. قد ينقطع الحبل وأخسر التمثال.
ـ فهمت, سآتيك بشيء تأكله.

بدأ يلتهم الخبزة السمراء مع البيض بشراهة, لم آخذ له جبنًا لأني توقعت بأنه لن يأكله من فم سليمان:
ـ أنا أتضور جوعًا لكن الوسواس الذي برأسي أقوى من الجوع الذي في معدتي.
ـ أي وسواس؟!
ـ وسواس فقدان التمثال. القنصل بوتا عثر على أربعة تماثيل مشابهة لهذا الذي معي. استخرجهم من شمال الموصل قرب منطقة أسماها قصر آشور ونقلهم بنفس الطريقة التي نتبعها الآن لكن خلال الطريق نحو الخليج غرقت بعض التماثيل ولم يبق معه غير واحد أرسله فيما بعد إلى باريس. أما أنا فليس معي غير هذا... إن غرق فلن يصل إلى لندن غير أخبار فشلي في هذه المهمة.

حبست غضبي في أحشاء كادت أن تنفجر:

ـ ربما التمثال هو الذي دافع عن نفسه ورفض أن يهاجر إلى هناك مفضلًا الغرق في أرضه بدلًا من الغربة.
ـ هذا غير ممكن!
ـ قد يكون غير راغب بالتخلي عن جذوره فآثر الانتحار ليبقى في أرضه.
ـ كلامك لا معنى له, إنه حجر من دون روح ولا قدرة له على التفكير.

كنت أرى تلك الثيران المجنحة تجسيدًا لكل أنواع الرجال في بلادي، فثيران هاجرت، وثيران بقت ومنهم من رمى بنفسه في النهر منتحرًا بعدما يأس من الحياة وسأم من عجزه عن الاختيار بين هذا وذاك.

تقدم سليمان من حافة النهر ليتوضأ, راقبته وهو يبتعد خطوات عن النهر وبدأ يصلي على عباءته المفروشة أرضًا. لم أفهم كيف استطاع أن يعرف جهة القبلة! كأنه بحركته تلك ذكر بعض الرجال بالصلاة فتوجهوا للوضوء وتراصفوا خلفه ودخلوا في الصلاة.
تمدد البعض الآخر أرضًا متغطين بعباءاتهم السوداء التي انتشر عليها التراب, وغطوا سريعًا بنوم عميق، حتى قبل أن ينتهي رفاقهم من الصلاة.
عند الفجر راقبت أحدهم وهو يتسلق النخلة بخفة وثبات. وصل إلى عناقيد التمر القرنفلي، تتلألأ حبات التمر بلونيها الأصفر والبني تحت أشعة شمس الصباح. أخرج من حزامه سكينًا صغيرة وبدأ يقطع أغصانًا محملة بالتمر ويرميها لرفاقه.
تناولت نصيبي مع ما تبقى من خبز الأمس.
بقيت أراقبهم وهم يأكلون حبات التمر ويرمون النوى بعيدًا عنهم يمينًا وشمالًا بينما كان لايارد يجمع النوى قربه دون أن يرميه بعيدًا.
التمثال مستمر بالرقص على صفحة الماء منذ الأمس، رقصة هادئة وحزينة. أشعر بالموسيقى التي رقص على أنغامها ذلك التمثال المهيب.
الشمس ترسل أول خيوط النهار، خيوط تطرز على صفحة الماء صورًا من حول الثور المجنح الطافي على سطحه. تتحرك تلك الصور بسرعة لتحل محلها صور ثانية. كان فنًا يزول بسرعة. كمن ينحت تمثالًا من الثلج ويتركه يذوب بعد ساعات تحت خيوط الشمس. أو كمن يبني قصورًا من الرمال.. فن طبيعة هاربة.

صوت الطيور البعيدة يتلاشى بين هسيس سعفات النخيل وخرير مياه دجلة, أرى الماشية والدواب من بعيد وهي تأكل الأعشاب التي تلتف حول جذوع النخيل. أشعر بأصواتها وهي تمضغ طعامها, طعام الصباح له دائمًا طعم مختلف عما يليه.
أشعر بموسيقى صامتة تحرك كل شيء من حولي. أكتفي بالشعور بهذه المعزوفة الرائعة، لست بحاجة لسماع الأنغام بتاتًا. فأجمل موسيقى ألفها أصم! شعر بها، سمعها في داخله وأسمعني إياها. كانت هذه المخطوطة من دون تنقيح. خرجت كنفس واحد، نفس إلهي جاء متكاملًا. أصبحت أسمع بأذني تارة وبوجداني تارًة أخرى.
مررت لبرهة بذلك الإحساس، شعرت بتلك الموسيقى التي تحرك ذلك العالم الذي مضى عليه أكثر من قرن ونصف. أدركت من خلال تلك الأنغام التي ولدت في أعماقي في تلك اللحظة أنني أعيش في عالم أزلي. عالم يتكرر ويعيد نفسه باستمرار كي يحافظ على أزليته.
وهذا الماضي الذي أعيشه الآن قد يكون أمرًا طبيعيًا ويحدث لكل شخص من حولي. ربما الماضي يتكرر باستمرار دون أن نعي ذلك. كالفصول المتعاقبة فهي لا تغادرنا نحو الفناء وإنما هي تحجب نفسها عنا لتتجدد مرة ثانية وتعود وهي في قمة تألقها.
قبل سنة كان هنالك صيف قائض وها هو يعود بحرارته من جديد، هو نفس الصيف وهي نفس الشمس! أليس هذا تكرار لما عشته في الماضي؟
هكذا بدأت أنظر إلى الزمن. لم أعد أراه مقتصرًا على حركة عقارب الساعة.
لم يعد الزمن بالنسبة لي لحظة تغادرني فلا تعود وإنما كل شيء يختفي من أمامي سيعود في أية لحظة وسأكون على موعد مع كل شيء عشته في السابق.

22

وصلنا إلى مجرى ضيق من النهر، بذلنا جهدنا لنتوسط حوض دجلة متحاشين الارتطام بأحد الجانبين كي لا نفقد التوازن فيستغل التمثال فرصة اهتزاز الطوافة ويهرب منا إلى القاع كما فعل أشقاؤه من قبل.
لم أر لايارد قلقًا بهذا الشكل من قبل. حتى عندما فاجأنا المفتي ورجاله كانت نظرات لايارد مطمئنة، كأنه واثق من نجاة التمثال من بين أيديهم، لكن وسواس الغرق هو كابوسه الحقيقي الذي طارده منذ بداية الرحلة أو ربما حتى قبل انطلاقها.

بعد اجتيازنا للممر الضيق مررنا بمحاذاة سهل واسع ومنبسط. كان السهل مقفرًا! تساءلت عن سبب عدم إنشاء قرية صغيرة على هذه الأرض المنبسطة! شعرت بالخوف من ذلك الهدوء الغريب الذي يخيم على المكان، أدركت أن هذا الخوف لم يكن إلا حدس بخطر يحدق بنا.
برز لنا من وراء صخور بعيدة ومتناثرة عصبة من الرجال المسلحين بالبنادق والسيوف والفالات. صوبوا أسلحتهم نحونا وأمرونا بالتوقف والاقتراب من حافة النهر وإلا سنتحول إلى أهداف لنيرانهم.
صرخ سليمان:
ـ لا تطلقوا النار، نحن لا نحمل شيئًا ثمينًا. ليس لدينا ما ينفعكم.

لم يصدقوه.. حتى أنا لم أصدقه فما معنا هو أثمن ما وقعت عليه عيناي. أصروا على إيقافنا ليفتشوا حمولتنا. رضخنا لطلبهم وجذفنا نحو حافة النهر. سحبنا الطوافة بهدوء إلى الحافة كي لا نخسر التمثال.. لاحظوا اهتمامنا وعنايتنا بالحمولة المغطاة بقماش سميك.
هوس لايارد بفكرة سقوط التمثال في النهر توجه هذه اللحظة صوب قطّاع الطرق الذين ربما سيسلبونه كنزه أمام ناظريه.
تقدم نحونا رجل أربعيني يرتدي جلابية بنية ثبتها على جذعه بحزام جلدي مليء ببيوت الرصاص ومحشو برصاص فضي اللون. كلمنا دون أن ينزل عن جواده الذي تدرج لونه بين الرمادي والأسود.

ـ ضعوا على الأرض كل الأشياء الثمينة التي تحملونها معكم.
لم يكن أحد منا يحمل ما يمكن أن ينفعهم ما عدا لايارد الذي كان معه بعض المال وليرات قليلة تفرقت بيننا.
أخرجنا ما كنا نحمل من مال وطعام ووضعناه أرضا أمام الرجال المسلحين. تفرسنا قائدهم بنظرات غاضبة ثم قال مستهزئًا:
ـ تقطعون مسافة بعيدة ولا تأخذون معكم غير القليل من الطعام وحفنة صغيرة من الليرات؟!! أين البضاعة التي تنقلونها؟

نظرنا إلى بعضنا لا ندري ما نقول، فالبضاعة التي معنا لم تكن بضاعة تباع في الأسواق, على الأقل في تلك الفترة. لكن كيف السبيل لإقناع قاطع طريق بهذا الكلام.
ـ لا نحمل معنا بضاعة ثمينة.
ـ فلماذا تسافرون إذن إن لم يكن معكم ما تبيعونه؟! وما من مال معكم لتشترون به بضاعة حين تعودون! هل تظنوني أحمق؟ أخرجوا بضائعكم قبل أن أوثقكم وأرميكم في النهر.
ـ ليس معنا غير هذا التمثال... انه منحوت من الصخر لا أكثر.

نظر رئيس العصابة إلى لايارد دون أن يرد عليه، فالمنحوتات لا تعني شيئًا لقاطع الطريق ولا يعتبرها أبدًا صيدًا ثمينًا. دفع لايارد جانبًا وتقدم نحو الطوافة المربوطة بالنخلة وهي ترقص بهدوء على سطح الماء. بحركة غاضبة سحب الغطاء عن التمثال المسجى على جانبه الأيمن كأسد يحتضر:
ـ رباه!! ما هذا؟! ما هذا الشيء الذي أمامي؟! تعال يا ضاري... تعال وأنظر هذا.
تقدم أحدهم ووقف مشدوهًا كسيده أمام الثور المجنح:
ـ أشهد أني لم أشعر في حياتي بالرعب من مواجهة الحيوانات المفترسة في هذه الصحراء ولم أخش الموت حين واجهت الأشداء من الرجال لكن... لكن هذا الشيء يدخل الرهبة بقلب من يراه!!
ـ أليس كذلك؟ ظننت أنني وحدي الذي شعر بهذا!
التفت إلى رجاله وصرخ بأعلى صوته:

ـ من يحمل منكم فأسًا؟ أريد فأسًا بسرعة.

تقدم أحد الرجال وناوله فأسًا.. انتشل الفأس بيمينه وهب بسرعة نحو التمثال. ركضت نحو رئيس العصابة لأعترض طريقه:
ـ إلى أين يا رجل؟ ماذا ستفعل بهذا الفأس؟
نظر إلي دون أن يتوقف وقال بصوت ثابت:
ـ هناك سر في هذا المخلوق.. لم تحملون تمثالًا عاديًا وتعبرون به مسافة طويلة دون أن يكون هنالك شيء تخفونه عنا.
ـ وماذا تريد أن تفعل بالضبط؟
ـ هذا التمثال أمامي.. هناك سر بداخله. أنتم تخفون ذهبا أو مجوهرات بداخله.. يجب أن أكسره لأرى ماتخفونه عني.
ـ لا يمكنك أن تفعل ذلك. سترتكب كارثة عظمى إن فعلت.
ـ ابتعد يا هذا وإلا قيدتك ورميتك في النهر. سأرى ما بداخله، إن كان فارغًا فأنتم أحرار. وإن عثرت على أموال بداخله فسآخذها من بعد أن آخذ أرواحكم لأنكم كذبتم علي.
شعر رجال الشيخ عبد الرحمن بالارتباك خشية تحقق ظن قاطع الطريق. ماذا لو كان هنالك بالفعل ذهب بداخله. لم يفكروا بهذا الاحتمال من قبل كما لم يخطر على بالهم التعرض لمأزق مماثل على يد قاطع طريق، وإلا لكانوا قد تسلحوا للمواجهة. لم يساورني شك بأنه لا يحتوي على ذهب, فقبل أن أصل إلى هنا رأيت صور داعش وهي تكسر ثيرانًا مجنحة ولم يكن بداخلها غير صخور تفتت تحت الفؤوس.
لم يكن معنا غير بندقية واحدة حصلوا عليها بعد مواجهة مع الجنود العثمانيين خلال إحدى المعارك. احتفظ الشيخ عبد الرحمن بالغنائم ولم يمنح بنادق إلا للرجال الذين لم يكن بحوزتهم سلاح فعال. قام بخزن بقية الأسلحة وعندما كلف رجاله بمرافقة لايارد منحهم بندقية واحدة. لم يذعن لإلحاح سليمان وأكد أنها ستكفيهم لمواجهة مخاطر الطريق.
دعك سليمان لحيته وهو يقول لمن كان واقفًا قربه:
ـ لو كان الشيخ عبد الرحمن وافق على تزويدنا ببندقية لكل رجل منا, لما كنا الآن نعيش ساعاتنا الأخيرة.
التفت رئيس العصابة وهو يقول لرفيقه ضاري:

ـ هل سمعتهم يتحدثون عن الشيخ عبد الرحمن؟
ـ أظن ذلك يا أبا صقر.
التفت رئيس العصابة وعاد أدراجه نحو الرجال المجتمعين على بعد أمتار والبنادق مصوبة نحوهم بانتظار إشارة الاطلاق. أشار أبا صقر لرفاقه بخفض الأسلحة حينما أصبح في مرمى نيرانهم. ثم التفت نحونا.
ـ من أين أنتم؟ لأي عشيرة تنتسبون؟
ـ نحن من عشيرة الشواهر.
تنحنح أبا صقر ثم أمر رجاله بإبعاد أسلحتهم تمامًا.
ـ ما اسم شيخكم؟
ـ الشيخ عبد الرحمن وهو الذي كلفنا بهذه المهمة.
ـ أية مهمة؟
ـ أمرنا الشيخ عبد الرحمن بمرافقة هذا الرجل وإيصاله وحمولته إلى الخليج ومن ثمة نعود إليه... رفض أن يمنحنا أسلحة كافية مؤكدًا بأننا لن نكون بحاجة لذلك.
ـ بالطبع لن تحتاجوا إليها، فهو يعرف بأن صديقه أبا صقر هو الذي يسيطر على المناطق الخطرة التي ستسلكونها في طريقكم.

تهللت وجوهنا عندما سمعنا عبارة "صديقه" بينما شعر رفاق أبا صقر بالغيظ لأنهم خسروا صيدًا سهلًا. لم نتوقع بأن يكون الشيخ عبد الرحمن مرتبطًا بصداقة متينة مع قاطع طريق. لكن هذا الخبر أثلج صدورنا، فهو يحمل معه رسالة نجاتنا من الموت.
ـ هل هذا الأجنبي أيضًا صديق الشيخ عبد الرحمن؟!
ـ نعم إنه السيد لايارد.. صديق مقرب للشيخ. انه رجل ذو مروءة، دفع فدية للعثمانيين لإنقاذ الشيخ من الحبس.
ـ آه سمعت بذلك من قبل، إذن هذا الرجل هو من دفع الفدية. بالتأكيد بسبب كرمه لم يبق معه الكثير من المال.. ومن هذا الرجل ذو الملابس الغريبة؟ مشيرا بإصبعه نحوي.
ـ إنه صديق لايارد.
ـ فهمت.
تقدم أبا صقر نحو لايارد وسأله دون أن يحيل نظره عن الطوافة:

ـ ما ذلك الشيء الذي معك؟ أجبني دون مراوغة...
ـ إنه تمثال. هو عمل فني قديم سأعرضه في لندن وسأعيده إلى الموصل فيما بعد.
تقدم أبو صقر نحو التمثال وجلس القرفصاء أمامه محدقًا في عينيه. بقي صامتا لثوان كأنه يتسلم رسالة من تلك النظرات الحادة التي يوجهها التمثال لمن يجرؤ أن ينظر إلى عينيه.
ـ قلت لي بأنك ستعيد هذا التمثال من حيث أتيت به.. أليس كذلك؟
ـ نعم.. سأفعل.
نهض أبا صقر ليقف قبالة لايارد ويقول له بصوت مستفز:
ـ اسمع يا هذا. عندما أعترض طريق المسافرين لا يثير اهتمامي وإعجابي بهم غير كلمات الصدق التي تخرج من أفواه البعض منهم...
قمة الشجاعة هي قول الصدق, فكل كذبة تخرج من أفواهنا لا تزيدنا إلا جبنًا. أنت وأنا نمتهن نفس المهنة على اختلاف الأسلوب.. هل فهمت؟
من يستولي على شيء كهذا لن يعيده أبدًا.
هذا الشيء.. لا أعرف ما هو, وماذا يكون, وبماذا سينفعك, لكنني أعرف شيئًا واحدا فقط.. لن تعيده إلى مكانه.

* * *

واصلنا طريقنا عبر مجرى النهر نحو الجنوب. مررنا بين قوارب صغيرة لصيادي السمك. كانوا يرمون الشباك ويبقون ساكنين في نفس المكان لدقائق، يتركون قواربهم ذات الأشرعة البيضاء الصغيرة تسير مع تيار الهواء الخفيف حتى يشعروا بأن شباكهم ثقلت وأصبحت تعيق جريان قواربهم الضيقة، فيسحبون الشباك المحملة بالأسماك الصغيرة ويفرغونها في حوض جلدي وسط القارب، ويعودون الكرة من جديد ويرمون الشباك بحثًا عن رزق جديد.
تمنيت لو كان هاتفي المحمول يعمل لالتقطت صورًا لكل ما مر بي من تلك المشاهد التي زالت منذ زمن بعيد. اقترح علينا سليمان أن نتوقف لنرتح قليلًا لكن لايارد فضل أن نتقدم دون توقف حتى وصلنا إلى المدائن, العاصمة القديمة لكسرى إمبراطور الفرس.

لم يبق غير القليل بعدما قطعنا تقريبًا ثلاثة أرباع المسافة. وضع الطوافة ينذر بخطر وشيك بعدما تقطعت بعض الحبال التي تربط الألواح ببعضها. تكسر لوحان تحت الثور المجنح بسبب الوزن الكبير الذي تمركز في الوسط.
شعر لايارد بذلك الخطر وطلب منا على مضض أن نتوقف على حافة النهر قليلًا كي نصلح العطب قبل أن يتفاقم الأمر ويخسر التمثال بعد كل ما تكبده من مخاطر ومشاق خلال الطريق.
انبرى البعض لتصليح وتدعيم الطوافة بينما توجه ثلاثة نحو سوق المدائن لشراء الطعام. عادوا بعد قليل وهم محملين بأرغفة الخبز الساخن والدجاج المشوي وجرة صغيرة من لبن الإبل والقليل من الفواكه والخضر. انقضضت على الطعام، أكلت بنهم من شدة الجوع.. لاحظت أنني أنسى الجوع خلال المسيرة لكن ما إن تتوفر لي فرصة التهام شيء حتى أكتشف بأنني كنت أتضور جوعا دون أن أعي ذلك.
اكتمل تصليح الطوافة لكنها أصبحت أقل حجمًا من ذي قبل!

ـ لقد لاحظت خلال الطريق بأننا كنا أكثر من اللازم.. عددنا الكبير جعلنا نسير ببطء.. أما الآن وقد قارب المشوار على نهايته أرغب بأن أعلمكم بأنكم أتممتم المهمة على أحسن وجه. لن أحتفظ إلا بأربعة رجال منكم.
أما من يريد العودة إلى دياره فهو حر.. يعود ويبشر الشيخ عبد الرحمن بأن المهمة تمت بنجاح. ويخبره بأنني ممتن له ولكم أيضًا, وسأعود في العام المقبل لكي أشكره بنفسي. أخبروه بأني سأحمل له معي بندقية من لندن سننقش عليها اسمه تعبيرًا عن شكرنا له.

لوهلة لم أستوعب ما قال لايارد، لم أكن أنتظر هذه المفاجأة! لايارد يقرر فجأة أن ينهي هذا المشوار.. بالنسبة لي طبعًا لأنه سيواصل طريقه نحو الخليج لكن... لكن من دوني؟!!
كيف سأروي بقية حكايتي وهو يفارقني هكذا في منتصف الطريق؟! وماذا سأفعل بعدما يتركني لايارد؟ هل سأعود إلى الموصل من جديد بانتظار زيارته في العام المقبل كما يدعي؟.. هل علي العودة إلى هناك لتوديع

هرمز رسام؟ لكن رسام هو الآخر مشغول الآن باستخراج ألواح القصر الملكي، البازل الذي سيعيد من خلاله تشكيل لوحة التوراة الناقصة..

اختار لايارد أربعة من الرجال وبالطبع لم أكن من بينهم. لأنه لا يعتبرني إلا كحفار غريب الأطوار لا يجيد شيئًا ورافقه بالصدفة قاطعًا معه أكثر من نصف الطريق. زهد بي كما زهد بالكثير من الرجال الذين جازفوا بحياتهم من أجله.
حيانا فردًا فردًا ثم ركب طوافته الصغيرة وسارت بهم في مجرى النهر من دوني..
بقيت واقفًا على حافة النهر أراقب جريانه بنعومة على سطح الماء.. لو رميت بأقدامي على سطح الماء، هل سأطفو وأسير كالمسيح أم سيغوص جسدي وأغرق كما غرق الثور المجنح؟ لأنني أحيا في هذه اللحظة بعالم متخم بالغرابة شعرت لبرهة بأن هذا الأمر قد يتحقق وأنني سأسير على الماء.
حدثتني نفسي بالمحاولة، في الأحلام يمكنني أن أفعل ما عجز عنه الأنبياء، وقد أفلح بالسير فوق الماء كما فعل المسيح. لوهلة داهمني شعور قوي بأنني لست في حلم. قرصات البعوض التي ما انفكت تلتهم وجهي أكدت لي إحساسي بحقيقة ما أعيشه في هذه اللحظة. لو كنت نائمًا لأيقظتني تلك اللدغات المتعطشة للدماء. ها هو البعوض يتغذى بما يمتصه من دمي فكيف يمكن لهذه الحشرات أن تلدغ وهمًا!

ثقلت قدماي ولم تطاوعاني على التقدم نحو النهر. أجبرت نفسي على التقدم. لم أكن خائفًا لتنفيذ فكرة السير فوق الماء. تقدمت قليلًا في النهر فانغرزت قدماي بالطين. تقدمت أكثر فغطت المياه قدمي, أتقدم في النهر فيرتفع الماء حتى أوشك أن يصل إلى مستوى حزامي.
لن أفلح بالسير فوق الماء، لو استمريت بالتقدم سأصبح طعامًا لأسماك النهر. ها هو جسدي يستعد للغوص في أعماق النهر. ترددت قليلًا لأنني لست واثقًا من كل ما يمر من حولي, قد أتعرض بالفعل للغرق, ربما لست نائمًا فأنا أشعر بالفعل بالماء البارد يبلل قدمي. تبًا للشك الذي لا يبارحني...

ماذا لو لم أكن أحلم, هل سأموت دون أن أعي ذلك؟!
التفت نحو الرجال خلفي لأجدهم يلوحون بأيديهم لتوديع أبناء عمهم ويدعون لهم بالسلامة والعودة إلى الديار. لوحت بيدي مودعًا بصمت وقد غاب نصف جسدي بالماء.
لم أودع غير الثور المجنح. جانبًا من وجهه كان مكشوفًا من وراء الغطاء السميك..
تبادلنا النظرات الأخيرة و... غاب.
غاب؟!...
هل انتهى كل شيء؟ تركت بوابتك وغادرت دون أن تغلقها!
أهكذا بسهولة تغادر بوابتك وهي مشرعة؟!
تركتنا إذن بلا عودة ونحن بأمس الحاجة إليك. لن نراك بعد اليوم، إنه وداع لا لقاء من بعده.
أدركت في تلك الساعة بأن الآلهة قد نامت نوما أبديًا.
أغمضت جفونها ولم تعد ترى شيئًا.
كنت أدرك بأنني مهما شرحت وحاولت مع أولئك الرجال فانهم لن يفهموا معنى تلك السرقة الضخمة.. في يوم ما سنكتشف فداحة ما حدث لكننا ندرك الحقائق غالبًا بعد فوات الأوان! ندرك ما كان يجب أن نفعله. وعندما تبدأ العبارة بـ "كان" فهذا يعني أن كل شيء قد إنتهى.

استمرت الطوافة بالابتعاد بهدوء حاملة معها ثورًا ملقى على جانبه كرجل لا يقوى على النهوض من شدة المرض. رفاق لايارد يدفعون الطوافة بالعصي والمجاذيف بعيدًا عن الجرف. كلما اقتربت الطوافة من حافة النهر دفعوها بعصيهم كي يتوسطوا النهر ويستمروا بالطوفان نزولًا نحو الخليج.
وقفت على أطراف أصابعي كي أراهم بوضوح قبل أن يغيبوا عن أنظاري ويتلاشى كل شيء...
وبالفعل,
تلاشى كل شيء...

لماذا عاد بي الزمن إلى هذا اللحظة المأساوية؟ سقوط بابل المعنوي ترافق مع استيلاء الحيثيون على تمثال مردوخ كبير الآلهة وإخراجه من المدينة. كانت تلك اللحظة هي الانكسار الحقيقي لبابل.. فماذا يمكن أن أسمي هذه اللحظة؟ هل هو انهيار لبلد يحاول العثور على هويته الممحوة وراء الهوية العثمانية؟

لم ألحظ بأن الرجال ساروا مبتعدين عني لعشرات الأمتار دون أن يلاحظوا بقائي في نفس البقعة. وحتى أنا لم أدرك ذلك إلا عندما عاد سليمان ووضع يده على كتفي:

ـ ألن تعود معنا؟

نظرت إليه تارة وإلى النهر تارة أخرى. لم أكن أدري ماذا أفعل أو إلى أين يمكن أن أتوجه.. في الموصل ليس لدي أهل ولا أصدقاء ما عدا هرمز رسام المشغول حاليًا باستخراج الآثار ليرسلها وراء لايارد، أو ليستولي عليها هو ويبيعها فيما بعد. سيعود هؤلاء الرجال إلى أهلهم وعشيرتهم، فلمن أعود أنا؟ وإن تركوني لوحدي هنا فأي طريق سأسلك وأي باب سأطرق؟

ـ ماذا بك؟! هل ستأتي معنا أم لا؟

ـ أين ستذهبون؟

أشار بيده نحو مغرب الشمس:

ـ سنسير بهذا الاتجاه حتى نصل إلى كربلاء... من هناك سنرافق القوافل المتجهة إلى الموصل.

لم يكن لدي خيار آخر. سرنا سوية نحو كربلاء... لطالما اقترح علي أصدقائي أن نذهب سيرًا إلى كربلاء لزيارة حفيد النبي لكنني كنت أستفظع المسافة بين بغداد وكربلاء. كنت أجدها تتجاوز قابليتي الجسدية. أصروا بأن حب الحسين وشوق الوصول إليه يطغيان على الشعور بالتعب. لكن غالبًا ما كانت العزيمة تنقصني لمرافقتهم، ربما لأن أبي لم يلقنني هذه الأفكار.

سرت قريبًا من سليمان مثبتًا نظري نحو نقطة بعيدة.. لا أرى أمامي غير أرض فسيحة جرداء.. التراب يمتد من كل الجهات حتى يلتقي بالسماء الصافية إلا من غيوم متفرقة كتفرقنا على تلك الأرض الرحبة.

الشمس تسطع فوق رؤوسنا, حصدت قبل وصولنا أعشاب الأرض لتترك لنا أرضًا جرداء نسير عليها فتنغرس أقدامنا في رمال ذهبية ساخنة. أسرعنا الخطى متحاشين ترك أقدامنا لمدة طويلة في التراب فتلسعنا حرارة الأرض.
كأنني ولجت عالمًا جديدًا غير ذلك الذي قضيت فيه الأيام الخوالي, كأنني خرجت من حلم لألج في حلم جديد! لم يعد هنالك من نباتات خضراء ولا نخيل مثمر, ولا حتى طيور في السماء.
لم تترك الشمس مجالًا لغيرها ما عدا التراب, وزوابع تلوح لنا من بعيد كأنها غيوم رمادية.
قرفصوا أمامي فجأة وغطوا رؤوسهم بعباءاتهم!
ـ مالذي يجري يا سليمان؟! ماذا بكم؟
ـ إنها العاصفة الرملية تقترب منا. غطي رأسك وأغمض عينيك وإلا ستضربها رمال لا ترحم.
فعلت مثلما طلبوا مني. انحنيت نحو الأرض مقرفصًا, تاركًا عاصفة الصحراء تمر من فوقي.
خشيت أن أفتح فمي فيمتلئ رملًا كما حدث لأذني.. أشعر بذرات رمل كبير ترتطم بوجهي, كأنها تلسعني بحرارتها.. تضرب رقبتي وتتسلل تحت قميصي لتلتصق بظهري المبتل عرقًا.

واصلت العاصفة سيرها مبتعدة عنا, ذهبت بعيدًا آخذة معها غيومها الذهبية..
واصلت السير دون كلام؛ أسمعهم يتحدثون دون أن أركز فيما يقولون.. تكلموا دون توقف وغنوا حتى تعبت حناجرهم, كنت كأصم بينهم، لا أذكر كلمة مما قالوا ولم أنطق أية كلمة.
لم أعد أشعر بتلك الموسيقى التي رافقتني خلال الطريق! كنت مشغولًا أفكر بما سرقه لايارد؛ خطف ملكًا ليحوله إلى عبد كتلك الصور التي ترجمها فوق الألواح.
عبد سيتوه في عالم لا ينتمي إليه. كنت أكثر الناس إحساسًا بما يمر به ذلك الإله لأنني أنا أيضًا كنت مثله أشعر بغربة مقيتة وأنا أسير بين رجال لا أنتمي إليهم وفي عالم لا أعرفه.

23

تلوح لنا خيم سوداء من بعيد. توسعت خطواتنا فرحًا بعثورنا على بقعة مأهولة بعد عدة ساعات من السير بلا توقف. لم أكن أرغب بالسقوط بين يدي قطاع طرق من جديد. قد لايكونون هذه المرة من أصدقاء الشيخ عبد الرحمن. ربما حسن حظ لايارد وسوء حظنا هو الذي ألقى باللصوص من أصدقاء الشيخ بطريقنا وإلا لكانوا قد أخذوا المال والثور، ربما كان أبو صقر سينفذ ما هدد به وكسر الثور وذره في الرياح.

استقبلنا البدو بترحاب دون أن يسألونا عن وجهتنا.. أوقد أحد الشباب نارًا أمام الخيمة التي سننام فيها. حينما أوقد النار لاحظت خشونة ملامحه الحادة، كانت عظام وجنتيه بارزتين وبشرته جافة.. تركت الصحراء ملامحها القاسية على وجهه الأسمر.

وجوهنا المتعبة تشي بحاجتنا للدفء والراحة. جلسنا في المساء قرب النار التي لم يسمحوا لها بالخمود. أصغي لطقطقة النار وأراقب الشرر المتطاير منها إلى الأعلى دون أن أفكر بالكلام مع أحد..

لا يتوقفون عن الكلام وسرد الحكايات، الكل يتكلم والكل يستمع في نفس الوقت.

يقدم لنا أحد الفتية القهوة المرة.. أشربها بتلذذ، أعيد إليه الفنجان الصغير دون أن أهز كف يدي. يسكب لي من جديد فنجانا ثانيًا. لا بأس سأشرب قهوة ثانية، وركزت على هز كفي هذه المرة كي أشير له بلغة البدو بأنني اكتفيت...

رائحة الكبش المشوي تختلط برائحة القهوة العربية؛ ذرات الرمال بدأت تكسب برد الليل محتفظة بالقليل من دفء النهار في أعماقها, تيار الهواء يدفع ذرات الرمال فوق قدمي الحافيتين فتدغدغ أصابعي.. ابتسمت مغمضًا عيني؛ سحبت نفسًا عميقًا. الهواء البارد ملأ صدري, أصغيت لعويل حيوانات الصحراء البعيدة. قلت لسليمان:

ـ جميلة هي حياة الصحراء.. حياة تحافظ على نقائها ولم تتغير منذ آلاف السنين.

ابتسم سليمان دون أن يقول شيئًا. ربما تلك هي آخر كلمة قلتها قبل أن أنام بعمق حتى طلوع الفجر.. لم أقاوم النعاس حتى لحظة استواء الكبش؛ كانت جفوني أثقل من التعب الذي يشل أطرافي والجوع الذي يعصر معدتي فنمت بعمق. أمست غفوتي أعمق من النهر الذي بلع تلك الثيران. ربما حاول سليمان أن يوقظني فلم يفلح.
شربنا لبن ناقة عند طلوع الفجر وقبلنا الشيخ البدوي شاكرين ترحابه، لم أتذكر اسمه. تلك هي مشكلتي، أنسى الأسماء بسرعة فاكتفيت بتسميته بالشيخ. لكنني لا أنسى الوجوه التي ألتقي بها، أما وجهه فلم يكن يختلف كثيرا عن وجه الشيخ عبد الرحمن، نفس البشرة الجافة ونفس التجاعيد وراء اللحية الكثة التي خط الشيب جوانبها.
غادرناه وواصلنا مسيرنا نحو كربلاء.
أشعر بألم خفيف في أذني اليسرى.. ربما تجمعت فيها ذرات الرمل خلال نومي. أخرجته بأصبعي لكن يبدو أن هنالك ذرات رمل نفذت إلى الداخل. الألم الذي تسببه ذرات الرمل في أذني جعلني أتخيلها صخورًا اخترقت رأسي وليس مجرد ذرات رمل صغيرة!
سليمان هو الآخر لم يكن على ما يرام. خطواته متباطئة:
ـ هل أنت بخير؟
ـ أنا بخير.. أشعر بألم في ركبتي لكنني بخير.

ساعات طويلة أخرى من السير تحت حر الشمس، قفزت مهللًا حينما لاحت لنا مدينة من بعيد:
ـ وصلنا.. الحمد لله لقد وصلنا. تلك كربلاء أمامنا أنظروا.
نظروا إلى بعضهم دون أن يشاركني أحد منهم فرحتي!
ـ هذه ليست كربلاء.. إنها مدينة الحلة.
لم أكن أتوقع بأننا سنمر ببابل في طريقنا.
خبت فرحتي, لم أكن أرغب باكتشاف مدينة جديدة, أدخلها وأنا أجهل كل شيء فيها.. لكن من يدري قد ألتقي هناك بأجدادي وأبناء عشيرتي.. سألتقي ربما بوالد جدي وأرى كيف كان يعيش وفي أي مكان. تشوقت للبحث عنهم، كانوا يدعون آل سليمان من عشيرة العلامي.
دخلنا سوقًا يعج بالمارة والباعة و... الذباب.

الذباب في كل مكان! أخشى أن أفتح فمي فتزوره ذبابة ويطيب لها البقاء فيه. أقدامنا تنغرز في أوحال الشارع فتغدو خطواتنا مترنحة.
أشم رائحة رماد بعيدة. كأن هنالك حريق قد أطفيء منذ وقت قصير.
نمشي في أزقة ملتوية بمحاذاة بيوت ذات جدران عالية. كلنا نسير وراء سليمان، لا أعرف لماذا يعتبرونه قائدهم، لكنني أكتفي بالتنفيذ دون نقاش.
سليمان يسير ببطء ويتعثر:
ـ هل أنت بخير يا سليمان؟
رد علي بالإشارة, اكتفى بهز رأسه بأنه بخير، وواصل سيره.
وصلنا إلى خان صغير، توقف قليلًا أمام بوابته الخشبية.. نظر إليه مليًا ثم استدار نحونا:
ـ أعتقد أنني سأفارقكم هنا, لم تعد لي طاقة لمواصلة الرحلة. خذوا هذا المال, سينفعكم في الطريق.
لم يفهم أحد منا ما كان يعني بهذا القول, التففنا حوله وهو يتكىء على جدار الخان:
ـ ماذا تعني؟! لماذا تعطينا هذا المال؟!!
بصوت واطئ ومتألم:
ـ لا أريد أن أدفن في الصحراء... أنا مريض جدًا. يجب أن أبقى هنا لأرتاح لعدة أيام. سألتحق بكم إن كتب الله لي العمر.
ـ لن نتحرك من دونك يا ابن العم.
ـ نعم، لن نتركك لوحدك هنا.
ـ كلا.. يجب أن ترحلوا. واصلوا طريقكم. قد التحق بكم فيما بعد. قد تكون هذه فرصتي الأخيرة للنجاة من هذه الرحلة المتعب.
اقترتبت من سليمان:
ـ أنا... أنا سأبقى معك.
التفتوا إليَ وقبل أن يقولوا شيئًا واصلت كلامي:
ـ سأبقى هنا وسأعتني به لحين شفائه.

في الحقيقة كانت المسافة التي تفصلني عن كربلاء لا تزال تبدو لي بعيدة جدًا. ثم من بعدها القافلة التي ستعبر بنا صحراء الأنبار حتى الوصول إلى الموصل، وماذا بعد؟ لماذا أعود إلى الموصل وليس لي فيها أحد؟ أنهكني

طريق العودة وأنا لا أزال في بدايته. فكيف بي وأمامهم أسابيع للوصول إلى الموصل!
هم يقطعون هذه المسافة شوقًا للعودة إلى ديارهم فلماذا أقطع مسافة طويلة سعيًا للوصول إلى اللامكان؟ إلى دوامة لا تفسير لها. إلى أرض لا أشعر بالانتماء إليها.
تبادلنا النظرات أنا وسليمان, منحني ابتسامة خفيفة؛ كأنني أعرفه منذ زمن طويل. بالفعل طوال الطريق كنت أشعر بأنه أقرب إلي من بقية الرجال.
كان هنالك تيار مغناطيسي بيننا. تيار لم أفهمه ككل ما يدور من حولي.
ـ لا أريد أن أتعبك يا سالم.
ـ لن تتعبني أبدًا.. وكما تعرف أنا لا أتعجل الوصول إلى الموصل فليس لي بها لا زوجة ولا أولاد كبقية رفاقنا.

لم يعترض بقية الرجال على كلامي، لأنهم بالفعل يتوقون للعودة لأحضان زوجاتهم ولعناق أطفالهم.
أخرجوا من الكيس أكثر من نصف الليرات تقريبًا ووضعوها بكيس آخر وناولوه لسليمان؛ أشاح بوجهه جانبًا رافضًا أن يأخذه منهم.
ناولني أحدهم المال وهو يقول:
ـ طالما ستبقى معه.
تناولت الكيس دون أن أقول شيئًا... وجدت نفسي فجأة مسؤولًا عن شخص بالكاد أعرفه. لا تربطني به غير رفقة على خشبة عائمة فوق الماء.
دخلنا الخان لنرتاح بعد عناء طويل. كنت سعيدًا عند الولوج من بوابة الخان المقوسة. وأخيرًا سأستلقي على سرير حقيقي.
لم أتوقع أن تكون الغرفة بهذه المساحة الكبيرة. تتراصف الأسرة على جانبيها كما في صالات المستشفى. صالة معتمة بجدران حجرية والجميع ينام في نفس الغرفة، الكبير والصغير, الصحيح والعليل.. وكلهم من الذكور.
دلني على سريري فتى في الرابعة عشر من عمره، على ما يبدو هو يساعد والده في إدارة الخان. رميت بجسدي المنهك على السرير، لشدة التعب لم أميز إن كان مريحًا أم لا.. للمرة الأولى منذ أسابيع أنام دون أن أتضايق من البعوض.

في اليوم التالي قال لي سلميان بأن الرجل الذي كان بقربي طلب من صاحب الخان أن يغير مكان سريره لأن شخيري منعه من النوم.
تناولنا في الصباح خبزًا منقوعًا بماء الباقلاء مع حبات الباقلاء المسلوقة وعصرنا نصف نارنجة على الطبق. ذكرتني تلك الوجبة بجدي الذي كان يتناولها صباحًا وهو يستهزئ بنا قائلًا:
ـ هذا هو أكل الرجال، أما الجبن والقيمر فهو فطور المخنثين الذين لا تقوى معدتهم على طحن الطعام.
كان يعتقد بأن المعدة تشبه المطحنة من الداخل! كم من مرة حاولت أن أوضح له بأنها مجرد كيس يهضم الطعام بمساعدة افرازات حامضية وقاعدية لكنه كان يقول لي:
ـ "لا تسوي نفسك فهيم براسي.. ولا اتدوخني بهاي اللغوة الفارغة".
فأتوقف عن الكلام مبتسما لبساطته في التفكير، فهو كالنجار الذي رفض فكرة وجود طائرة تحلق في السماء مصنوعة من الخشب والحديد لأن المطرقة التي بيده هي الأخرى من الخشب والحديد لكنها لا تطير.

* * *

للمرة الأولى أرى التردد يزور وجه سليمان. كأنه يرغب بقول شيء ما ثم يتراجع. يحاول أن يقول لي كلمة ثم يعدل عن ذلك ويصمت؛ يفكر عميقًا في شيء ما وتسبح عينيه في فضاء رحب لا أميزه. كأن عينيه تحلقان في المجهول! حزم أمره وقال لي بهدوء يائس:
ـ بإمكانك أن تغادر وتتركني هنا يا سالم إن رغبت بذلك.
ـ ماذا؟! لقد قطعت وعدًا بأن أبقى معك... لن أتخلى عنك بهذه السهولة.
ـ لا وعد ولا غيره.. أنا لن أعود إلى الموصل.. ما من داع لبقائك معي. قد أمكث هنا لأعوام طويلة.
ـ لماذا؟!! ألن تشتاق لأهلك وديارك؟!
ـ بلى لكن هنالك ثأر ينتظرني، إن عدت فسأخسر حياتي. الشيخ عبد الرحمن يعلم بذلك وهو الذي دبر خروجي بهذه الطريقة ونصحني بعدم العودة.
ـ ومن يطلبك بالثأر؟

ـ إنها الحكومة العثمانية..
ـ لماذا أنت؟! ما الذي فعلته لهم؟
ـ لقد كنت من القلائل الذين حاربوا مع اليزيديين في جبل سنجار بوجه العثمانيين. كان الجيش العثماني في تلك المعركة يتكون من الجنود العثمانيين ويساندهم أبناء العشائر الذين شاركوا في الحرب بوجه اليزيديين ظنًا منهم بأنهم ينشرون الدين ويقضون على الكفر. أما أنا فقد كنت أحارب لصالح اليزيديين لأنني أرفض وجود العثمانيين.
وخلال مواجهة مع إحدى الكتائب العثمانية تمكنت من قتل قائد الكتيبة محمد الدين آغا، والذي كان لسوء حظي من أقرباء الوالي العثماني.
أصر الوالي على إلقاء القبض عليَ وإعدامي في الساحة العامة كما فعل بالشيوخ اليزيديين كي أكون درسًا لكل من يفكر بمواجهة الجيش العثماني.
لم يستقبل الوالي محاولات الوساطة والشفاعة للعفو عني لذا بقيت مختبئًا في مغارات جبل سنجار متزودًا بالطعام الذي يصلني من القرى اليزيدية.
أكلت كثيرًا من ذلك الطعام المجفف في تلك الحفر التي تعثرنا بواحدة منها.
مكثت في الجبل أكثر من عام منتظرًا صدور أمر العفو عني من السراي الحاكم.. لكن ذلك العفو كان شبه مستحيل فحتى لو قام الباب العالي بإصدار العفو ستبقى حياتي مهددة لأن الوالي سيقتلني حينها بمكيدة يدبرها مع رجاله دون محاكمة.
وهكذا ألقى الوالي العثماني القبض على الشيخ عبد الرحمن لأنه كان يساعدني في مخبأي. لم يوافق الشيخ على الوشاية بي. بقي في السجن لحين ما قدما لايارد وبوتا مبلغًا للسراي ككفالة لإطلاق سراحه.
وحينما طلب لايارد من الشيخ أن يهيء له رجالًا لنقل الآثار إلى الخليج استغل الشيخ تلك الإرسالية ليمنحني فرصة التسلل خارج المدينة مع لايارد وبقية الرجال بمباركة عثمانية.
ـ لم أكن أتوقع كل هذا! وماذا ستفعل هنا؟ هل ستقضي حياتك في هذا الخان؟
ـ لدينا هنا صديق للشيخ عبد الرحمن. حملت له رسالة معي من قبل الشيخ، سيتولى أمري وسيسهل بقائي لحين العثور على مسكن وعمل.

بدأت أتخيل بأن الشيخ عبد الرحمن الذي يسكن خيمًا من الشعر في بادية الموصل لديه أصدقاء في كل مكان!

ـ والآن، ألا ترغب بالعودة إلى أهلك وعشيرتك يا سالم؟
ـ أنا.. أنا لا أهل لي هنا ولا أقارب.
ـ كيف هذا؟!.. من أين أتيت؟
ـ لا أدري من أين ولماذا أتيت إلى هنا!.. هل تفهم هذا؟
ـ ههه.. كلا.
ـ ولا أنا.
ـ من أي أعمام أنت؟ ما هي عشيرتك؟
ـ أنا من عشيرة النواجب.
ـ آه.. مستحيل! نحن من نفس العشيرة!
ـ والشيخ عبد الرحمن كذلك؟
ـ كلا هو شيخ عشيرة الشواهر، لكنه متحالف مع عشيرتنا لذا نحن في جبهة واحدة. لكن قل لي لماذا لم تكلمني عنك منذ البداية؟
ـ لا أدري.. ربما لأنني لم أكن أعرف بأننا من عشيرة واحدة.
ـ أهلًا بابن العم.
ـ قد لا نكون من أبناء عم مباشرين فأنا كما قال والدي وجدي من آل سليمان النواجب.
ـ فهمت.. لا أعرف اسم هذه العائلة لكن هذا ليس مهمًا. ما يهمني هو أننا من عشيرة واحدة وهذا يكفي بالنسبة لي.

سرنا سوية متوجهين نحو الحمام لأن سليمان أراد أن يستحم قبل أن يلاقي صديق الشيخ عبد الرحمن... عندما اكتشفت بأننا من نفس العشيرة تخيلت بأني مثل الشيخ عبد الرحمن ولدي أصدقاء أو أقرباء في كل مكان.
ـ وهل أنت من أهل الموصل؟
ـ لا أظن ذلك.. قال لي جدي بأن أحد أسلافي هاجر تاركا عشيرته واستقر في بابل لذا نحن نعتبر من أهل الحلة.
ـ غريب لا أعرف فخذًا من عشيرتنا توجه إلى الموصل من قبل! منذ متى حدث ذلك؟

ـ ربما منذ مائة وثمانين عامًا... ربما أكثر من ذلك بقليل.
ـ كلا هذا لم يحدث... لم يهاجر أحد من عشيرتنا منذ مائة وثمانين عامًا.

أشعر بخطواتي تتثاقل.. توقفت في مكاني لبرهة غير قادر على استيعاب ما سمعته للتو! سليمان يواصل سيره دون أن يلاحظ بأنني تجمدت في مكاني. نسيت بأني عندما قلت له مئة وثمانين عامًا كان ذلك بالنسبة لي أنا وليس بالنسبة له. فالمئة وثمانين عندي هو هذا اليوم الذي يعيشه سليمان. ماذا لو كان سليمان هو من هاجر من الموصل. فهو يبعد أكثر قرن ونصف عن حكايتي!

خلعنا ثيابنا في الحمام محتفظين فقط بملابسنا الداخلية. الكثير من الرجال العراة يغتسلون بماء ساخن يغلي في طسوت معدنية وتحتها مرجل نفطي بشعلة متوهجة كعيون شياطين وسط البخار الثقيل.
بعضهم يسكب على جسده ماًء مغليًا دون خلطه بالماء البرد! لم أستوعب كيف يمكنهم أن يحتملوا حرارة ذلك الماء. على الجانب الأيمن أربعة رجال ممددين على بطونهم فوق دكة مبنية من الآجر الأحمر وبجانب كل واحد منهم رجل عاري الجذع وبيده كيس من الألياف الخشنة ويدعك ظهورهم التي احمر لونها من شدة الدعك.
جذبتني فتحات دائرية صغيرة في السقف يتسلل منها ضوء الشمس وتسمح بتجديد الهواء النقي. يختلط الضوء النافذ عبر تلك الفتحات مع البخار مكونًا أعمدة ذهبية تتوزع بانتظام في الحمام. بعض تلك الأعمدة ينتهي عند أجساد الرجال العارية فتبدو كأنها متصلة بالسماء.
بدأت أحك رقبتي وظهري.. البخار الذي التصق بجسدي المغطى بطبقة من التراب سبب لي اهتياج جلدي.
ابتسم سليمان وهو يشير إليَ بيده بأن أجلس على مقعد حجري أمام الطست الممتلئ بالماء الساخن، فهمت بأنه اختار لي هذا المكان كي أستحم.
أمسكت بالطاسة المعدنية الصغيرة وسكبت الماء على رأسي.. كدت أقفز من مكاني لشدة الحرارة التي اخترقت جسدي.

أعدت الكرة ببطء. مع الطاسة الرابعة لم أعد أشعر بالحرارة، ربما أصبح جسدي أكثر سخونة من ذلك الماء المغلي.
غمرتني رائحة ماء الورد والعنبر التي تسبح في أرجاء المكان، تضايقت من ثقل تلك الرائحة المتخمة بذرات البخار الساخن. شعرت بها وهي تنفذ بثقلها الكئيب إلى باطن رئتي.
البخار الساخن يلف المكان كضباب كثيف يحجب الرؤيا. بالكاد أرى يدي وطست الماء أمامي. سكبت الماء الساخن على رأسي من جديد وتكلمت بصوت مرتفع دون أن التفت إليه:
ـ سليمان.. هل تسمعني؟
ـ ماذا بك يا سالم؟

لم أرد عليه.. كرر السؤال لكني لزمت الصمت. داهمتني فكرة غريبة. رغبة غريبة تسيطر علي، رغبة لم أشعر بمثيل لها طوال حياتي!!
لماذا لا أقتل سليمان وبهذا سأكون قد أنقذت نفسي من العودة إلى هذه الحياة المجنونة؟!
هذه الحياة التي أعيشها ليست إلا تكرار.. ستتكرر هذه الأحداث وستتكرر هذه السرقات..
لن يتوقف القتل ولن تتأخر عجلة الموت عن الدوران.. لكن ماذا لو أمسكت هذه العجلة المعطوبة بيدي هاتين..
لو قضيت على سليمان فهذا يعني بأنني سأوقف الزمن...الزمن الخاص بعائلتي أنا، لأن كل من سيولد في المستقبل سيكون منه هو.. إنه آدم عائلتي.
لو قتلته سأكون قد وأدت تلك العائلة وجنبتها تلك المصائب التي ستقع على رأسها.. سأنقذ عمي من ذلك السرطان الذي عذبه لأعوام قبل موته, سأختصر على والدي كل المتاعب التي تكبدها في حياته. سأنقذ نفسي من هذه الدوامة وكذلك من حزب الرايات الذي يسعى لنحر جسدي كخروف العيد؛ لن أرى بلدي ينزف أمام عيني.

نظرت إلى يدي المبلولتين من بين ذرات البخار الكثيف التي تغطي جفني.. لم أعد أسمع غناء أولئك الرجال وهم يترنمون بأغان قديمة ويسكبون الماء على أجسادهم الممتلئة.
لم يعد صوت ارتطام الماء بالأرض الساخنة يصل إلى أذني. كأنني أصبحت وحيدًا في هذا العالم!
ماذا لو أطبقت بيدي هاتين على عنق جدي وقطعت أنفاسه حتى الموت..
ماذا يمكن أن يحل بعائلتي؟ ربما لا شيء، لأنني سأكون حينها قد منعت كل من ينتسب إليها بالوصول إلى هذا العالم..
سأكون قد حررت نفسي وأخوتي وأبناء عمي وأولادهم وحتى أبي. لن أكون قد اقترفت جريمة بحق أحد منهم لأنهم وبكل بساطة لن يوجدوا بتاتا.
لن أقترف جرمًا بحق أحد لأنهم سيكونون شخصيات غير موجودة.. شخصيات وهمية كهذا الوهم الذي أعيشه الآن. لو فعلت ذلك سأكون قد غيرت ما عجز البعض عن تغييره.. .
سألت في يوم ما شيخ الجامع القريب من منزلنا عن المكان الذي نكون فيه قبل أن نولد بخمسين عامًا فأجابني بثقة: في عالم الذر. عالم غريب لا أفهم كيف فسره لي، تحدد فيه دين كل واحد منا وعلاقته بربه.
إن كان كلامه صحيحًا فسأمنح عائلتي فرصة العودة إلى عالم الذر.. أو فرصة البقاء هادئين في عالم الذر، فهو عالم هادئ كما يقال. وحتى المجرمين يكونون في ذلك العالم أشبه بالملائكة. إن كان الأمر كذلك فهذه هي اللحظة الوحيدة التي أمنح فيها أهلي فرصة البقاء مخلدين في ذلك العالم الخالي من الحركة. لو قتلته هل سأكون مجرمًا؟ لن يكون ذلك جرمًا لأنني غير واثق من حقيقة ما أعيشه وهذا ما بدأت أهواه.
إن كنت أحلم فكل شيء مباح..
من يحاسبني عن حلم؟
لن يرى أحد هذا الحلم غيري أنا؛ فمن سيكتشف تلك الجريمة.. غيري أنا وحدي.. كل هذا العالم هو عالمي أنا لوحدي.

استويت واقفا والماء ينسدل عن كتفي وشعري يقطر مأً ساخنًا على ظهري:
ـ سليمان، أنا حفيدك... هل تسمعني؟

ـ هههه.
ـ أنا لا أمزح. كنت ستكون جدي لكنني سأغير ما مكتوب في لوح الأقدار.
ـ أنت مجنون يا سالم.

تلك آخر كلمة سمعتها عندما بدأ الماء يغلي في الطست أمامي. فقاعات الهواء تخرج من الطست وتنفلق بسرعة فترمي على ساقي رذاذًا حارقًا. حاولت أن أتقدم صوب سليمان لكن رذاذ البخار أصبح كثيفًا كجدار سميك حجب عني الرؤيا! فركت عيني وأنا أتجه نحوه.
تقدمت عدة خطوات دون أن أصل إليه.. أنا متأكد من أن صوته صدر من مسافة لا تتجاوز مترين لكن... لم أعثر عليه!
لم أر أحدًا حينما تقدمت باتجاهه.. حتى أصوات ارتطام الماء على الأرض من طسوت المستحمين قربنا لم أعد أسمعها!
توقف الغناء والترنيم الذي كان يصدر من بعض الرجال.. عم هدوء مخيف وسكينة مريبة!
وفجأة بدأ الحمام يهتز بفعل خطوات جبارة تتقدم نحوي! كانت على ما يبدو وقع حوافر ضخمة لمخلوق يزن أطنانًا.
بدأ الحمام يهتز كمنخل بيد الطحان، تصورت لبرهة بأن زلزالًا ضرب المدينة.
برزت أمامي هيئة حيوان ضخم، أراه بين الضباب الكثيف كجبل أسود يقترب بهدوء وثقة. تقدم أكثر فأصبحت لا أرى شيئًا إلا هو.. هو وحده.. منتصبًا، هائجًا، غاضبًا.
كدت أسقط مغشيًا علي من شدة الخوف، نسيت سليمان ومحاولة التخلص منه.. حاولت الاستنجاد بسليمان لينقذني لكن لساني أصيب بشلل كأني لم استخدمه طوال حياتي!
تقدم أكثر فعرفته.. إنه هو..
إنه الثور المجنح واقف أمامي! كاد قلبي أن يكسر أضلاعي لشدة النبض وتسارعه... شعرت بأن مضخة الدم هذه ستفجر شراييني وسيتدفق الدم من عيني وأنفي. تراجعت خطوتين إلى الوراء فالتصق ظهري العاري بجدار الحمام الحجري. لسعتني حرارة الجدار المبتل بالبخار الكثيف.

تقدم نحوي حتى أصبحت لحيته المتدلية على صدره قريبة من وجهي. خلته سيكسر عظامي بحوافره الخمسة.
قال لي وهو ينظر إلي دون أن يحني رأسه:
ـ هل فهمت الآن لماذا كنت أرفسك طوال هذه الأعوام؟
وددت أن أقول له لم أفهم السبب لكن لساني كان مشلولًا وكذلك أطرافي. لم أعد قادرًا على تحريك إصبع يدي فكيف سأكون جملة في رأسي وألفظها أمامه؟! شعرت بتسلط إلهي يجتاحني فيتركني عاجزًا عن فعل شيء.
ـ كنت أعاقبك لأنك وجدك هذا أخرجتموني من أرضي.. هو الذي ربطني بالحبال من عنقي كي يسحلني بعيدًا عن خدمي وعبيدي.

فكرت بأن أعلن براءتي من سليمان وأقول له بأنني لا أعرفه، لكني خفت أن يعاقبني بشدة إن كذبت عليه. فهو يعلم بأننا بقينا سوية. فكرت بأن أعلن له عن الرغبة التي تملكتني للتو، رغبتي بقتل سليمان. قد يزيد ذلك من غضبه ويقتلني أنا بدلًا منه. قررت أن أبقى صامتًا أو بالأحرى الصمت هو الذي قرر أن يهيمن علي ليمنعني من الكلام بحضرته.
ـ أنا الذي رمى بك هنا كي ترى جدك بأم عينيك. والآن وقد رأيت ما رأيت.. افعل ما تطهر به ذنب أجدادك..
ظننته يؤازرني على فكرة قتل جدي كي آخذ له بثأره لكنه عاجلني ورفع أثنتين من ساقيه للأعلى وبقي منتصبًا على ساقين اثنتين فقط، خيل إلي بأن سيقانه تجاوزتا الغيوم ارتفاعًا. فهمت بأنه لم يكن يقصد قتل جدي لأن ساقه الخامسة كانت تستعد لتوجيه رفسه حجرية إلى وجهي. أغمضت عيني بقوة... كنت كنعامة تغرز رأسها في حفرة صغيرة فتظن ألا أحد يراها.. أغمضت عيني وأنا أعلم أن ذلك لن يغير شيئًا.
سمعت سليمان يصرخ بألم:
ـ عيني آه.. عيني.
قد يكون الثور وجه له ضربة فقأت عينه. استدار نحوي ورفس الأرض أمامي فاندفع جسدي طائرًا إلى الخلف وارتطم رأسي بأرض حجرية مغطاة بالماء والصابون. أغمضت عيني فاقدًا الوعي...

24

ما من فواصل بين أغاني الحرب على شاشة التلفاز غير آخر حصيلة للقتلى على أرض المعركة في الرمادي وسامراء.
بدأت صور ضحايا الحرب من المتطوعين تملأ الشوارع. ثلاث صور كبيرة لشبان في العشرين من العمر أو أكثر بقليل عند مدخل الشارع الذي تسكن فيه وسن. خمس صور في الشارع المجاور، وأكثر من ذلك في شارع آخر.
يضع البعض آيات قرآنية قرب تلك الصور, تمر النسوة لقراءة سورة الفاتحة على أرواحهم ويضعن زهورًا بلاستيكية يربطنها بقطع قماش خضراء اللون نقشت عليها أسماء الأئمة الاثني عشر باللون الذهبي.
لم تعد هناك من دموع تذرفنها الأمهات على أرواح أبنائهن الشباب, فالقتلى أمسوا أكثر من الدموع...
تتكاثر الصور يومًا تلو الأخر.. وتنتشر بينهن الزهور البلاستيكية, فلم تعد هناك من زهور حقيقية تتورد على تلك الأرض.
تمر وسن من أمام تلك الصور وبين أضلاعها قلب كليم ينبض بالخوف. تخشى أن تضاف صورة رابعة عند أول الشارع ليحتل أخاها هادي ركنًا صغيرًا من بينهم.
يتصل بها هاتفيًا بين الحين والآخر ليطمئنها بأنه... على قيد الحياة! لهفتها حين سماع صوته تكبح كلماتها.
اكتشفت خلال غيابه بأنها شديدة التعلق به. غياب سالم عن حياتها فسح مجالًا واسعًا لهادي, ليتربع على قلبها الذي لم يعد مشغولًا إلا به.
تتابع الأخبار بلهفة على التلفاز وعيناها تبحثان في صور المعارك عن خيال أو طيف يمر من بين المقاتلين, علها ترى هادي هناك ببزته العسكرية الموشاة باسم الحسين وهو يصوب النيران مع رفاقه, ويصلون على النبي مع كل قذيفة, أو يهتفون باسم علي قبل كل رصاصة.
لا تطيق الانتظار عندما ينقطع التيار الكهربائي.. تلعن شاشة التلفاز التي انطفأت فجأة لتتحول إلى مستطيل أسود كئيب؛ لا يقل سوداوية عما يعرض لها من مشاهد.

تنتشل هاتفها الجوال الذي تعودت تركه على سريرها, فهو أنيسها قبل النوم. تبحث عبر شبكة الانترنيت عن آخر مقاطع الفيديو التي تم اضافتها على موقع يوتيوب, وهي تتمنى أن يحالفها الحظ في يوم ما وترى ولو تسجيلًا قصيرًا يظهر فيه بطلها هادي وهو يحارب داعش. لكن ما من صورة له تطفئ لهيب شوقها فتعزي نفسها بالقول:
ـ لعله هو الذي خلف الكاميرا يصور هذا المشهد.

جذب الصياح المنبعث من الشارع انتباهها, اقتربت من شباك غرفتها في الطابق العلوي. موكب من عشرات الرجال يمر بمحاذاة منزلها وهم يحملون نعشًا على الأكتاف مغطى براية خضراء طرز عليها بخيوط صفراء عبارة يا ساقي العطاشى.
لم يصعب عليها التعرف على صاحب الكنية, فهي تحيا في منزل متخم بصور الأئمة؛ منذ صغرها وهي ترى على جدار الممر الذي يتوسط بين مدخل المنزل وغرفة الجلوس صورة العباس أخو الحسين وهو منحن نحو النهر ليملأ قربة جلدية بالماء وقد انغرزت بعض الأسهم بظهره وساقه. وتحت الصورة عبارة السلام على أبي الفضل العباس كفيل الحرائر وساقي العطاشى.

راقبت وسن النساء وهن يمشين في ذيل موكب التشييع. وجوههن المتعبة تلمع بتلك الدموع المستمرة بغسل الخدود المتورمة من اللطم على الوجه.
ـ يا ترى من تكون والدة صاحب هذا التابوت من بين أولئك النسوة. الكل تبكي, الكل تلطم. التراب يغطي العباءات، كلهن يشتركن بالحزن, فمن منهن أشد حزنًا؟ أم تراهن يشتركن بنفس القدر من الحزن؟ هل أمهات أصحاب تلك الصور في أول الشارع أتين في هذا التشييع لتجديد حزنهن, أم تراه حزن يتجدد دون الحاجة إلى اغتراف غرفة من حزن رفيقتها؟

موكب التشييع يتقدم ببطء, يمر من تحت شباكها ويواصل تقدمه. لم يلحظ وجودها أحد. الرجال يمشون وراء شيخ يرتدي عباءة سوداء ويضع على رأسه عمامة بيضاء ويلف حول كتفه ورقبته قطعة قماش بيضاء كتب عليها بدم ذلك الشهيد: هذا كفني.

يلقي أبياتًا بصوت رخيم فيرددها من بعده بقية الرجال كأهازيج شعبية:
ـ وداعة الله يا شهيد.. وداعة الله يا شهيد سلملنة على الصدر,
وقل له سيد مقتدى ما نعوفة.

قبل أيام مرت من شارعهم جنازة مماثلة, ظنت حينها بأن شباب الحي سيشعرون بالخوف من منظر الموت فيعدلون عن رغبتهم بالالتحاق بسرايا الحشد الشعبي.
لكن قوافل المتطوعين تستمر بالتوجه نحو الأنبار لتحريرها من داعش، يذهبون جموعًا, فيعودون فرادى, يذهب الآلاف فلا يعود منهم غير حفنة من الرجال. حفنة لم يعدها سوى جراح منعتهم من مواصلة القتال.
تتابع وسن الأخبار على شاشة هاتفها ثم تتركه جانبًا. تتردد الكلمة مئات المرات على مسامعها: الجهاد, الجهاد.
معارك جهاد بحثًا عن الشهادة، داعش يسعون للموت للحصول على حور العين، والحشد الشعبي يسعى لتحرير البلاد أو للإلتحاق بالأئمة الإثني عشر من أهل بيت النبي.
وهم مستمرون بالغناء:
واجب نأدي التحية باحترام... واجب نأدي التحية باحترام,
لكل شهيد طاح من جيش الإمام..

تتخضب الحلبة بالدماء، فتكون الهدنة بهدف غسل أرض المعركة لمعاودة القتال من جديد.
صور الشهداء تملأ شوارع بغداد. نداء الجهاد لاقى آذانًا صاغية في أغلب محافظات البلاد وامتلأت الأزقة بمجالس العزاء.
انقسمت تلك الأزقة إلى قسمين، جهة لمجالس العزاء والجهة الأخرى لاستقبال النازحين من تلك العوائل التي هربت من ساحة المعركة.
تحولت مساكنهم في الأنبار إلى خنادق لداعش فآثروا التخلي عنها بدلًا من التخلي عن حياتهم وحياة أبنائهم.
لم يخلع الأطفال الزي العسكري بعد، أصبحوا يغنون أناشيد الحرب والحماسة في مدارسهم، يرن صدى تلك الأغاني على جدران بيت وسن

الذي لا يبعد كثيرًا عن باحة المدرسة. تغلق اذنها تارة وتضع سماعات الهاتف باذنها تارة أخرى للهرب من تلك الأناشيد.
تتذكر بأنها كانت تعيش قصة حب في يوم ما, لكن يأسها من حبيبها جعلها تردد في سرها:
ـ أمست عودة سالم إلى أحضاني مستحيلة. لا مكان للحب في بلد يصبح ويمسي على الانفجارات. لن يقاوم الحب أمام أحداث كهذه.. هو مجرد إحساس قد يمحوه أبسط انتحاري يمر من هنا.

حينما تتواتر مجالس العزاء في الشوارع لا يكون هناك من وقت لسماع أغاني الأعراس. مجلس العزاء يستمر لأيام لكن العرس يتم بسرعة خجلًا من استعراض الفرح أمام المنكوبين. فيتحول الحزن إلى حياة مألوفة والفرح خروج عن المألوف. خروج غير مرحب به.

توقعت بأن تلك الحيرة ستنتهي لأنها وعدت هادي بأنها ستفكر من جديد بمقترحه بالزواج من صديقه؛ تفكر بالمقترح لكنها لا تفلح باتخاذ القرار:
ـ هل تسرعت عندما لمحت لأخي بالقبول بصديقه؟ هو شاب لا بأس به كزوج، متعلم ومثقف تمامًا كسالم، هو وسيم مثل سالم لكن.... لكنه ليس سالم. هو شخص آخر.
وافقت لأنني رأيت به شبهًا من سالم؟! قد يلتم شملنا أنا وسالم من جديد, لكن إن تحقق ذلك فلن تكون الأمور على حالها.
عندما نغيب تتغير الأمور ويتغير الناس وكذلك الظروف. تبقى صورة الحياة على حالها لأننا تركنا ذلك المكان على حال معين. لكن تلك الصورة هي في قلبنا فقط هي ذكرى تغيرت على أرض الواقع. نعود حاملين ابتسامتنا الأولى فنكتشف منذ الوهلة الأولى بأنها أصبحت قديمة.

25

كنت ممددًا على سرير وسط غرفة واسعة, حاولت النهوض لكن ثقل جسدي حال دون ذلك. ربما كنت مقيدًا دون أن أدري.. أشباح تتحرك أمامي..
غابت عن عيني تلك الأشباح ليحل محلها ضوء خافت.
هل عدت إلى منزل ابن عم رياض؟ وما هذه الأشباح أمامي؟!
كلا هي ليست بالأشباح, إنه والدي ومعه رجل يرتدي سترة بيضاء أو ربما هي صدرية طبيب!
ماذا يفعل هذا الطبيب هنا؟ ولماذا أنا في هذا المكان؟

ـ أبي هذا أنت؟! أين أنا يا أبي؟
ـ لقد سألتني هذا السؤال للمرة العاشرة في هذا اليوم يا ولدي!
ـ أنا؟!! أنا سألتك؟!!
ـ نعم يا سالم.
ـ طيب, أين أنا؟
ـ أنت في مستشفى إبن رشد.
ـ مستشفى؟ لماذا؟
ـ لأنك بحاجة للعلاج ولإجراء تخطيط للدماغ يوميًا.
ـ تخطيط الدماغ! لماذا؟! ثم أن مستشفى إبن رشد هي للمجانين فما الذي أتي بي إلى هنا؟!!! ومتى حدث ذلك؟
ـ أنت هنا منذ أسابيع يا بني.
ـ ماذا؟! ولايارد, أين رحل؟
ـ هووو, عاد من جديد لحكاية لايارد وهرمز.. ألا تنوي أن ترحمنا منهما؟

ما الذي يقوله والدي لي, هل هو محق؟ هل كلمته فعلا عدة مرات في هذا اليوم؟! لكني لم أكن معه, فلماذا يكذب عليَ؟!

ـ هل عدت إلى منزلنا يا أبي؟ هل استرجعت بيتنا؟
ـ ليس بعد.. عن قريب إن شاء الله.

ـ حقا, هل اعتذرت لهم؟
ـ قلت لك عن قريب.
ـ قل لي يا أبي بالله عليك, لماذا مزقت صورة الخميني التي كانت معلقة في أول شارعنا؟

نظر الطبيب إلى والدي بغضب:
ـ ماذا؟ ماذا فعلت؟
طغت ابتسامة تائهة على وجه أبي وقال بتردد:
ـ يبدو.. يبدو أنه عاد إلى جنونه من جديد أيها الطبيب.

تمت

باريس
الخميس 15 أيلول 2016